ABU ABDO ALBAGL

# غرف بلا جدران

## أو: ما هذا (البيت المشترك)؟

حوارات مع

ميلان كونديرا
فاتسلاف هافل
يوهان رايخ
كارلوس فوينتس
غابرييل غارسيا ماركيز
ليوبولدو ثيا
ارنستو ساباتو
كلود ليفي ـ شتراوس
أمبرتو إيكو
كاميليو خوسيه ثيلا
الطاهر بن جلون
يهوذا عميخاي

ترجمة وتقديم
إلياس فركوح

دار الآداب

5085

# غرف بلا جدران

## أو: ما هذا (البيت المشترك)؟

0933788618

رقم التصنيف : ٤٣ر١٥٣
المؤلف ومن هو في حكمه :ترجمة الياس فركوح
عنوان المصنف : ما هذا البيت المشترك
الموضوع الرئيسي : ١ـ التفكير والتحليل
٢ـ الأدباء
رقم الإيداع : ( ١٩٩٦/١/٢٠ )
بيانات النشر : عمان: دار أزمنة .
*ـ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل : ١٩٩٦/١/١٦

☐ غرف بلا جدران [ ما هذا البيت المشترك ] (ترجمة): الياس فركوح
☐ الطبعة الأولى : ١٩٩٦
☐ الإصدار الثاني : ٢٠٠٠
☐ جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق وعقد ©

أزمنة ®
أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح) الصف الضوئي: أزمنة (إحسان الناطور) فرز وسحب الأفلام: الشروق الطباعة: شركة الشرق الأوسط للطباعة تاريخ الصدور : كانون الثاني ٢٠٠٠

# غرف بلا جدران

## أو: ما هذا (البيت المشترك)؟

حوارات مع

ميلان كونديرا
فاتسلاف هافل
يوهان رايخ
كارلوس فوينتس
غابرييل غارسيا ماركيز
ليوبولدو ثيا
ارنستو ساباتو
كلود ليڤي ـ شتراوس
أمبرتو إيكو
كاميليو خوسيه ثيلا
الطاهر بن جلون
يهوذا عميخاي

ترجمة وتقديم
إلياس فركوح

المؤسسة

# المحتويات


مقدّمة المترجم

حوار مجتمعات مدنية ..... ٧

**الباب الأول : أوروبا الشرقيّة** ..... ١١

**١ . ميلان كونديرا**

- قصة تغيير : نَص ..... ١٣
- عن ميلان كونديرا ..... ٢٧
- رواية اليوم تمتحن الشرك ، تمتحن عالمنا : حوار ..... ٣١

**٢ .ڤاتسلاڤ هاڤل**

- عن ڤاتسلاڤ هاڤل ..... ٥١
- الشرق خطا خطوته ، فماذا عن الغرب ؟ : حوار ..... ٥٣

**٣ . يوهن رايخ**

- عن يوهن رايخ ..... ٦١
- كُلنا قُمنا بتسيير الأمور ـ كُلنا معاً : حوار ..... ٦٣

**الباب الثاني : أميركا اللاتينية** ..... ٧١

**١ . كارلوس فوينتس**

- اكتشاف المكسيك : نَص ..... ٧٣
- عن كارلوس فوينتس ..... ١٠١
- لسنا ضحايا التاريخ الأبديين : حوار ..... ١٠٣

**٢ . غابرييل غارسيا ماركيز**

- عن غابرييل غارسيا ماركيز ..... ١١٣
- أنا كاتب واقعي .. خالص وبسيط : حوار ..... ١١٥

**٣ . ليو بولدو ثيا**

- عن ليوبولدو ثيا ..... ١٢٣

ـ الحرية لا تتحقّق في إطار التجريد : حوار ..... ١٢٥
**٤ . إرنستو ساباتو**
ـ عن إرنستو ساباتو ..... ١٣٥
ـ الحس بالتساؤل : حوار ..... ١٣٧

**الباب الثالث : أوروبا الغربية** ..... ١٤٧
**١ . كلود ليڤي ـ شتراوس**
ـ عن كلود ليڤي ـ شتراوس ..... ١٤٩
ـ الفردية الغربية جرّدت الإنسان من جدار الحماية : حوار ..... ١٥١
**٢ . أمبرتو إيكو**
ـ عن أمبرتو إيكو ..... ١٥٩
ـ المفكرون ليسوا « حُكماء » : حوار ..... ١٦١
**٣ . كاميليو خوسيه ثيلا**
ـ عن كاميليو خوسيه ثيلا ..... ١٦٩
ـ الأدب ضرورة ، وغايته ليست تصحيح العالم : حوار ..... ١٧١

**الباب الرابع : الشرق الأوسط** ..... ١٧٩
**١ . الطاهر بن جلّون**
ـ عن الطاهر بن جلّون ..... ١٨١
ـ أن تقف خارج القطيع : حوار ..... ١٨٣
**٢ . يهوذا عميخاي**
ـ عن يهوذا عميخاي ..... ١٩٥
ـ يهوذا عميخاي : جندي صهيوني يكتب الشعر / **صلاح حزيّن** ..... ١٩٧
ـ الشعراء كتيبة مُشاة ! : حوار ..... ٢٠١

# حِوارُ مجتمعاتٍ مَدَنيّة

ما معنى القيام بتجميع عدة حوارات أُجريت مع كُتّاب مختلفين في ضروب التفكير، وموزّعين على قارات متباعدة ، ومُنتمين إلى جذورٍ ثقافية ـ حضارية متغايرة ، وليسوا ـ جميعهم ـ من أصحاب التخصص الواحد ؟.

ما معنى هذا التجميع لحوارات لا تُغطّي موضوعاً محدداً لتكونَ ، بالتالي ، استبياناً يحملُ في باطن الإجابات مؤشرات ذات دِلالة ؟

ما معنى ضَمّ حوارات لم يجمعها زمانٌ واحد ليستوفي ، من ثَم ، وظيفة الإحاطة بكيفية النظر إلى مُعطياته وأساليب معالجة مشكلاته ؟

وأخيراً : ما معنى هذا الكتاب ؟

ربما يكمنُ المعنى الأساسي للعمل التجميعي هذا ، بحسب اجتهادي ، في ميزة الفُضول والتَنبُّه الثقافيين أولاً . الفُضول من أجل الحصول على معرفة لا تمنحنا إيّاها النصوص المتوفرة والشائعة لأصحاب هذه الحوارات ، نستطيع ، من خلالها ، تجلية واستكمال رؤاهم فيما يختصّ بموضوعات ليست مطروقة في أعمالهم . وبهذا ، نعملُ على كشف المسكوت عنه في ظاهر النصوص ، لدواعٍ فنيّة وموضوعية شتّى . أما التنبُّه ، فإنهُ على مدى التغيُّر الذي يُصيب ، في الغالب الأعمّ ، سيرورة التفكير عند المرء حين تهزّهُ عواصف التقلبات / الإنقلابات الحادثة في حياة الواقع بحيث توجب عليه ، بالضرورة ، أن يستجيب لواقع حياةٍ جديد .

ABDO ALBAGL
مدونة ابو عبدو

فالتفكير ( كمؤشر على إنسانية سويّة ) لا يستقيم مُلبيّاً « منطقه » بغير قُدرته على معالجة كل مُستَحدَث في الواقع بالتصدي له ، مثلما أنه لا يساير « طبيعته » دون جُرأة صاحبه في إقدامه على فعل المراجعة . أقولُ « جُرأة المراجعة » لأنَّ المراجعة ، في بُعدها الأقصى ـ وربما الأقسى ، تعني المواجهة : مواجهة الذات ، ونقدها ، والإنسحاب من بعض خنادقها .. حتّى .

هكذا ننسحبُ من الدوغما ـ والدوغما واحةُ الكثيرين ممن يسدرون في العَماء : هكذا ننتقلُ إلى الكوجيتو ـ والكوجيتو بحثٌ شكاك هدفهُ ولو اليقين النسبي ، والجزئي .

هل من معنى لفحوى السياق السابق ، وأيّة صلة له بهويّة ما سوف نجعله كِتاباً ؟ دون اللجوء إلى الإطالة ، والتسويغ الظاهري ؛ ادّعي : لقد رأيتُ عبر تدقيقي بكلِ حوارٍ ترجمته في حينه ، وعبر تأملي بجميع الحوارات فيما بعد ، أنَّ خيطاً ما انتظم جواهرَها وتَصَلَبَ ليتشكلَ فيَّ وتَراً تَوتَرَ ليرسلَ داخلي إشارة التَمَدُّن : إشارة توقي الدائم إلى مجتمعٍ مَدَني : إشارة الحاجة الواجبة ـ الضرورية للعمل على إيجاد ركائز ومقومات هذا المجتمع ـ كأنما هو إحدى اليوتوبيات عندَ الحلم به في قَحْط مجتمعاتـ ( نا ) الفاقدة لمدنيتها : إنها تجمعاتنا بالأحرى ، إذَن.

ليس من حدود مفتوحة للإفصاح عن التفكير بغير الحريّة . وليس من ذِهنٍ تُتاح له سِعَة التفكير بغير وجود للحِراك في الواقع . وليس من واقعٍ يتحرّكُ ليتغيّر ما دامت مسوغات صعود الأفراد هي هي تلك الأحزمة الرافعة بسلطة العُرْف المتمسّك بـ الكَم العددي للجماعة .. لا بقانون الكيف النوعي للفرد .

هذا كتابٌ أرى أن جُملة حواراته ما كانت لتكون بهذا « الإفصاح » لولا دُربة الذهنية المحاوَرَة ( في عمومها ) على العيش والتمدد وسع مجتمع مَدَنيّ ـ مؤسَس غير مُنَتّهٍ وغير كامل .. وما كانت لتكون بهذه الجرأة على التحديق والمراجعة ـ المواجهة لولا وجود الفرد كقيمةٍ بحد ذاته ، وليس كحياةٍ يبتلعها حوتُ الجماعة ـ أي جماعة .

□□□

لغاية حَصْر ما يمكن حَصْره لجأتُ إلى تقسيم الحوارات وجَعْلها في أبوابٍ أربعة بحسب مناخ القارات الاجتماعي ، والثقافي ، والسياسي . وكذلك لغاية قراءة التجربة وخصوصيتها وتأثيرها في مثقفي / مُفكري تلك القارات واستجاباتهم لها : أوروبا

الشرقية، وأميركا اللاتينية ، وأوروبا الغربية ، والشرق الأوسط .

ولكوني كنتُ قد ترجمتُ مادتين لهما مَساسٌ بفحوى الحوار مع كُلٍ من « ميلان كونديرا » و « كارلوس فوينتس » ، ارتأيتُ أن أضعهما قبل كل حوار كأرضيّة مساعدة .

بقي أن أنوّه إلى أني استعنتُ بملاحظات الأستاذ « صلاح حزيّن » على حوار «يهودا عميخاي » على سبيل التقديم والتعليق، لافتقاري إلى ما يكفي من معلومات وإحاطة بما هو كائن في الجانب الثقافي للمجتمع الإسرائيلي / اليهودي في فلسطين .

*الياس فركوح*

*تشرين الثاني ١٩٩٥*

*عمّان*

# الباب الأول

## أوروبا الشرقية

- ميلان كونديرا
  قصة تغيير : نَص
  رواية اليوم تمتحن الشَرَك : تمتحن عالمنا .
- فاتسلاف هافل
  الشرق خطا خطوته ، فماذا عن الغرب ؟
- يوهن رايخ
  كُلنا قُمنا بتسيير الأمور ـ كُلنا معاً

# قصة تَغيير

**ميلان كونديرا**

(١)

عندما غزا الروس بلدي الصغير عام ١٩٦٨ ، خضعت جميع كُتبي للحظر ، وفجاة لم يعُد بمقدوري أن أعمل لأعتاش على نحو قانوني . كثير من الناس أرادوا مساعدتي . وفي يوم جاءني مدير مسرح ليقترح عَليّ أن أكتب ، وباسمه هو ، تعديلاً درامياً لرواية **الأبله** لديستويفسكي .

وهكذا أعدتُ قراءة الكتاب ووجدت بأنني غير قادر على ذلك ، ولو مُتّ من الجوع . لقد عَملَت على تنفيري منه كُل من الإيماءات الزائدة ، والأعماق المظلمة ، والنزعة العاطفية العدوانية . شعرتُ فوراً بحنين لا تفسير له لرواية **جاك القَدَري** . Jacaues Le Fataliste

« ألا تفضّل ديدرو [١] على ديستويفسكي ؟» ، سألت مدير مسرحي .

لم يكن كذلك ، لكنني ، وبالمقابل ، لم أكن لأستطيع تخليص نفسي من الرغبة المفاجئة والغريبة للبقاء أطول مدة ممكنة بصحبة جاك وسيده ؛ وهكذا بدأت بتخيلهما كشخصيتين في مسرحية لي .

(٢)

لماذا هذا الكُره المفاجيء لديستويفسكي ؟

أهو الانعكاس الضد ـ روسي من قِبَل تشيكي تأذى جَرّاء غزو وطنه ؟ كلا ، لأنني لم أتوقف على الإطلاق عن محبة تشيكوف . أهي الشكوك حول القيمة الجمالية الفنية لأعماله ؟ كلا مرة أخرى : لم أقدر على المطالبة بأوهى موضوعية لنفور استحوذ عليّ وتملكني على حين غرة .

كان الذي أثارني في ديستويفسكي ، حقيقة ، هو مناخات كتبه ؛ عالم حيث يتحوّل كل شيء فيه إلى عاطفة . ولأفسر الأمر على نحو آخر : عالم حيث ترتفع فيه العاطفة إلى مستوى القيمة والحقيقة .

في اليوم الثالث للغزو كنت أقود سيارتي من براغ إلى بوديجوفسك ـ البلدة التي كتب عنها كامو مسرحيته **سوء فهم** . وعلى طول الطُرق وعرضها ، وفي الحقول ، والغابات ، وفي كل مكان كان جنود المشاة الروس قد أقاموا معسكراتهم . أوقفوا سيارتي ـ أمر الضابط المسؤول جنوداً ثلاثة بإجراء التفتيش . وعندما انتهوا ، سألني بالروسية : « كاك تشوفستفويتيس ؟ » التي تعني « كيف تشعر ؟ » أو « ما هي عواطفك ؟ » . لم يكن القصد من السؤال الاستفزاز ولا السخرية ؛ على العكس ، إذ أكمل : « كل هذا الشيء ليس غير سوء فهم كبير . لكنه سوف يُسوّى . عليك أن تعرف بأننا نحب التشيكيين . نحن نحبكم جميعاً ! » .

كان الريف قد تمزقَ وتَقطعَ بواسطة آلاف الدبابات ، كما تعرضَ مستقبل الأمة للخطر على مدى قرون . لوحقَ المسؤولون التشيكيون وأُعتقلوا ـ بينما يقوم أحد ضباط الجيش المحتل بعرض حبه عليك . أرجوك افهمني : لم يكن لدى الرجل الرغبة بانتقاد الغزو ، بل كان بعيداً عن كل هذا . جميعهم تحدثوا بالقليل القليل ؛ إذ لم ينشأ موقفهم على البهجة السادية للاغتصاب ، وإنما وفق نموذج أصلي آخر تماماً : الحب غير المرغوب به . لماذا لا يريد هؤلاء التشيكيون ( الذين نحبهم جداً ) أن يعيشوا معنا، وأن يعيشوا مثلنا ؟ يا لأسف أن نُضطر إلى استخدام الدبابات لنعلمهم طبيعة الحب !.

(٣)

النزعة العاطفية أمر لا غِنى للإنسان عنه ، لكنها سجية مبهمة حينما يبدأ اعتبارها قيمة في ذاتها ، أو كمعيار للحقيقة ، أو كتبرير لشكل من أشكال السلوك .

يقف أكثر العاطفيين الطبيعيين تُبلاً على أهبة الاستعداد لتسويغ أسوأ الأمور المرعبة ؛ لقد تضخمَ قلبهُ بالعاطفة المشبوبة ، إذ يرتكب الإنسان أحطّ الأفعال بالاسم المقدّس للحب .

إن إحلال النزعة العاطفية محل الفكرة العقلية يُنتج جهالةً وتعصباً ؛ كما أن شعوراً كهذا ينمو ليصبح ما أسماه يونغ « البناء الفوقي للوحشية » .

تعود عملية الارتفاع بالعاطفة إلى مرتبة القيمة إلى زمنٍ سحيق ، وربما منذ اللحظة التي انفصلت فيها المسيحية عن اليهودية . « أحبِّ الله وافعَلْ ما تشاء » ، هكذا قال القديس أوغسطين . هذه العبارة المشهورة موحية وكاشفة : لقد انتقل معيار الحقيقة من الخارج إلى الداخل - إلى داخل العالم الاعتباطي للذاتية [٢] . إن عاطفة الحب المبهمة ( « أحبِّ الله » - الأمر المسيحي ) تحلّ محل وضوح القانون ( الأمر اليهودي ) وتتحوّل إلى المعيار غير الواثق للفضيلة .

إن تاريخ المجتمع المسيحي هو مدرسة للشعور عمرها ألف سنة : لقد علّمنا صَلْب المسيح أن نتملق المعاناة ؛ شِعرٌ لطيف قام باكتشاف الحب الدنيوي ؛ جعلتنا العائلة البورجوازية نشعر بالحنين إلى البيت ؛ نجحت الديماغوجية السياسية في « عَطْفَنة » إرادة القوة . لقد قام هذا التاريخ الطويل بتشكيل ثراء ، وقوة ، وجَمال مشاعرنا .

غير أنه ، ومنذ عصر النهضة المندفعة إلى الأمام ، توازنت النزعة العاطفية الغربية عبر حيويات السبب والشَك المتممة لبعضها بعضاً ، وللهزل ولتفهم علاقات الشؤون الإنسانية . وقتذاك فقط باتَ الغربُ على ما هو عليه .

في محاضرته الاحتفالية في هارفارد ، حدد سولجنستين بداية أزمات الغرب عند عصر النهضة ؛ أن روسيا على وجه الخصوص ، بين جُملة الحضارات ، قد عبّرت عن نفسها وظهرت بواسطة هذا الحُكم ؛ إذ هي التمثيل الدقيق للغياب التاريخي لعصر النهضة والحيوية التي كانت قد أدّت إلى تمييزها عن الغرب . لهذا السبب يعرف المزاج الروسي اختلافاً في التوازن بين العقلانية والعاطفية ؛ ففي هذا التوازن المختلف ( أو اللاتوازن ) يكمن اللغز المشهور للروح الروسي : عمق تفكيره ووحشيته أيضاً .

عندما سقطت هذه اللاعقلانية الثقيلة على بلدي ، شعرتُ بالحاجة الغريزية

لأخذ أنفاس عميقة من الغرب الحديث . بدا لي أن لا مكان يستحق التركيز عليه أكثر من عيد الذكاء ، والفكاهة ، والخيال الذي أنتجَ **جاك القَدَري** .

( يمكن أن تعترض : ألم تكن التنويعات الاستبدادية عقلانية ، في النهاية ، وهي التي سقطت على براغ ، أكثر من كونها اللاعقلانية ؟. بالطبع لا. إن عقلانية ديكارت وديدرو ، وذاك **الكوجيتو** [٣] المُشخَّص الذي يشكك ويتساءل ، ليس لهما إلاّ القليل القليل مع تلك المسماة العقلانية الاستبدادية ، والتي لا تعدو أن تكون نظاماً لقياسات منطقية مجرّدة خُلقَت لتستر اللاعقلانية العارية التي هي إرادة القوة . ) .

( ٤ )

إذا كان عَليّ أن أعرّف نفسي ، فلسوف أقول بأنني من أتباع مذهب اللذة [٤] وقد وقعتُ في شَرك عالَم تسيَّسَ حتى التطرف . هذا هو الوضع الذي تم توصيفه عبر قصص **غراميات مرحة** ، الكتاب الذي أفضّله على ما كتبت لأنه يعكس أكثر المراحل سعادة في حياتي . وإنه لتزامن غريب : أن القصة الأخيرة في الكتاب ، والتي ارتبطت حالة ابداعه بالستينات ، قُمت بتكملة كتابتها قبل ثلاثة أيام من وصول الروس .

عندما ظهرت الطبعة الفرنسية عام ١٩٧٠ ، عملت المقالات النقدية على بعث تقاليد حركة التنوير الفلسفية . ومندهشاً بهذه المقارنة أعدتُ القولَ ، بكثير من التلهف الطفولي ، بأنني أحب القرن الثامن عشر . وحقيقة الأمر أن ما أحبه ليس القرن الثامن عشر وإنما هو ديدرو . لا بل روايات ديدرو على نحو أدّق . وحتى أكون مخصِصاً أقول : إنني أحب **جاك القَدَري** .

هذه النظرة إلى عمل ديدرو هي بالتأكيد نظرة شخصية إلى حد بعيد . لكنها ربما تكون ليست جائرة : فأنت بإمكانك أن تتجاهل ديدرو ككاتب مسرح ؛ وبإمكانك عند الضرورة أن تفهم تاريخ الفلسفة دون قراءة مقالات الموسوعات العظيمة؛ لكنني أصرّ على أن تاريخ الرواية سيبقى باهتاً بغر وضوح ومنقوصاً دون **جاك القَدَري** . لقد عانت **جاك القَدَري** من كونها قد أُمتحنَت على وجه الحصر كجزء من **الأعمال الكاملة** لديدرو بدلاً من فحصها في السياق العالمي للرواية : صحيح أن العَظَمة لا تُدرَك إلاّ حين وضعها إلى جوار **دون كيخوته** أو **توم جونز** ، **عوليس** أو

**فيردي ديرك**[٥] .

قد تعترض قائلاً بأن **جاك القَدَري** ، بالمقارنة مع أنشطة ديدرو الأخرى ، لم تتعدَ كونها تسلية ، وأن هذه قد جاءت تحت تأثير قوي من نموذجها العظيم : رواية لورنس ستيرن **تريسترام شاندي** [٦] .

**(٥)**

كثيراً ما سمعت بأن الرواية استنفدت كافة إمكانياتها . غير أني أملك الانطباع المضاد : أنه وعبر أربعمائة سنة من وجودها ، فقدت الرواية العديد من فُرصها : لقد تركت كثيراً من الفُرَص العظيمة بلا استثمار ، وكثيراً من الطرق منسيّة ، وكثيراً من الدعوات غير مسموعة .

إن **تريسترام شاندي** تمثل واحداً من الاتجاهات العظيمة الضائعة . لقد استثمر تطور الرواية كامل الأنموذج الكتابي تقريباً لصامويل ريتشاردسون [٧] ، الذي اكتشف الإمكانيات النفسية للرواية المكتوبة على شكل سلسلة رسائل . لكن هذا التطور لم يُول ، بالمقابل ، إلاّ القليل جداً من الاهتمام للمنظور المتضمَن في عمل ستيرن .

**تريسترام شاندي** هي لعبة ـ رواية . إن ستيرن يُسهب في طول الكتابة عن حَمْل وولادة بطله لا لشيء إلاّ ليهجر ، وعلى غير حياء ، قصة حياته فوراً بعد ذلك ؛ إنه يتمازح مع قُرائه ويقودهم صوب استطرادات لانهائية ؛ إنه يبدأ حكاية ولا ينهيها أبداً ؛ إنه يضع إهداء الكتاب والتقديم في وسط الكتاب ، وهكذا ، وهكذا ، وهكذا .

باختصار ، إن ستيرن لا يشيد معمار روايته حول **وحدة الفعل** ، هذا المبدأ الذي طالما ارتبط بميراث المفهوم العام والسائد للرواية . فالرواية ، تلك اللعبة العظيمة بالشخصيات الملفّقة ، إنما تشكل له حرية بلا حدود لابتكارات شكلية .

كتب أحد النقّاد الأميركيين ، وبصدد الدفاع عنها ، أن « **تريسترام شاندي** ، ومع أنها فكاهية ، إلاّ أنها عمل جاد، وأنها جادة دائماً » . ما هي الفكاهة الجادة بحق السماء ، وما هي الفكاهة التي ليست كذلك ؟ إن الاقتباس بلا معنى، لكنه يدلّ بامتياز على الرعب الذي يصيب النقد الأدبي عندما يواجَه بأي شيء بلا حالة جادة .

دعوني أضع هذا على نحو حازم : ليس من رواية تستحق اسمها يمكن لها أن

تأخذ العالم على محمل الجد . وزيادة على ذلك ، ما معنى أخذ العالم على محمل الجد ؟ إنه بالقطع يعني هذا : أن نصدّق ما يريدنا العالم أن نصدقه . لقد قامت الرواية، بداية من **دون كيخوته** حتى **عوليس** ، بمحاججة ما يريدنا العالم أن نأخذه ، وبشدة .

ولكن ، بإمكانك القول أن بمقدور الرواية المحاججة بصدد ما يريد العالم منّا أن نأخذه وتحتفظ ، في الآن نفسه ، بالإيمان بحقيقتها الخاصة ؛ إنها ليست بحاجة إلى أخذ العالم بجدية لكي تكون جادة هي ذاتها .

ولكن ما هو « أن تكون جاداً » . « أن تكون جاداً » هو أن تؤمن بما تريد من الآخرين أن يؤمنوا به .

بالقطع لا شيء من هذا له علاقة بـ**تريسترام شاندي** ؛ وللاستشهاد بالناقد الأميركي مرة أخرى ، إنها غير ـ جادة كلمة « دائماً » ؛ إذ أنها تطالبنا بأن نعتقد بلا شيء : لا بحقيقة شخصياتها ، ولا بالحقائق التي يحملها مؤلفها ، ولا في حقيقة الرواية باعتبارها جنساً أدبياً : كل **شيء** يطاله السؤال ؛ **كل شيء** قابل للشك ؛ **كل شيء** هو موضوع للعبة ؛ **كل شيء** هو تسلية ( بلا خجل أن تكون مسلياً ) ـ مع كافة النتائج التي تتضمنها من أجل شكل الرواية .

لقد اكتشف ستيرن الإمكانيات الهائلة **للمزاح** في الرواية كما أنه شرعَ جذراً جديداً لنموها وتطورها . لكن أحداً لم يسمع دعوته للقيام بالرحلة . لا أحد تبعه . لا أحد .. غير ديدرو .

كان الوحيد الحي على هذا النداء للجديد . ولهذا ، فإنه من السخافة أن ننتقص من أصالته لهذا السبب . ليس من أحد يحاجج في أصالة روسّو أو لاكلوس أو جوته ، لأنهم ، وجُملة عملية تطور الرواية ، يدينون لاكتشافات ريتشاردسون العجوز والبسيط . وإذا كان الشبه بين ستيرن وديدرو صادماً إلى هذا الحد، فإن ذلك عائد إلى أن مشروعهما المغامر المشترك ظَلَ معزولاً عَزْلاً كاملاً في تاريخ الرواية .

## (٦)

علاوة على أهمية التشابهات بين **تريسترام شاندي** و **جاك القَدَري** ، فإن

الافتراقات بينهما لا تقلّ أهمية أيضاً .

ثمة ، قبل كل شيء ، **فَرْقٌ في الحساسية** : ستيرن هاديء ؛ فمنهجه هو التباطؤ ؛ وأداته هي الميكروسكوب ( الذي بواسطته يكون قادراً ، مثلما فعل جيمس جويس فيما بعد ، على إيقاف الزمان وفَصل لحظة من لحظات الحياة ) .

وديدرو سريع ؛ فمنهجه هو التسارع ؛ وأداته هي التلسكوب ( لا يمكنني التفكير ببداية رواية أكثر إدهاشاً من الصفحات الافتتاحية **لجاك القَدَري** : تغيير عازف الكمان للقدرة الصوتية للآلة الموسيقية ؛ الإحساس بالايقاع ؛ السرعة الفائقة للجُمَل الأولى ) .

ثمة أيضاً **فَرْقٌ في البناء** : **فتريسترام شاندي** هي الحوار الداخلي ( المونولوج ) للراوي الواحد ، الذي هو تريسترام نفسه . يتتبع ستيرن بدقة كافة أطوار تريسترام الفكرية النزقة والغريبة .

بينما يستخدم ديدرو خمسة رواة ، يقاطعون بعضهم بعضاً ، كي يحكي القصص التي تكوّن الرواية : المؤلف نفسه ( يتحدث إلى القاريء ) ؛ والسيد ( يتحدث إلى جاك ) ؛وجاك ( يتحدّث إلى سيده ) ؛ وصاحب الحانة ( يتحدّث إلى مستمعيه ) ؛ والماركيز دي أركيز . كل هذه القصص المنفصلة تُحكى أساساً عبر الحوار الخارجي ( الديالوج ) ، وبفعالية غير متساوية . لكن الرواة يروون هذه الحوارات بينما يشتركون فيها هُم أنفسهم ( يكون الحوار ، هكذا ، مؤطَراً في داخل حوار آخر ) ، وبذا تكون الرواية ، عبر جملة هذه الحوارات ، تُشابهُ محادثة ضخمة بأصوات مرتفعة .

ثمة أيضاً **فَرْقٌ في الروحية** : إن كاهن كتاب ستيرن هو التسوية بين الأرواح الفاسقة والأخرى العاطفية ، إبتهالٌ حنينيّ للمباهج الموجودة في حجرة الانتظار للحشمة الفيكتورية .

بينما تشكّل رواية ديدرو انفجاراً للتحرر الوقح بلا رقابة على الذات ، شَبَقٌ لا يتقيد بموانع عاطفية .

وثمة ، أخيراً ، **فَرْقٌ في درجة صورة الواقع الوهمية** : إن ستيرن يعكس السياق المرتّب زمنياً ، لكن أحداث **تريسترام شاندي** قد تجذرت متموضعة في الزمان والمكان . الشخصيات شاذة ، لكنها زُودّت بكل شيء لغاية جعلنا نعتقد بحقيقة

وجودها .

لقد خلق ديدرو نوعاً من الفضاء لم يكن مرئياً في الرواية من قبل : هو **مشهدٌ بلا ديكور** . من أين جاءت الشخصيات ؟ نحن لا نعرف . ما هي أسماؤها ؟ هذا لا يهم . ما هي أعمارها ؟ إن ديدرو لم يقُم بأي شيء لجعلنا نعتقد بأن هذه الشخصيات هي أُناس حقيقيون يوجدون في لحظة متعينة . تمثّل **جاك القَدري** ، عبر كامل التاريخ العالمي للرواية ، الرفض الأكثر جذرية لوهم الواقعية ولجمالية الرواية « النفسية » .

(٧)

تعكس التجربة الأدبية **لإستيعابية القارىء** ، وبأمانة ، الميول العميقة لزماننا وتجعلني أفكر بأن كافة ثقافات الماضي قد يجيء يوم حيث يُعاد كتابتها كُلياً ، وحيث تُنسى كُلياً أيضا خلف نُسخها الملخَصة المُعَدَلة . إن التعديلات على الروايات العظيمة من أجل تحويلها إلى فلم ومسرح ليست ، بحكم طبيعتها ، أكثر من ضرب من ضروب « استيعابية القارىء » .

هي ليست مسألة الدفاع عن العُذرية غير الممسوسة للأعمال الفنية . لقد قام شكسبير نفسه ، بعد كل شيء ، بإعادة كتابة أعمال أُبتُكِرَت من قِبَل آخرين . غير أنه لم يَقُم **بتعديلات** : لقد استخدم عملاً ما كموضوعةٍ من أجل تغييره الخاص الذي بسببه كان هو المؤلف المتفرد والمُطلَق . لقد استعار ديدرو من ستيرن كامل السلسلة المتعاقبة للأحداث التي جُرح جاك من خلالها في ركبته ، وحُمّل على كارّة ، وعُولَج من قِبَل امرأة جميلة . هو لم يقلّد ولم يعدّل ، لكنه كتب تغيراً لموضوعةٍ أنشأها ستيرن .

وفي المقابل ، فإن التحوّلات التي تراها في تغيرات **أنّا كارنينا** التي حدثت لغاية الفلم أو المسرح إنما هي تعديلات : إنها اختزالات . وكلما حاول المعَدّل أن يختبئ بتكتم وراء الرواية زادَ في خيانته لها . إن المُعدّل لا يزيل عبر هذا الاختزال سحر الرواية فقط ؛ بل يزيل معناها أيضاً .

قام تولستوي ( كي نستكمل بالمثال ) باستنطاق طبيعة الأفعال الإنسانية بطريقة كانت جديدة في الرواية على نحو جذري : لقد اكتشف الأهمية الحاسمة

للأسباب اللامعلومة عقلياً والكامنة في اتخاذ قرارٍ ما . لماذا قتلت أنّا نفسها ؟ استخدم تولستوي تقريباً حواراً داخلياً جويسياً (٨) لتجلية مدى التحريض غير العاقل الذي أثّر على بطلته . إذن ، فإن كل تعديل جرى على هذه الرواية أفضى بالضرورة ، من خلال طبيعة « استيعابية القارىء » نفسها ، إلى محاولة جعل سلوك أنّا سلوكاً واضحاً **ومنطقياً** ، لكي **يُعَقْلن** أسبابها ؛ وهكذا فإن التعديل يصير نقيضاً ، خالصاً وبسيطاً ، لأصالة الرواية .

بإمكانك تناول المسألة من الجهة الأخرى : إذا ما قام معنى الرواية بانقاذ عملية إعادة كتابتها ، فإنك لتحصل على إثبات غير مباشر على متوسط جودة الرواية . ثمة في أدب العالم روايتان لا يمكن اختزالهما على الإطلاق ، وليستا قابلتين لإعادة الكتابة أبداً : **تريسترام شاندي** و **جاك القَدَري** .كيف يمكنك تبسيط هذا اللانظام العبقري وأن تُبقي حقاً على شيء منه ؟ ما الذي سيتبقى ؟.

صحيح أن بالإمكان مَسْرَحَة قصة مدام دي لابوميراي أو تحويلها إلى فلم ، كل على حدة ( لقد تم هذا فعلاً ) ؛ غير أن النتيجة ستكون حكاية مبتذلة عارية من كل سحرها . وفي الواقع أن جمال هذه القصة ليس منفصلاً عن الطريقة التي قام ديدرو بحكايتها : **أولاً** ، امرأة من الشعب تحكي عن أحداث وقعت في عالَم اجتماعي يقع خارج تجربتها الشخصية ؛ **ثانياً** ، جميع التماثلات الميلودرامية مع الشخصيات مستحيلة ما دامت عملية الحكي تقاطَع على نحو مستمر ومتناقض بواسطة حكايات وملاحظات أخرى ـ والتي كل واحدة منها ، **ثالثاً** ، اختصرت ، وناقشت ، وعلّقت وبلا توقف ؛ ولكن ، **رابعاً** ، يقوم كل مُعلق برسم خُلاصة مختلفة ، ما دامت قصة مدام دي لابوميراي قصة **ضد ـ أخلاقية** .

لماذا عليّ أن أقول كل هذا ؟ لأنني أريد أن أصرخ عالياً مع سيّد جاك : « الموت لكل هؤلاء الذين سمحوا لأنفسهم بإعادة كتابة ما كان قد كُتِبَ ! فَليُضرَبوا وتُبتَر آذانهم ! » .

(٨)

كما أردت أن أقول بأن **جاك وسيّده** ليست تعديلاً ؛ إنها مسرحيتي الخاصة ،

إنها « التغيير على ديدرو » الخاص بي ، أو أنها بالأحرى ، ما دامت عبّرت عن الإعجاب ، « إجلالي لديدرو » .

هذا « الإجلال ـ التغيير » هو مواجهة مضاعفة : لكاتبين ، ولكنها مواجهة لقرنين كذلك . وبالطبع هي مواجهة للرواية والمسرح . كان شكل العمل الدرامي أكثر صرامة على الدوام ، وأكثر خضوعاً للمواصفات مقارنة بالرواية . لم يكن للمسرح لورنس ستيرن الخاص به . ولذلك لم أكن أكتب « إجلالاً لديدرو » وحسب ؛ لكنني كنت أكتب « إجلالاً للرواية » أيضاً بينما حاولت أن أضفي على كوميديتي حرية الشكل التي اكتشفها الروائي ديدرو ، تلك التي لم يعرفها المسرحي ديدرو على الإطلاق .

إنها معمارها : على القاعدة الهشّة لرحلة جاك وسيّده تقبع ثلاث قصص حب : قصة حب السيد ، وجاك ، وقصة حب مدام دي لا بوميراي . ففي الوقت الذي أُدرِجَت فيه القصتان الأوليتان على نحو مهلهل ( الثانية شديدة الهلهلة ) في حبكة الرواية ، تكون الثالثة ، التي تملأ كامل الفصل الثاني ، ومن وجهة النظر الفنية ، حلقة خالصة وبسيطة ، وليست مندمجة في الفعل الأساس للمسرحية . وهنا بالتحديد ، ضمن هذا الانتهاك الواضح لـ « قوانين » البناء الدرامي ، رأيت المقامرة التي عَليّ القيام بها : التخلي عن وحدة الفعل المباشرة ، وخلق التماسك لكلية العمل عبر مَعان أكثر حذقاً : عبر تقنيات تعدد الأصوات ( القصص الثلاث لم تُحكَ متتابعةً وإنما مختلطة )، وا لتغيير ( القصص الثلاث هي في الحقيقة تغييرات الواحدة للأخرى ) . ولذا ؛ فإن هذه المسرحية التي هي « تغيير على ديدرو » تشكل ، في الوقت نفسه ، « إجلالاً لفعل التغيير ذاته ، مثلما كانت روايتي **كتاب الضحك والنسيان** قد كُتبَت بعد ذلك بسبع سنين .

## ( ٩ )

كان غريباً على كاتب تشيكي في السبعينات أن يفكر بأن **جاك القَدَري** ( كُتبت في سبعينات قَرن آخر ) لم تُنشَر أبداً إبّان حياة مؤلفها ، وأنها وُزعَت سراً كنسخٍ مخطوطة على جَمْع محدود وحميم . ما كان إستثنائياً في زمان ديدرو باتَ ،

في براغ وبعد مائتي سنة ، القَدر المشترك لكل كاتب تشيكيّ مُهم ، والذي لم يكن باستطاعته ، بسبب منعه من الطباعة في المطابع ، إلاّ أن يرى كتبه مطبوعة على الآلة الكاتبة . هذه الحالة بدأت مع الغزو الروسي ، وامتدت حتى يومنا هذا ، ولسوف تطول إذا ما دققنا في الأشياء .

كتبتُ **جاك وسيده** لغاية متعتي الخاصة ، وربما ضمن الفكرة المبهمة بإمكانية أن تُقدَم ذات يوم على مسرح تشيكي تحت اسم مستعار . وكنوع من التوقيع ، نثرتُ خلال النص ( لعبة أخرى ، تغيير آخر ) تذكرات عديدة من أعمالي السابقة : لقد استحضرَ جاك وسيّده الصديقين في قصة « التفاحة الذهبية للرغبة الخالدة » ( غراميات مرحة ) ؛ ثمة إشارة ضمنية إلى **الحياة هي في مكان آخر** وأخرى إلى **حفلة وداع** . إن هذه لتذكرات حقاً : كانت المسرحية برمتها وداعاً لحياتي ككاتب ، « وداعاً في إطار من اللهو » . وعلاوة على ذلك ، عشتُ عبر هذا الوقت بلا طعم المرارة لهزيمة شخصية، إذن أن وداعي الخاص كان مُشوَشاً بواسطة وداع آخر ، أعظم ، ذاك الذي ذهب أبعد من وداعي : لقد شهدتُ ، مواجَهاً بالليل الروسي اللامنتهي ، الموت العنيف في براغ لثقافة الغرب تلك المتخيَلَة عند فجر العصر الحديث ، مؤسَسة على الفَردْ وعقلانيته ، على تعددية الآراء ، وعلى التسامح . رأيتُ في بَلدٍ غربي صغير نهاية الغرب . كان ذاك هو الوداع الكبير .

## ( ١٠ )

مصحوباً بخادم أُميّ ، خرجَ دون كيخوته ذات يوم من بيته لإنجاز معركة مع أعدائه . بعد ذلك بمائة وخمسين سنة ، حَوّلَ توبي شاندي حديقته إلى نموذج هائل بالحجم الطبيعي لساحة معركة ؛ وهناك ، ترك نفسه لذكريات شبابه المولع بالحرب ، مُعاناً بأمانةٍ من قِبَل خادمه الخاص تريم . ولقد ظلعَ في مشيته ، تماماً مثل جاك ، الذي استضاف سيّده في رحلة بعد عشر سنوات . لقد كان ثرثاراً وعنيداً مثله مثل بريفات تشفيك الذي قام ، خلال خدمته في الجيش النمساوي ـ الهنغاري بعد مائة وخمسين سنة ، بالسخرية من سيّده وإرعابه ، الملازم أوّل لوكاك (٩) . بعد هذا بثلاثين سنة ، في انتظار غودو ، وجدَ فلاديمير وخادمه نفسيهما وحيدين فوق المسرح الفارغ للعالم .

انتهت الرحلة .

قام الخادمُ والسيّد بشق طريقهما عبر كامل التاريخ الحديث للغرب . وفي براغ ، مدينةُ الوداع الكبير، سمعتُ ضحكتهما المتلاشية . تشبثتُ بتلك الضحكة بحبٍ وأحساسٍ بالكَرب ، مثلما تتشبث أنتَ بالأشياء الهشّة والفانية ، الأشياء المُدانَة .

*GRANTA* عن

*No. 6*

*الهوامش*

( ١ ) ديدرو Diderot, Denis : فيلسوف ومؤلف فرنسي ساهم في وضع ( الموسوعة الفرنسية ١٧٥٤ - ١٧٧٢ ) . تتسم أعماله بالأفكار العقلانية التي تأثر بها معظم مفكري التنوير . كتب الرواية ، والمسرحية، والمقالات النقدية والفلسفية . (Grolier Academic Encyclopedia) .

( ٢ ) الذاتية ، أو المذهب الذاتي : مذهب لاهوتي يقيم المعتقدات الدينية على أساس من الخبرة الذاتية . ( المورد ) .

( ٣ ) الكوجيتو : هو المبحث الذي بدأ به ديكارت بتاسيس مذهبه في الشكّ ، والخاص في إثبات وجود نفسه أولاً ، ثم الانتقال إلى إثبات وجود الله ( الدليل الوجودي ) ، ثم إثبات وجود العالم الخارجي. ( المترجم ) .

( ٤ ) Hedonism : في اليونانية « هيدون » تعني اللذة . نظرية في الأخلاق . تعرّف الخير بانه ما يؤدي إلى لذةٍ أو إلى خَلاصٍ من الألم ، والشر بانه ما يسبب الألم . وقد أُعتنقتْ نظريات اللذة منذ أقدم الأزمنة ، وبلغت ذروتها في أخلاق أبيقور . وهي محور المذهب النفعي عند ميل وبنتام. على أن الفكرة القائلة بأن اللذة خيرٌ مطلق تمثّل تناولاً فجاً وفظاً للمشكلات الأخلاقية . ( الموسوعة الفلسفية . إشراف م. روزنتا ل و ب . يودين . ترجمة سمير كرم . مراجعة د. صادق جلال العظم وجورج طرابيشي . دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ . ) .

( ٥ ) Ferdydurke : ؟

( ٦ ) Laerence Sterne : ( ١٧١٣ - ١٧٦٨ ) روائي ورجل دين بريطاني . كتب رواية غريبة ومدهشة أسماها « تريسترام شاندي » حيث كسر كافة القواعد المتبعة في اللغة والترقيم . ولقد

قام ، وعن قصد ، باستبعاد كل إيحاء بالحبكة ، ولهذا ، ورغم طول الرواية ، لم يستطع أحد أن يستنتج أيما شيء منها . تميزت هذه الرواية بقصدية ستيرن في لجم أي حركة حَدَثية ، حيث أنه كان يقوم بإدخال انحراف غير معقول في السياق يمنع تطور الرواية على شكل : فقرة طويلة باللاتينية تواجهها على الصفحة المقابلة ترجمتها إلى الانكليزية . وبعد ذلك يترك لنا صفحة فارغة بيضاء ، تتلوها صفحة مليئة بتعاريق رخامية ، ثم مجموعة من النجوم المستخدمة كفاصل بين الفقرات . استخدم ستيرن كل شيء لمنع تطور القصة ولإضفاء الغموض عليها . لكن ، مع ذلك ، برزت الشخصيات بجلاء . كما تخللت الرواية نكات بذيئة، ومسحات عاطفية ، وأحداث محبوكة باسلوب رابليه . ( كانما كان ستيرن يتطلع إلى الخلف نحو رابليه ، وإلى الأمام نحو جويس ) . له رواية أخرى « رحلة عاطفية » . . English Literature. John B. ) Wilson. Longmans 1964 )

( ٧ ) Samael Richardson : ( ١٦٨٩ - ١٧٦١ ) روائي إنكليزي من القرن الثامن عشر . رغم أن أعماله أُنتقدت بسبب من أخلاقية نبرتها ، إلاّ أن أبطالها يعتبرون من الشخصيات الواقعية الأولى في الرواية الانكليزية ويتصفون بالتعقيد .(G . A . E).

( ٨ ) نسبة إلى جيمس جويس . ( المترجم ) .

( ٩ ) رواية « الجندي الطيب شفيك » للروائي التشيكي ياروسلاف هاشيك . ( المترجم ) .

* قُدمت مسرحية ميلان كونديرا « جاك وسيده » ، المستلهمة من « جاك القَدَري » لديدرو ، لأوّل مرة في خريف عام ١٩٨٠ في زغرب .

# 1 ميلان كونديرا

أجرى الحوار : إيان ماك ايوان

ولد ميلان كونديرا في برنو Brno عام ١٩٢٩ ، وهو ابن لعازف بيانو مشهور . إنضم للحزب الشيوعي التشيكي عام ١٩٤٧ ، وفُصلَ عام ١٩٥٠ ، ثم أُعيدَ عام ١٩٥٦ ليتم فصله من جديد عام ١٩٥٧ . كان أستاذاً في مدرسة براغ الوطنية للفيلم حتى عام ١٩٦٩ حينما فقد مركزه بسبب عملية « التطبيع » التي حدثت إثر الغزو الروسي لتشيكوسلوفاكيا . خلال السنوات القليلة التالية جعلت السلطات حياته صعبة أكثر فأكثر . عام ١٩٧٥ ، قامت جامعة رينس Rennes بمنحه مقعد الإستاذية ، ومنذ ذلك الوقت اتخذ كونديرا من فرنسا موطناً له مع زوجته ڤيرا .

ظهرت روايته الأولى « المزحة » The Joke عام ١٩٦٧ ، ولاقت نجاحاً فورياً وشكلت حدَثاً رئيسياً في « ربيع براغ » . لقد رسمت الرواية الحياة الفاجعة التي تجلت لتلميذ يافع قام بإرسال بطاقة مداعبة لصديقته الستالينية ، قال فيها : « التفاؤل أفيون الشعوب ! الجو الصحي ينتن بالغباء ! فليعش تروتسكي ! » . وصف الشاعر الناقد الفرنسي أراغون تلك الرواية بأنها « واحدة من أعظم روايات القرن » . هذا وتنتمي مجموعة قصص كونديرا الرائعة « غراميات مَرِحة » ، أيضاً ، إلى ذات الفترة . ولقد قام بنشرها Knoph ضمن السلسلة الممتازة المحررة من قبل فيليب روث Philip Roth ، والتي نشرتها دار بنجوين Penguin باسم « كُتّاب من أوروبا الأخرى » .

حُظِرَتْ أعمال كونديرا خلال فترة « التطبيع » ومنعت من التداول في الأسواق والمكتبات العامة في عموم تشيكوسلوفاكيا ، ومنذ ذلك الوقت بات عليه أن يكتب لتتم ترجمته فيما بعد . قام بكتابة روايتين أخريتين قبل رحيله إلى فرنسا ، وهما : « حفلة الوداع » The Farewell Party ، و « الحياة هي في مكان آخر » Life is Elswhere ، التي نالت جائزة بري ميديس Prix Medicis في فرنسا على أنها أفضل رواية أجنبية للعام ١٩٧٣ .

تمت ترجمة أعمال كونديرا خلال سنوات السبعينات على نطاق واسع. كما أن روايته « كتاب الضحك والنسيان » The Book of Laughter and Forgetting ، التي كانت أولى الأعمال التي أنجزها في المنفى ، قد كشفت عن قدرات كونديرا في أفضل وجوهها . إذ عشر الخط العريض لاهتماماته الفلسفية والسياسية والجوانب الدرامية والميلودرامية للحياة الخاصة ( أنثروبولوجيا كونديرا الخاصة به ) على توليفات وتراكيب جديدة وبليغة عبر بناء فني أكثر جرأة ، أو أكثر خضوعاً للعب فيه .

تم استقبال روايته الجديدة « خِفة الوجود غير المحتملة » The Unbearable Lightness of Being استقبالاً حسناً في فرنسا في أوائل عام ١٩٨٤ . ولقد تحرّكت هذه الرواية ، كسابقاتها ، ما بين الهزل أو الوصف الكئيب لحياة شخصياته الخاصة وبين السخرية المُرّة ، والمظاهر المتناقضة ظاهرياً، وأحياناً التأملات المكروبة لمصائر تلك الشخصيات ـ ولجميع المصائر .

قام الفرنسيون بتبني كونديرا على أنه أحد كتّابهم ، كما حوصر بالصحفيين الذين يبتغون إجراء المقابلات معه ، وبكتّاب السيّر السريعة الموجزة .إن هذا قد يعزز آراءه حيال الصحافة هنا ـ فرنسا ـ ، والسأم الذي أحس به بجلاء حين يكون عليه أن يكرر وجهات نظره . وعلى أي حال ، فإن الأسوأ ما يزال ينتظره . إذ أن في هذا البلد ، وبالتحديد في الولايات المتحدة ، ثمة خطط من أجل « حَدَثٍ » نَشْريٍ أساسي ؛ وعلى كونديرا أن يبذل الكثير من الشرح فيما لو أراد أن يتجنّب سِمة الـ« كاتب المُنشَق » ، تلك السمة التي يبغضها بشدة .

تتسق الرواية الجديدة مع عمله الروائي المبكّر في انشغالها بمخاطر التصنيف أو الترتيب المنهجي للخبرة الإنسانية لتحويلها إلى دوغما ( عقيدة صارمة عمياء )، وخاصة الدوغما السياسية .

إن قدرة كونديرا على استنباط مواقف جنسية كوميدية حول تلك المخاطر هي واحدة من وجوه جاذبيته . إنه لا يستطيع ترك **الأسئلة العظيمة** دون إجابات ؛ لكن القارئ لا يمكن أن ينفر جرّاء التجريد البارد . إن تساؤلاته المتقدة تبقى متجذره وتتغذى بحيوات شخصياته التي يتعامل معها برقة تكاد أن تكون أبوية . إن مفاسد السلطة ، والسيطرة السياسية الماضية ، وإغواء المدن الفاضلة ( اليوتوبيات ) ، وطبيعة التاريخ والوجود نفسه ـ ما ورائيات كونديرا ـ كل هذا قد تم استحضاره ، عبر أرقّ اللمسات وأكثرها رشاقة ، من خلال علاقات الحب المشوهة والمحبين المتقلّبين ، ومشاعر الغيرة المستنفِدة ، والإخضاع الجنسي المُحكَم ، وتفاصيل ودقة الطباع الجنسية ، وفكاهية ( كوميدية ) الإستثارة غير المحدودة .

إن معالجته للجنس تتوقف عند الاستحواذ ، كما كان لإنجازه أن يبعث كُلاً من الحياة الخاصة والحياة السياسية في إطار هزلي واحد ، وأن يتكشف كيف أن هاتين الحياتين تتخذان شكلهما من نفس المنشأ الإنساني غير الملائم . إن الحكومة المستبدة ـ عالم المعنى غير المشكوك فيه ـ تقوم بإنتاج سخافاتها الغزيرة، وتقوم بإنتاج ملهاتها السوداء الخاصة بها . ولقد كان كونديرا كُلاً من فاضح

الزيف المرح والمتوجع من بيروقراطية لا تجرؤ على السماح لمواطنيها بقراءة مواطنهم ، كافكا .

تم تسجيل هذا الحوار في فرنسا ، في شقة بالقرب من مون بارناس Montparnasse ، حيث يعيش كونديرا مع زوجته .

افتتحنا الحوار بالحديث عن منفاه ،

## رواية اليوم تمتحن الشَرَك : تمتحن عالمنا

**□ ماك ايوان : دعنا نتحدّث عن المنفى قبل أي شيء . إن كتبكَ محظورة في تشيكوسلوفاكيا وجمهورك المباشر في فرنسا . أهي خسارة كبيرة أن تنقطع عن جمهور قرائكَ من مواطنيك ؟**

كونديرا : إذا ما خذنا المسألة من وجهة نظر عامة فهذا صحيح . إنه من القسوة أن أخسر ، فجاة ، الجمهور الذي اعتدتُ عليه حتى سنيني الأربعين . ولكن على الصعيد الشخصي فإن ذلك لا يجعلني أشعر ذلك الشعور الكبير باللافَرح . تمَ الحظر على كُتبي في زمن الغزو الروسي ، غير أنني واصلت العيش في براغ بعد ذلك . كنت محظوظاً حينذاك بحصولي على عقد مع الناشر الفرنسي غاليمار ، ولهذا عرفت بأن ما كنت أكتبه سوف يأخذ طريقه للنشر . كان هذا سبباً للتخفيف من ثقل الوضع ، وجعله أقل قسوة إلى حد بعيد . لكنني لم أكن الوحيد الذي مُنعَ وحُظِرَ عليه . لقد طال الحظر ، في الحقيقة ، جميع أبناء جيلي تقريباً ، ووجد بعض زملائي أنفسهم بلا أي ناشر على الإطلاق . ولهذا ، فإن فكرة الجمهور الفرنسي ، أو جمهور أي بلد آخر غير بلدي ، كانت فكرة مجرّدة ، شيئاً مجهولاً . فمن منظور الواقع المتناقض ظاهرياً فقد تحوّلت تلك الفكرة إلى عملية تحرير . إن جمهورك المباشر يملك أحكامه ، يملك تذوقه ؛ إنه يمارس ضرباً من الضغط عليك دون أن تكترث به . إن الجمهور يضايقك أيضاً ، خصوصاً في بلد صغير ، لأنه يتعرّف عليك فجأة . ولهذا ، فلقد أحسست ، في الروايتين اللتين كتبتهما بعد أن تم الحظر عليّ، بأنني حُر جداً . كنت حراً من أجهزة

الرقابة لأنني لم أعد كاتباً تُطبَعُ أعمالي في بلدي ، ولم يعد هناك أي ضغوط من قبل الجمهور .

□ **ماك ايوان : هل أحسست بالإجتثاث حينما تركت بلدكَ ؟**

كونديرا : ماذا تعني كلمة الإجتثاث ؟

□ **ماك ايوان : حسناً ، هل كان قرار المغادرة قراراً صعباً ، أم أنه كان حاسماً وواضحاً ؟**

كونديرا : كان بمثابة تقدّم بطيء . فإذا عدنا إلى عام ١٩٦٨ فإننا سنرى أن الناس الذين أرادوا الهجرة قد هاجروا على الفور . كنت في ذلك الوقت واحداً من الذين لم يريدوا الرحيل ، وبصفة شخصية لأنني اعتقدت بأن الكاتب ليس بمقدوره أن يعيش في أي مكان إلاّ في وطنه . بقيت في تشيكوسلوفاكيا لمدة سبع سنين بعد الغزو. في البداية كان كل ما حدث مثيراً ، حتى الحزن . بالنسبة للكاتب ، وخصوصاً الكاتب ، كانت تجربة فاتنة لأن تُعاش . لكنها تحوّلت ببطء ، ليس فقط إلى تجربة في غاية الحزن ، بل إلى تجربة مجدبة كذلك . وتدريجياً كان لا بد أن تكون كافية . حتى على الصعيد الشخصي لم يكن ممكناً المكوث مدة أطول . لقد تشبعت بها . فقدتُ وظيفتي في الجامعة . فقدتُ راتبي . لم أعد أستطيع النشر . لذا ، لم يعد هناك أبداً أي وسيلة تمكنني من تحصيل ما يغطي نفقات عيشي ... لقد وفّرت قليلاً من المال وبذلك تحملنا الوضع لفترة قصيرة من الوقت . بدأتْ زوجتي بتدريس اللغة الإنكليزية، لكنها ، ولكونها لم تملك الإذن بالتدريس ، كان عليها أن تقوم بهذا بالسر. وجاء إعلامي بإمكانية أن أهاجر ـ يمكنني تذكّر ذلك بشكل جيد ـ عام ١٩٧٣ . كنت قد حزتُ على جائزة ميديس لروايتي « الحياة هي في مكان آخر » ، وكان من بواعث دهشتي أن السلطات أعادت لي جواز سفري المصادر سابقاً ، وتركتني أذهب إلى باريس لأستلم الجائزة . تنبهنا حينذاك إلى أن النظام لم يكن ضد مغادرة الكتّاب ، لا بل كان في الحقيقة يقوم ضمنياً بتشجيعهم على ذلك . بدأتُ وقتها بالتفكير في

الهجرة. بعد هذا بوقت قصير دُعيتُ إلى التدريس في جامعة رين Rennes لمدة عامين. خلال تلك الفترة أخذت الأمور تزداد سوء في تشيكوسلوفاكيا ، وكان وجودي في فرنسا ضرباً من ضروب النقاهة . ثم صُدمتُ بحقيقة أنني لم أكن أتوق إلى العودة ولم أشعر بالحنين إلى الوطن حسبما ظننت أن أكون . أنا في غاية السعادة هنا .

□ **ماك ايوان : إذَن ، فإن المنفى ليس ضرباً من « الخِفة غير المحتملة » .**

كونديرا : الخِفَة ، نعم ، ربما ، لكنها المحتملة أكثر من كونها غير محتملة .

□ **ماك ايوان : بما أنك تعيش في الغرب ، هل وجدتَ نفسك مُجَنَداً في *الحرب الباردة* ؟ هل تَمَ إغراء البعض في أن يؤثروا فيك أو يستغلوا أعمالك لأهدافهم السياسية ؟**

كونديرا : لكي أكون صريحاً تماماً أقول بأنني لم أشعر بذلك أبداً ، لكن الذي شعرت به ، خصوصاً عندما وصلت ، أن عملي كان يُنظَر إليه وفق أسلوب سياسي وفي غاية السذاجة . كان لديّ الشعور بأن الناس يقرأونني كوثيقة سياسية ؛ كلهم ، إن كانوا ضمن اليمين أو اليسار . كنت غاضباً ، وشعرت بالأذى . لا أعتقد بأنه كان يوجد أي نيّة متعمّدة للتأثير فيّ أو التلاعب بي ، لجعلي جزء من **الحرب الباردة** . لكنني أعتقد بأن المجتمع الحديث يشجع التفكير الصحفي . إن هذا ما يهيمن ويسود. التفكير الصحفي تفكير سريع . إنه لا يسمح بالفكر الحقيقي ، كما أن تصوّره للعالم هو تصور ، بالطبيعة ، في غاية التبسيط . فإذا قَدمَت من براغ أو وراسو ، إذن فأنت وبشكل آلي ستُصنَف من قِبَل اللافكر الصحفي على أنك كاتب سياسي . إنه ليس نقداً أدبياً بل نقدٌ صحفيّ ما يقوم بتأويل عملك . وهكذا فإنني ، وبناء على هذا الوضع ، قد عانيتُ في البداية من تأويلاتهم ، وكان عليّ أن أدافع عن نفسي في مقابلهم . وأظن بأنني نجحت في ذلك . يبدو أنهم الآن قد بدأوا يفهمون ، بشكل ما .

**□ ماك ايوان : لماذا تشعر بالمهانة تحديداً نتيجة القراءة السياسية لأعمالك ؟**

كونديرا : لأنها قراءة سيئة . يجري تجاهل كل ما تعتقد بأنه مهم في كتابك الذي كتبته . إن قراءة كهذه لا ترى سوى جانب واحد : شجب النظام الشيوعي . إن هذا لا يعني بأنني أحب الأنظمة الشيوعية ؛ إنني أمقتها . غير أنني أمقتهم كمواطن: إني ككاتب لا أقول ما أقول من أجل شجب نظام ما . لقد مَقَتَ فلوبير المجتمع البورجوازي . لكنك إذا قرأت **مدام بوفاري** على أنها شجب للبورجوازية أساساً ، فإن هذا سيترتب عليه سوء فهم فظيع للكتاب .

**□ ماك ايوان : إن شخصية تيريزا ، في رواية « الخفّة غير المحتملة للوجود »، تلتقط صوراً للدبابات الروسية والجنود في شوارع براغ وقت الغزو . وسيتم نشر صورها في الخارج . فجأة بدأتْ تشعر بأنها قوية ، محققة ذاتها ، وأن لها هدفاً . هل ثمة معنى فيما أصبحتَ عليه من القوة أيضاً ، في ذلك الوقت ؟ في أن هموم موضوعك قد تبلور لك واتضح في وقت الغزو ذاك ؟**

كونديرا : هذا شأن تيريزا ، وليس شأني أنا . لم أشعر وقتها بالقوة أبداً . إنه سؤال حول الحياة الخاصة والعامة . عندما تصبح الحياة العامة في غاية الحِدة بالنسبة لتيريزا فإنها تحررها من اهتماماتها الخاصة . إنه لموقف متناقض في ظاهره : إنك تجد نفسك فجأة وقد انغمست في أحداث دراماتيكية ، وهُددتَ بالموت ، وحوصِرْتَ بالمأساة ، ومع ذلك تشعر بأنك على ما يرام . لماذا ؟ لأنك تكون قد نسيت حزنكَ الخاص .

**□ ماك ايوان : لقد وصفتَ في « كتاب الضحك والنسيان » نوعين من الضحك . ضحكة الشيطان تفصل الخلو من المعنى والخواء عن كل شيء ، بينما ضحكة الملاك ، والتي تتصف بشيء من الرنين الزائف ، تبتهج ابتهاجاً عظيماً بتشكّلها وانتظامها العقلاني وتصوّرها الجيد لكل ما هو على الأرض كما هو . إني أفترض أنك من الممكن قد فكّرت بتشيكوسلوفاكيا على أنها في صف الشيطان . التشيكيون يضحكون كالشياطين ، والروس يضحكون كالملائكة .**

كونديرا : نعم ، بكل تأكيد .

**□ ماك ايوان : إذن ، هل للإنتماء إلى بلد صغير تأثير عميق على الطريقة التي ترى من خلالها العالم ؟**

كونديرا : إن هذا في غاية الاختلاف . تأمل مثلاً النشيد الوطني . يبدأ النشيد التشيكي بسؤال بسيط : « أين وطني ؟ » . لقد فُهِمَ الوطن كسؤال . كشيء مشكوك فيه وأبدي . أو تأملْ النشيد الوطني البولندي ، الذي يبدأ بهذه الكلمات : « بولندا لم تتشكّل بعد » .والآن قارنْ هذا بالنشيد الوطني للإتحاد السوفياتي : « إن الإتحاد السرمدي لثلاث جمهوريات ، والذي تم تجميعها للأبد بواسطة روسيا العظيمة» . أو النشيد البريطاني « المُظفَر ، السعيد ، والمُمَجَد ... » . هذه هي كلمات نشيد وطني لبلد عظيم ـ المجد ، الممجد ، المظفر ، ذو الجلال ، الإعتزاز ، الخلود ـ أجل ، الخلود . لأن الأم العظيمة تفكّر في ذاتها على أنها أُم خالدة . فأنت ترى إن كنتَ إنكليزياً ، أنك لن تتساءل عن خلود أُمتك لأنك إنكليزي . إن انكليزيتك لن توضع أبداً موضع الشك . قد تتساءل عن سياسات انكلترا ، ولكن ليس عن وجودها.

**□ ماك ايوان : حسناً ، كنا عظماء في يوم ما . أما الآن فنحن أقرب إلى أمة صغيرة .**

كونديرا : ورغم هذا فأنتم لستم بهذا الصِغَر .

**□ ماك ايوان : نحن نسأل أنفسنا عمّا نكون ، وما هو موقفنا من العالم . نحن نملك تصوراً عن أنفسنا تَمَ تشكله وتحَدَد في زمن آخر .**

كونديرا : أجل ، ولكنكم لن تسألوا أنفسكم أبداً ماذا سيحدث حين لن تعود انكلترا موجودة . من الممكن أن يُطرْح هذا السؤال ، لكنه محض سؤال مجرّد . غير أنه سؤال تم طرحه مراراً في البلدان الصغيرة : ماذا سيحدث لو أن بولندا لن يعود لها وجود؟ ثمة ثلاثون مليون نسمة يعيشون في بولندا ، ولذا فهو ليس بهذا البلد

الصغير. غير أن الشعور حقيقي دون شك . إنني أتذكّر العبارة الإفتتاحية في رسالة بين ويتولد غومبرويتش [١] وتشيسلو ميلوتش [٢] . كتب غومبريتش « بعد مئات السنين في حالة أن بلدنا ظل موجوداً ... » . ليس هناك أي شخص إنكليزي ، أو أميركي ، أو ألماني ، أو فرنسي يمكن له أن يكتب عبارة كهذه .

إن هذا الشعور بهشاشة الوجود ـ هذا الإحساس بالفناء ـ قد تم ربطه بالنظرة إلى التاريخ . فالأمم الكبيرة تعتقد بأنها تصنع التاريخ . وإذا كنتَ تصنع التاريخ فأنت تأخذ نفسك مأخذاً جدياً ؛ حتى أنك ستؤله نفسك . فالناس يقولون ، على سبيل المثال ، أن التاريخ سيحاكمنا . ولكن كيف سيحاكمنا التاريخ ؟ سوف يحاكمنا التاريخ على نحو خطير . سوف يحاكمنا ...

□ **ماك ايوان : بقسوة ؟**

كونديرا : لا ، ليس بقسوة ، فأنا لا يمكنني قول هذا . إنه سيحاكمنا دون أية سلطة تخوّله ذلك . لماذا التفكير في أنه سيحاكمنا بعدل ؟ من المؤكد أن حكم التاريخ غير عادل ، وربما يكون حتى حكماً غبيّاً . إن القول بأن التاريخ سيحاكمنا ـ والذي هو قول مألوف وعادي ، فالجميع يقول بهذا ـ يعني بأنكَ وبشكل آلي تفهم التاريخ على أنه الأساس المنطقي للأشياء ـ وله الحق في إصدار الحكم ، وله الحق في إحقاق الحق . إن هذا هو الفهم الذي تجده عند الأمم الكبيرة التي ، عبر صنعها للتاريخ ، تنظر إليه دائماً على أنه حكمة وإيجابي .

لو أنك أمة صغيرة فأنت لا تصنع التاريخ . فأنت دائماً موضوع للتاريخ . التاريخ شيء عدائي ، شيء ينبغي عليك أن تدافع عن نفسك تجاهه . فأنت تشعر ، عفوياً ، بأن التاريخ غير عادل ، وغالباً ما يكون غبياً ، ولا يمكنك أخذه بجدّية . ولهذا السبب تَشَكّل مزاجنا الخاص : مزاج قادر على رؤية التاريخ على نحو متسم بالإحالة أو البشاعة . شيء خيالي .

□ **ماك ايوان : لقد كتبتَ كثيراً عمّا يحدث عندما يؤمن الناس «باليوتوبيات»، عندما يعتقدون بأنهم صنعوا الفردوس على الأرض . أنت تراهم**

**يرقصون وسط حلقة مغلقة ، وقلوبهم تفيض بشعور حاد بالطهارة . إنهم مثل الأطفال . أو هم في مسيرة عظيمة ، هاماتهم مرفوعة ، ينشدون نفس المقاطع بشكل جماعي موحد . ومع هذا ، فإن شخصياتك التي تبتعد خارج الحلقة شخصيات ساخرة شكاكة بعمق ـ وأحياناً تبدو شخصيات على نحو جَذّاب . على أي حال فإنَّ حيواتهم تبدو وكأنها عقيمة . بين هذه السخرية الشكاكة وتلك الرقصة داخل الحلقة ، الرقصة الغافلة ، فإنك لا تقدم لنا بديلاً يذكر .**

كونديرا : أنا لست كاهناً . لا أستطيع أن أقول للناس بماذا يؤمنون .

□ **ماك ايوان : لقد كنتَ أنت نفسك في الفردوس ذات مرة . لقد رقصتَ في الحلقة بعد عام ١٩٤٨ ، أليس كذلك ، عندما تسلمْت الشيوعية السلطة لأول مرة في تشيكوسلوفاكيا ؟ متى تركت الرقص ؟ أكانت هذه عملية بطيئة أخرى أم عملية حاسمة سريعة ؟**

كونديرا : كلما ابتعدت عن هذا ازداد انطباعي بأنها كانت عملية سريعة ، لكن ذلك إنما هو بالتأكيد الإنخداع البصري لشخصٍ بات الآن نائياً جداً في ابتعاده عنه : إذ لا يمكن أن تكون سريعة جداً .

□ **ماك ايوان : كنتُ مهتماً لأن أجد في القسم الأخير من روايتك الجديدة «خفة الوجود غير المحتملة » موقفاً من الفردوس في غاية الإختلاف . لقد انسحبْت بطلتك تيريزا إلى الريف مع زوجها توماس وكلبهما كارينين . لقد كتبت : « إن مقارنة آدم وكارينين تقودني إلى فكرة أن الإنسان في الفردوس لم يكن إنساناً بعد . أو فلأكن أكثر دقة ، لم يكن الإنسان قد وُضِعَ بعد في درب الإنسانية . أما الآن فنحن ، ومنذ أمدٍ طويل ، منبوذون ، نطير عبر خواء الزمن في خط مستقيم » . وبعد هذا بقليل تُظهِر تفكيرك المَليء بخطورة معاملة الحيوانات على أنها آلات بلا روح : « بالقيام بهذا فإن الإنسان يقطع الخيط الذي يربطه بالفردوس ولا يتبقى له ما يحمله أو ما يريحه في طيرانه عبر خواء الزمن » . إذن ، فإن هذا هو الفردوس الذي يستأهل الارتباط به . ما العلاقة مع ذلك الفردوس الآخر ، الفردوس الغبي**

**الغافل الذي وصفته باستهزاء شديد في مكان آخر .**

كونديرا : إن تيريزا تتوق إلى الفردوس . إنه توق ، في جوهره ، لأن لا تكون إنسانة .

**□ ماك ايوان : لكن الإنسان الذي يرقص في حلقتك ضاع في حَماسةٍ غبية - ألم يتوقف هو الآخر عن أن يكون إنساناً ؟**

كونديرا : المتعصبون لا يتوقفون عن كونهم بشراً . التعصب إنساني . الفاشية إنسانية . الشيوعية إنسانية . القتل إنساني . الشر إنساني . ولهذا تتوق تيريزا إلى بلد لا يكون الإنسان فيه إنساناً . إن فردوس اليوتوبيا السياسية قد تأسس على الإيمان بالإنسان . ولهذا فهو ينتهي بالمجازر . إن فردوس تيريزا ليس مؤسساً على الإيمان بالإنسان .

**□ ماك ايوان : عند نهاية « خفة الوجود غير المحتملة » تقوم ببذل مجهود كبير على فكرة التدني الفني والأدبي . إذَن ، وعبر هذا التدني ، هل تقصد ما هو أكثر من مجرّد ذوق فاسد ؟**

كونديرا : نعم ، لا بل أكثر من ذلك . إني أستخدم الكلمة ، والتي بُدء باستخدامها لأول مرة في ميونيخ في القرن التاسع عشر ، وفق معناها الأصلي . كانت ألمانيا وأوروبا الوسطى رومانطيقيتان في القرن التاسع عشر - أكثر رومانطيقية من أن تكونا واقعيتين . ولقد قامتا حقيقة بإنتاج ذاك التدني بكميات هائلة . إن القرن التاسع عشر هو القرن الأول بلا طِراز . جميع أنواع الطُرزُ تم محاكاتها وتقليدها ، وخاصة في مجال العمارة : طراز عصر النهضة ، الباروك ، الطراز القوطي . كل شيء دفعة واحدة . كتبَ هرمان بروخ [٣] مقالة في غاية الروعة سَمّاها « تعليقات حول التدني » حيث سأل فيها السؤال التالي : ألم يكن القرن التاسع عشر حقاً هو قرن اللارومانطيقية وإنما قرن التدني ؟ حيث كان يقصد ضرباً من الانتهازية الفنية المطلقة قادرة على الرسم على كل شيء من أجل تحريك الناس عاطفياً . كانت إنتقائية بشرطٍ أساسي : ينبغي عليها

أن تبعث السرور . كان الرومانطيقيون العظماء ، حسب بروخ ، إستثنائيين في بحر التدني . لقد رأى بروخ ڤاجنر على أنه تدنٍ ، على سبيل المثال ، وتشايكوفسكي كذلك .

□ **ماك ايوان : كنتَ قد كتبت : « إن التدني هو المثال الفني لجميع السياسيين ولكل الأحزاب والحركات السياسية . » . إن وظيفة التدني ، حسب رأيك ، هي حجب الموت . هل معنى هذا أن لا سياسة من الممكن تصورها خالية من التدني ؟**

كونديرا : من وجهة نظري ، فإنّ السياسة ـ بمفهوم الأحزاب السياسية ، والانتخابات ، والسياسة الحديثة ـ لشيء غير وارد التفكير فيه بلا التدني . هذا أمر محتوم . إن وظيفة السياسي الناجح هي بعث الفَرَح . هو مَعنيٌ بإفراح أكبر عدد من الناس بطريقة بشرية ممكنة ، ولإفراح هذا العدد الكبير عليكَ أن تعتمد على الكليشيهات التي يريدون سماعها .

□ **ماك ايوان : هل يبغي الروس أن يبعثوا الفرح ؟**

كونديرا : في الحقيقة هُم ليسوا بحاجة إلى هذا . فلديهم السلطة دون أن يكونوا مطالَبين بإفراح الناس وصولاً إلى الإحتفاظ بها . لم يحتج بريجنيف أن يُفرح أياً كان . لكن شعارات الحزب ، وديماغوجية الحزب ، وكل هذا : المقصود من كل هذا هو الإفراح . هذا هو التدني على نطاق شامل .

□ **ماك ايوان : قال أورتيغا إي . غاسيت بأن الدموع والضحك زيف فني .**

كونديرا : أجل . أنا لا أعرف هذا الاستشهاد ، غير أنه صحيح . لقد تلقيت رسالة ذات يوم قريب من قارئ سويدي قال فيها : « لكن هل تلاحظ بأنه ، في الحقيقة، ومن أجل القبول بك ، أننا قمنا بتغطية ما يزعجنا وحوّلناك إلى فنيّ متدنٍ ؟ عندما نُشرَ **كتاب الضحك والنسيان** تحدثَ مراجعو الكتب عن شخصية تامينا فقط . إن هذا جزء مثير في الكتاب . إنه ليس بأسوأ من بقية الكتاب . لكنه ، كذلك ، يملك

فكرة رئيسية عاطفية ، ذات مستوى فني مُتدَن ـ العلاقة بين امرأة وزوجها الميت الذي ما تزال تحبه . لم يقم أحد بذكر الجزء الأخير من كتابك الذي يحتوي على قيمة ضد ـ اجتماعية ، قيمة ضد ـ إنسانية . والسبب وراء عدم ذكرهم لهذا هو أن يُدنّوا من فنيتك .

**□ ماك ايوان : دعنا نمر على أمور أخرى . هل تعتقد بأن مفتاح جميع العلاقات الإنسانية يمكن العثور عليه في العلاقات الجنسية ؟ هل ما يحدث بين رجل وامرأة ما هو إلاّ مرآة لكل العلاقات الإنسانية ؟**

كونديرا : لست أدري . إنه لمن المؤكد بأنه وضع كاشف وموحٍ ، لكنني لا أرغب أن أقول بأن كل شيء يقف هناك .

**□ ماك ايوان : تبدو نقطة بدايتك ، دائماً ، هي الزواج ، علاقة ما ... يبدو أن ثمة هاجس مسيطر يرافق الفعل الجنسي المتواصل .**

كونديرا : نعم ، لكن هذا إما أن يوحي بجوهر وضعيةٍ ما ، أو لا يكون له مكان في الرواية . عندما تمارس شخصياتي الجنس فإنها تقبض ، فجأة ، على حقيقة حيواتها أو علاقاتها . فمثلاً ، في **حفلة وداع** : إن جاكوب وأولغا يتمتعان على الدوام بالأمان خلال علاقتهما . وحالما أن ناما مع بعضهما حتى استحالت علاقتهما إلى شيء لا يُطاق . باتت العلاقة لا تُطاق لأن هذا الشعور بالشفقة تَجَسدَ فجأة أثناء الفعل الجنسي وتحوّلت إلى شيء في غاية الفظاعة : إن الشفقة أساس مستحيل للحب . وفي **المزحة** ، عندما يطارح لودفيك هيلينا الغرام ، فإننا نرى فجأة أن جنسيته قد تأسست على الانتقام . إن كامل الكتاب قد انبنى على فعل الجماع الوحيد هذا . وعندما تمارس سابينا الحب مع فرانز ، في **خفة الوجود غير المحتملة** ، فإنها تصبح مدركة على حين فجأة بأنه يشبه جَرواً يتغذى من ثدييها ويمص . إنها تراه كحيوان ـ حيوان صغير باتَ معتمداً عليها ـ وقد أدّى مظهره هذا إلى جعلها تقرف فجأة . وفي لمحة خاطفة ، تدرك حقيقة علاقتهما .

□ **ماك ايوان : إن هوية شخصياتك تتكشّف من خلال نشاطهم الجنسي...**

كونديرا : خُذ شخصية تيريزا في **خفة الوجود غير المحتملة** . إن مشكلتها هي هويتها ، علاقة الجسد والروح : إن روحها لا تشعر بالراحة في جسدها . لقد تم التعبير عن هذا بوضوح كبير في المشهد عندما كانت تمارس الحب مع المهندس . تشعر فجأة بأن روحها قد نأت تماماً أثناء الفعل ، وأنها تراقب جسدها وهو يمارس الحب . لقد استثيرتْ بهذا الإنفصال . ها أنت ترى مشكلتها . والموضوع الذي تأسستْ عليه شخصيتها سرعان ما ينبثق فجأة أثناء فعل الحب . وبهذا المعنى فإن تلك المشاهد الجنسية تقوم بإضاءة الشخصيات والمواقف .

□ **ماك ايوان : أنت تكتب جيداً عن الرغبة في التحوّل إلى ضحية . فالتحوّل إلى ضحية ، حسب رأيك ، ليس ببساطة أمر يحدث لأحد ما ، إنه أيضاً أمر يحلم به أحد ما ، ألا وهو الضحية .**

كونديرا : مثلاً ؟

□ **ماك ايوان : ثمة العديد من شخصياتك قد استغرقتهم الغيرة الجنسية . إنهم يقيمون في غيرتهم . يبدو وكأنهم يحبونها ، أو يحتاجون إليها . إنهم ضحايا ، بالطبع ، لكنهم يحرثون جحيمهم الخاص .**

كونديرا : إن هذه لفكرة مثيرة للاهتمام ، لكنني ، وللصدق ، فإنني لم أفكّر بها على هذا النحو على الإطلاق . ليس لديّ ما أضيفه ، أنتَ على حق .

□ **ماك ايوان : أنتَ تكتب الكثير عن هاجس الإخضاع الجنسي . هل تعتقد بوجود أي رابطة بين هذا وبين الإخضاع السياسي ، إخضاع بلد من قِبل بلد آخر ؟**

كونديرا : لست أدري .

□ **ماك ايوان : على سبيل المثال ، أحياناً يكون مصير شخصياتك ملحقاً إلحاقاً**

**شديداً بمصير بلدهم . إن تامينا في *كتاب الضحك والنسيان* تتماثل بقوة مع تشيكوسلوفاكيا . إنها في المنفى . إنها مقطوعة عن ماضيها الخاص . هل بإمكان المرء التحدّث عن البلدان كضحايا ؟ إن بعضاً من شخصياتك الخاضعة لأكثر حالات التضحية تقوم باندماجات قوية مع الظالمين. إن روزينا في *حفلة وداع* ، على سبيل المثال ، شخصية محزنة في وجه من الوجوه ، غير أنها تنحاز إلى الرجال العجائز المجانين الذين يحومون قاتلين كلاب الناس ، كما أنها تقف إلى جانب النسوة السمينات عند حوض السباحة اللواتي يجدن متعة بالغة في عُريهن وبشاعتهن . ثمة تواطؤ بين المضطهِدين والمضطَهدين ، ثمة مودّة تكاد أن تكون جنسية .**

□ كونديرا : هذا صحيح . أنت محق تماماً ؛ أنا لم أكن واعياً لهذا كامل الوعي . لكنه صحيح .

**□ ماك ايوان : إنه لمن الأفضل لي أن أقول أشياء ليست صحيحة : بإمكانك رفضها ببلاغة ... إن الروايات والأفلام حيث يمكن فيها للخاص والسياسي أن يتم تصميمهما داخل وضعية واحدة هي روايات وأفلام باهرة دائماً .**

كونديرا : إن الأشياء ذاتها التي تحدث على صعيد السياسات العُليا تحدث ، كذلك ، في الحياة الخاصة . كتب جورج أورويل عن عالم تقوم فيه السلطة السياسية بإعادة كتابة التاريخ : تقرر ما هي الحقيقة ، ما الذي ينبغي تذكره ، ما الذي ينبغي نسيانه . ومع أنني روائي إلاّ أن لي اهتمامات مختلفة . إنني أكثر اهتماماً في حقيقة أن كُلاً منّا ، بوعي أو بغير وعي ، يعيد كتابة تاريخنا الخاص. إننا ، وباستمرار ، نُعيد كتابة سيرنا الذاتية ، وباستمرار نستحضر مفاهيمنا الخاصة ـ المفاهيم التي نريد ـ لنستجلي بها الأحداث . نحن ننتقي ونُشكّل كما نريد ـ نلتقط الأشياء التي تعيد طمأنتنا وتُشبع غرورنا ، بينما نشطب أي شيء يمكن له أن ينتقص من قدرنا . إذن ، فإن إعادة كتابة التاريخ ـ إعادة كتابة التاريخ حتى بمفهوم أورويل ـ ليس بالنشاط اللاإنساني . على العكس من ذلك ، إنه إنساني جداً . يرى الناس دائماً أن السياسي والشخصي عالمان مختلفان ، وكأنما لكل منهما منطقه الخاص ، لكل منهما قوانينه

الخاصة . غير أن جُملة حالات الرعب الفظيعة التي تجري على مسرح السياسات الكبير، تشابه ، على نحو غريب وإنما بإلحاح ، حالات الرعب الصغيرة لحياتنا الخصوصية .

□ **ماك ايوان : قلتَ ذات مرة بأنك اعتقدت بأن مهمة الرواية هي الكشف عن « الفضائح الأنثروبولوجية » . ماذا كنت تعني بذلك ؟**

كونديرا : كنتُ أتحدّث عن الوضع في الدول ذات السلطة المطلقة . قلت بأن كل ما كان يجري هنا ، بالنسبة للكاتب ، ليس فضيحة سياسية ، وإنما فضيحة أنثروبولوجية . هكذا هو الأمر ؛ أنا لم أنظر للوضع عل أساس ما يمكن للنظام السياسي أن يعمله ، ولكن على أساس هذا السؤال : ما الذي يلقى قبولاً من الإنسان لعمله جرّاء تأهله له ؟

□ **ماك ايوان : ولكن لماذا فضيحة ؟**

كونديرا : الفضيحة هي ما يصدمنا . كل واحد يتكلّم عن الطُرق الصادمة لهذه البيروقراطية ، لهذا النظام الشيوعي الذي ولّدَ الـ « غولاغ »(٤) ، والمحاكمات السياسية ، والتطهيرات الحزبية الستالينية . إنهم يصفون كل هذا على أنها فضيحة سياسية . لكن الناس ينسون الحقيقة الواضحة القائلة بأن ليس بمقدور النظام السياسي أن يفعل أكثر مما يقدر أن يفعله الإنسان : إذا لم يكن الإنسان قابلاً لأن يقتل ، فليس بمقدور أي نظام سياسي أن يُنشيء حَرْباً . يوجَد النظام ضمن حدود ما يمكن للإنسان أن يفعله . لا أحد يستطيع ، على سبيل المثال ، أن يبصق مسافة أربعة أمتار في الهواء، حتى وإن طالب النظام بذلك . فأنتَ لا تستطيع أن تبصق لمسافة أكثر من نصف متر . أو أن تبول لتلك المسافة : حتى وإن أمَر ستالين بذلك ، إذ ليس بمقدورك أن تقوم بهذا . لكنك تستطيع أن تقتل . لذا فإن السؤال الأنثروبولوجي ـ السؤال عَمّا بإمكان الإنسان أن يفعله ـ قابع هناك دائماً خلف السؤال السياسي .

**□ ماك ايوان : لديّ انطباع بأنك تؤمن بأن الرواية قادرة على منحنا فهماً خاصاً جداً للعالم ، قادرة على توفير تبصرات ليس باستطاعة أي تحقيق أو استعلام آخر أن يعادلها .**

كونديرا : نعم ، إنني أؤمن بأن الرواية قادرة على الإفصاح عن شيء لا يمكن الإفصاح عنه عبر أي طريقة أخرى غيرها . لكن من الصعوبة بمكان تحديد ما هو هذا الشيء المُعَين . بإمكانك أن تضعه على نحو سلبي . بإمكانك أن تقول ، مثلاً ، بأن غَرَض الرواية ليس وصف المجتمع ، لأن ثمة طُرق أفضل بالتأكيد للقيام بذلك . كما أنها لم توجد إطلاقاً لوصف التاريخ ، لأن هذا الغرض يمكن تحقيقه بالتأريخ . الروائيون لا يوجَدون هنا لكي يشجبوا الستالينية لأن باستطاعة سولجنستين (٥) أن يقوم بذلك في تصريحاته وبياناته . غير أن الرواية هي الوسيلة الوحيدة لأن تصف ، ولأن تُري ، ولأن تحلل ، ولأن تُجرّد الوجود الإنساني في كل مظاهره . أنا لا أرى أي فعالية فكرية يمكنها القيام بما يمكن للرواية أن تنجزه . حتى ولا الفلسفة الوجودية . وذلك لأن للرواية شكوكية راسخة حول كل أنظمة التفكير هذه . فالروايات تبدأ ، على نحو طبيعي ، بافتراض أنه من الاستحالة الجوهرية تكييف الحياة البشرية مع أي نمط من أنماط الأنظمة . ولذلك لم يكن من اليسير عليّ الإجابة على الأسئلة التي سألتني إيّاها قبل لحظات . أسئلة الفردوس ، أو السلطة ، أو علاقة السلطة بالوجود أو بالإثارة الجنسية . إنني أختبر هذه الأسئلة فقط حين تكون مُعبَّراً عنها في العلاقات بين شخصيات تخيلية مختلفة ، وهذا يعني أنك ، في الرواية ، على إدراك دائم بوجود عدة إجابات محتملة على كل سؤال . الرواية لا تجيب على الأسئلة : إنها تقدّم إحتمالات .

**□ ماك ايوان : ثمة ملمح مميز في أدبك الروائي يتمثّل في حضور الكاتب على هيئة « كورس » ، يقوم بالتساؤل والتعليق على تصرفات وحوافز شخصياته . يبدو هذا الصوت واضحاً في *المزحة* ، كما أن حضوره كان قوياً للغاية في آخر روايتين . ألم تعد تكنيكات الرواية التقليدية كافية ، بكاتبها غير المرئيّ ، لأداء أغراضك ؟**

كونديرا : حسناً ، ثمة ثلاثة أمور تُقال بهذا الخصوص . أولاً ، لقد استخدمت هذا التكنيك في كتاب لي كتبته في بداياتي. وستجد هذا الراوي في **الحياة هي في مكان آخر** . كما ستجده أيضاً في قصصي القصيرة . غير أنه من الصحيح أنني استخدمت هذا الصوت مؤخراً أكثر فأكثر . ثانياً ، لقد سألت إن كان هذا النوع من القَص قد حَلّ محل الرواية التقليدية أو أبطلها ، وهي الرواية التي لم تحتج إلى أي تعليقات . غير أن الحقيقة هو أن الراوي لم يختف تماماً إلاّ في القرن التاسع عشر فقط ، لقد وجِدَ الراوي دائماً في روايات القرن الثامن عشر . إن الراوي موجود عند رابليه ، وسرفانتس ، وستيرن (٦) . أما نقطتي الثالثة : لقد سبق وأن قلت مرة بأن قيمة الرواية بالنسبة لي هي في الطريقة التي يمكن بها اختبار جوهر الموقف . فهي ليست مجرّد استحضار للمواقف ـ الغيرة ، مثلاً ، أو الرِقة ، أو الميل إلى السلطة ـ فهي تقوم بالقبض على كل هذا ، تصل إلى حد الوقوف إلى جانبها ، تنظر إليها عن قُرب ، تتأملها وتفكّر بها ملياً ، تستجوبها ، تطرح أسئلة عليها ، وتفهمها كالغاز وأحاجٍ . وفي اللحظة التي تبدأ فيها بفهم هذا كله على أنه جُملة ألغاز ، عندها عليك أن تشرع بالتفكير بها . خُذ الغيرة على سبيل المثال . إنها مبتذلة إلى درجة أن تجعل من أي تفسير لها تفسيراً غير ضروري . لكنك إذا بدأت بالوقوف والتفكير بذلك فإن الأمر سيكون مختلفاً . إنه لأمر خارج عن نطاق الاحتمال أن ترى امرأة تحبها وهي تمارس الحب مع رجل آخر . فجأة يستحيل الإبتذال إلى إبهام صعب ومثير للمشاكل . حتى أنني أزعم بأن طموح الروائي هو استحضار المُبهَم والمُلغَز ، لأنه ، وعلى وجه الدقة ، فإن كثيراً من الأمور في الحياة اليومية قد باتت مبتذلة وخاضعة للتفاهة . أحتاج أن أسمع ، في الرواية ، الصوت الذي يفكّر ، ولكن ليس صوت فيلسوف . ما الذي يعنيه هذا ؟ لقد طرحتَ عليّ أسئلة حول رواياتي التي تضمنت قدراً كبيراً من المعرفة، على الرغم من صياغتها كأسئلة . إن هذا شديد الشبه بمنهج الروائي ، والذي هو المضي أكثر فأكثر ، مباشرة نحو صُلب المشكلة ، دون أن يقدّم ، أبداً ، جواباً .

□ **ماك ايوان : إنك تحاول جاهداً تجنّب إعطاء شخصياتك صفة « علم النفس » في الحقيقة أن عملك يبدو شديد التقابل مع الرواية النفسية . وكثيراً ما تتوقف**

**لتذكرنا بأن شخصياتك هي محض شخصيات فنية . ومع هذا ، وعلى نحو متناقض في ظاهره ، تعمل على أن تجعلهم يبدون حقيقيين جداً . أعتقد بأن سبب هذا عائد إلى كون راويتك المتطفل يتحدّث عن شخصياتك بطريقة شديدة الشبه بالطريقة التي يمكن أن يتحدث بها أناس متفهمون عن صديق حميم . إن تدخلاتك هي شكل رفيع من أشكال كاشف الأسرار الشخصية ووقائعها المثيرة . وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن هذه الشخصيات موجودة بالفعل.**

كونديرا : نعم ، هذا صحيح . أنا لا أطالب بمعرفة كل شيء عن الشخصية . لا أستطيع ذلك . تماماً مثلما لا أستطيع المطالبة بمعرفة كل شيء عن صديق ما . إنني حقيقة أكتب على مستوى الإفتراضات . وهذا ذاته ما يتم مع الأصدقاء . حتى وإن كنتَ تتكلّم عن أعز أصدقائك ـ وتقول كل ما يمكن قوله ـ فإن ملاحظتك تبقى مجرّد افتراضات .

□ **ماك ايوان : هل كان إعجابك بكافكا هو السبب الذي حدا بك إلى القول بأن الرواية تستنطق الحياة في الشرك الذي استحال العالمُ إليه ؟**

كونديرا : نعم ، إن رواية اليوم تمتحن الشَرَك الذي استحال العالمُ إليه . إن تاريخ الرواية هو مرآة تاريخ الإنسان ، لكن شيئاً ما حدث عندما وصلَ كافكا ... شيئاً لم يتم تبيّنه تماماً . عادة ما تُقدّم الحداثة في الرواية بشالوث جويس ، وبروست ، وكافكا . بينما كان يبدو لي دائماً بأن بروست وجويس هما التحقق ، وأن إتمام التطور كان بالعودة إلى فلوبير . ثمة ما هو مختلف تماماً بدأ مع كافكا وربما مع بروخ وموسيل(٧) . كان الوحش الذي يقاتل الإنسان ضده ، حتى مجيء كافكا ، هو الوحش الذي في داخله ـ ما يقرر له حياته الجوانية ، وماضيه ، وطفولته ، وعُقده . لكن عند كافكا ، ولأول مرة ، يجيء الوحشُ من الخارج : لقد تم وعي العالم على أنه الشَرَك . لقد تم الإقرار بشأن الإنسان ، عند كافكا ، من خارجه : سلطة **القلعة** ، من خلال سلطة القضاء اللامرئي للـ **المحاكمة**. إن التاريخ ، في كتبي ، هو ما يوقع الإنسان في شَرَكه . ما هي الإحتمالات في عالم تحوّل إلى شَرَك لنا ؟ ما هي الخيارات التي نملكها ؟ ما هي أشكال الحياة المتوفرة ؟ إنه لأمر لا فارق فيه الآن ، في النهاية ، إن كان

ك ( شخصية البطل في رواية المحاكمة ـ المترجم ) مُصاب بعقدة أوديب أو بولوع مَرَضي بالأب : إن هذا لن يغيّر مصيره على الأقل . لكن هذا سيغيّر مصير شخصية بروست بالكامل . كان عالم بروست أو فلوبير عالماً مفتوحاً . كان التاريخ لا مرئياً . كان شيئاً لا يمكن الإمساك به ، حتى . لكن التاريخ ، بالنسبة لنا ، صَلب ، ومحسوس. إنه الحرب . إنه نظام سياسي . إنه نهاية أوروبا . إنه مسيطر تماماً ـ جَشِع ـ وها نحن فيه : مقبوض علينا . إذن ، هو الشَرَك .

□ **ماك ايوان : لديك عبارة عن العزلة المُعتدى عليها عند شخصيات كافكا.**

كونديرا : نعم . أنت مُحاط بالجماعة ـ كان هذا كابوس كافكا ـ بحيث أن عزلتك معتَدى عليها بشكلٍ كُلّي ، مذبوحة : إنها تتوقف عن أن تكون . كل شخص بإمكانه أن يراك ؛ أنت لست وحيداً أبداً . إن كافكا ما يزال خاضعاً للتفسير بلغة الجيل الذي سبقه . هذا أشبه بالحديث عن بيتهوفن بلغة هايدن . إن كافكا ما يزال خاضعاً لأن يُرى من خلال صيغة العزلة الرومانطيقية : لقد هُددَ ذلك الرجل بالعزلة ، تلك العزلة سلبية خالصة ، إن مأساة المثقف هي في أنه فقد جذوره وسط الناس . وهكذا ، فإن كافكا هو الكاتب الذي يعاني من العزلة ، متطلعاً إلى الجماعة ، طامحاً إلى الأخوّة ، ساعياً إلى العثور على مكانه في العالم ـ على الرغم من أن هذه الصيغة بالتحديد هي ما قام كافكا بقلبها رأساً على عقب . إن عالم كافكا ، وللحق ، مختلف تماماً عن هذا .إن ماسح الأراضي في **القلعة** شخص مَلّ وضَجِرَ من العالم المحيط به . ليست الأخوّة ما يسعى إليها ؛ وإنما الوظيفة . لكنه عوضاً عن هذا تمّ إزعاجه والتضييق عليه من قِبَل الجميع . إنه مُراقَب . إنه ينام في نفس السرير مثلما يفعل مساعدوه ولا يمكنه النوم مع فريدا لأنهم هناك دائماً ، معه . إن هؤلاء الذين يجدون مكانهم في المجتمع ، عند كافكا ، إنما يقومون بذلك بالتنكر لعزلتهم وهُم ، في خاتمة المطاف ، يتنكرون لذواتهم أيضاً .

ماذا تعني الأخوّة في النهاية ؟ لقد أدار كافكا الفكرة في رأسه . تحولت إلى شيء كريه ، وبغيض ، ومهَدِد . لقد تحدى كافكا أكثر الأفكار قبولاً عن المجتمع . وهذا هو بالتحديد واجب كل الروائيين : أن يتحدوا ، وباستمرار ، الأفكار الرئيسية

التي بُنِيَ عليها وجودنا المحض .

عن GRANTA
No: 11. 1984

***الهوامش***

١ . Gombrowicz , witold : كاتب بولندي شهير . ولد عام ١٩٠٤ وتوفي عام ١٩٦٩ . كتب القصة ، والرواية ، والمسرحية ، والمقالة . حاز على « جائزة الناشرين » الدولية عام ١٩٦٧ . Grolier Academic Encyclopedia .

٢ . Milosz, Czeslaw : شاعر وروائي بولندي . ولد عام ١٩١١ . أمضى فترة الحرب العالمية الثانية في وارسو ، حيث كان أحد عناصر المقاومة النشطين . خَدَمَ كدبلوماسي بعد الحرب . هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ ، ثم نال الجنسية الأميركية عام ١٩٧٠ . حاز على جائزة نوبل عام ١٩٨٠ - G. A. E. -

٣ . Broch, Hermann : ( ١٨٨٦ - ١٩٥١ ) . روائي نمساوي ذائع الصيت . اشتهر برواياته الطويلة الفلسفية ، وهي : « السائرون في نومهم » ١٩٣٢ ، و « موت فيرجيل » ١٩٤٥ ، و « البريء » ١٩٥٠ ، و « المُغوى » ١٩٥٣ . هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٨ إثر تسلّم النازيون للسلطة ، حيث أمضى بقية حياته هناك . كان بروخ نبياً رومانطيقياً - متاخراً للكشف الرؤيوي . وصفَ ڤينا القرن التاسع عشر بانها « متروبول التدني » ، وكتب واصفاً الإنسان المعاصر بأنه « السائر في نومه » . تتميز أعمال بروخ ، بالإضافة إلى صعوبتها وطولها ، بنهوضها على أخلاقيات تكاد تكون روحية ، وذلك نتيجة إيمانه بإنسانية الكلاسيكيات الأوروبية .
. - G. A. E -

٤ . Gulag : الشرطة السرية السوڤياتية المتحكمة بمعسكرات العمل الخاصة بالمعتقلين السياسيين في الاتحاد السوڤياتي. The new Lexicon Webestr's Dictionary .

٥ . Solzhenitsyn, Aleksandr : كاتب روسي ولد عام ١٩١٨ ، مشهور بمواقفه النقدية المُشَهِرة بالاتحاد السوفياتي وسياسته الداخلية ، ولقد تجلى هذا في إحدى رواياته « الدائرة الأولى » والتي كانت مستقاة من تجربته في معسكرات العمل السوڤياتية حيث أمضى مدة عقوبته من ١٩٤٥ - ١٩٥٣ . نُفي إلى الخارج عام ١٩٧٤ حيث استقر نهائياً في الولايات المتحدة . من أشهر رواياته :

« يوم في حياة إيفان وينيسوفيتش » ١٩٦٢ ، و « جناح السرطان » ٦٨ - ١٩٦٩ .حاز على جائزة نوبل عام ١٩٧٠ . - G. A. E -

٦ . Laerence Sterne : أنظر هامش رقم ( ٦ ) ، ص ٢٤ .

٧ . Musil, Rober : كاتب نمساوي ولد عام ١٨٨٠ وتوفي عام ١٩٤٢ . اشتهر بروايته الطويلة غير المنتهية « الرجل الذي بلا مبادئ » ١٩٣٠ - ١٩٤٣ . كما أنه قام بكتابة رواية قصيرة ناجحة هي "Torless" تورليس الشاب » ١٩٠٦ ، بالإضافة إلى سلسلة من القصص القصيرة ( ١٩١١ - ١٩٢٤ ) ترجمت إلى الإنكليزية تحت عنوان « خمسة نساء » ١٩٦٦ . عالج في روايته القصيرة جملة المشاكل النفسية والجنسية عند مجموعة من اليافعين في إحدى الأكاديميات العسكرية ، وذلك بواقيعة قوية . سَلّط في عمله الأكثر طموحاً « الرجل الذي بلا مبادئ » الضوء على أمراض المجتمع الحديث خلال أزمة ما قبل الحرب العالمية الأولى .

فَرّ موسيل من النمسا عندما وصل النازيون إلى السلطة عام ١٩٣٨ ، وأمضى آخر أربع سنوات من حياته في سويسرا ممارساً للكتابة . - G. A. E. -

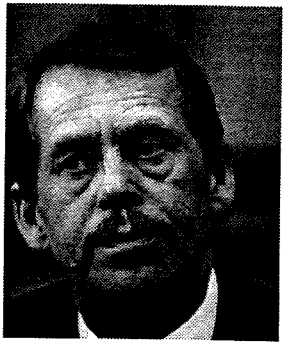

## 2 ڤاتسلاف هافل

رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، كاتب مسرحي ومناضل من أجل الحرية . ولأنه كاتب منشق حاز على شهرته التي أدّت إلى انتخابه رئيساً في ٢٩ كانون أول / ديسمبر ١٩٨٩ ، متحوّلاً بهذا إلى رمز للثورة السلمية التي جرت في بلده .

في ١٩٦٨ ، وكنتيجة لنهاية « ربيع براغ » القاسية ، حيث لعب فاسلاف هافل دوراً قيادياً ، مُنِعَت مسرحياته من العرض في تشيكوسلوفاكيا ، رغم أن ثلاثيته : « المقابلة ـ وجهة نظر خاصة ـ الاحتجاج » ( ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ) كانت

قد عُرِضت في كثير من البلدان . وبسبب من دفاعه عن حقوق الإنسان ومقاومته للإضطهاد تم إعتقاله غير مرة حيث أمضى خمس سنوات في السجن.

جرى الحوار التالي في ٣٠ حزيران / يونيو ١٩٨٩ في ظل ظروف شبه سرية في بيت هافل قرب براغ . ننشره كوثيقة استثنائية تؤرخ لوقتها - قبل أسابيع من تحرّك هذا الكاتب إلى وسط المسرح السياسي .

**من أعمال ڤاتسلاف هافل :**

**المسرحيات :** ( المذكرة ) و ( ثلاثية مسرحيات فانيك ) و ( لارجو دي سولاتو ) ، و ( التجربة ) .

**مقالات وكتابات أخرى :** ( رسائل إلى أولغا ، ١٩٧٩ - ١٩٨٢ ) وهي رسائل متبادلة بين زوجته وبينه أثناء سجنه . و ( فاسلاف هافل : أو العيش في الحقيقة ) .

---

**ملاحظة المترجم :** لم تتم الإشارة ، في المجلة ، إلى الشخصية التي حاورت فاسلاف هافل . ولقد ترجمتُ المقدّمة كما جاءت حرفياً.

---

## الشرق خطا خطوته ، فماذا عن الغرب ؟

□ **يجري هذا الحوار في مناخ غريب . أنت تحت المراقبة ، وما زلت تتحدّث دون أن تتخذ أية تدابير وقائية خاصة . هل أنت حُرٌّ في أن تنتقل كما تشاء ؟.**

ـ كنت في وضعية انعزال قاسية حتى السنوات القليلة الماضية ، لكنها حال لن تدوم بعد الآن أبداً . كانت هذه العزلة مؤثرة خلال السبعينات ، في فترة الجمود الاجتماعي العريض . بدا الناس وكأنما فقدوا أفئدتهم . بدوا وكأنما لا يؤمنون بإمكانية أن يحدث أيّ تغيّر اجتماعي . توقفوا عن إعارة أي اهتمام للحياة العامة التي كانت ، على أية حال ، تخضع للتقييد على نحو منتظَم . انسحب الناس إلى دواخلهم ، وفي نطاق صغير جداً من التواصل الفردي .

كانت مرحلة تشظّى المجتمعُ فيها وتكَسرَ . مرحلةً عُزِلَ فيها الفردُ عن سواه . لقد عُزِلتُ على نحوٍ خاص لأنني انتميت إلى فئة من الناس أُعتُبِرَت ، في أعقاب الغزو السوفياتي عام ١٩٦٨ ، أنها وضمن مَدى معيَّن معادية للدولة . كان التعامل معنا يشكّل خطراً على ممارسيه . كنت كاتباً محظوراً . لم أستطع العثور على عمل في أي مكان .

بعد ذلك ، شيئاً فشيئاً ، بدأت الأمور تتغير . كما أن الوضع اليوم مختلف جذرياً . لم يقم الحزب ورئاسة الحكومة بتغيير سياستهما . إنهما على حالهما . لكن المجتمع هو الذي تغيّر . قد يكون أن الناس تعبوا من كونهم متعَبون . إنهم يطلعون من قوقعاتهم ثانية . يخرجون من عزلتهم . ثمة ما هو قريب من الحياة العامة يتشكّل مرة أخرى .

ثمة أجيال جديدة لم توسَم برضّة الغزو السوفياتي آخذة بالنمو . ثمة تطور تدريجي ـ لكنه تطوّرٌ هام وبارز . غير أني كنت قادراً ، ضمن وضعي ، على تتبع هذا التطور من مسافة قريبة ، مُديناً لحقيقة كوني قد اعتقلت وسُجنت عدة مرات . فأنت ، عندما تُسجَن ، فإنكَ وعلى نحو ما تحمل معك قلقَك من الوضع كما هو لحظة اعتقالك . تبقى بعدها ، ولمدة قصيرة ، خارج تطور الأحداث بينما تستمر هذه الذكرى المتجمدة في ذهنك . ثم ، فجأة ، تخرج من السجن . في أوقات كهذه تكون، وبشكل رئيسي، تعيش كل التغيّرات التي ربما وقعت خلال مرحلة التدخل . كنت ، عند نهاية كل فترة سجن لي ، أُفاجَأ بتطورات جديدة . في كل مرة كان المجتمع أكثر حياة ، واللامبالاة في وضعية انحسار ، بينما إفاقةُ الناس تشتد ...

□ **هل كان عليك أن تكفّ عن الكتابة في وقت ما ؟.**

ـ لقد حُظِرَ على مسرحياتي في تشيكوسلوفاكيا لمدة عشرين سنة ، لكنني لم أتوقف عن الكتابة . أنت لا تستطيع فعلاً منع الكاتب من الكتابة . إنَّ مهمته هي متابعة الكتابة ، والتحدّث ، حتى وهو تحت أكثر الظروف قسوة . لذا ؛ فإنني واصلتُ النشر . أين ؟ خارج الحدود ، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو التوزيع الداخلي المنفلت من الرقابة . الصيغة السرّية .

في بداية السبعينات ظهرت ثقافتان متخاصمتان متواجهتان في البلاد . الواحدة منهما ثقافة رسمية وسلطوية ، والأخرى سرية مستقلة . وبعد بداية بسيطة ومتواضعة تكاثرت المنشورات المنفلتة من الرقابة ، وانتشرت بسرعة هائلة . اليوم ، ثمة العشرات من هذه المجلات والصحف ، مثلما أن هناك المئات من الكتب ، لا بل حتى أشرطة الفيديو المتداولة . لقد بدأت التشققات في حواجز المنع بالظهور خلال السنوات الماضية ، تلك التي كانت قائمة بين هاتين الثقافتين . لقد تبلورت بينهما مساحة غير مملوكة لأحد ، والتي سُميَت في بعض الأحيان « المنطقة الرمادية » . كان هناك عملية إخصاب متبادلة ـ لقد تحركت كل من الثقافتين ، الرسمية والمستقلة ، لتتقاربا مع بعضهما ، وكل واحدة منهما قد أدركت أنْ ليس ثمة احتكار للثقافة . إنه الضغط الداخلي ، والقلق المتنامي؛ ذاك هو الذي سَبَبَ حالة التقارب ، وليس الإدّعاء

بالتحرر في سياسة السلطات الثقافية .

□ **ما هو الدور السياسي والاجتماعي للمثقفين ، من وجهة نظرك ؟.**

ـ للمثقفين الحق في التفكير بالمستقبل . عليهم ألاّ يخشوا التعامل مع المستقبل، وأن يتخيّلوا كيف يمكن أن يكون . لكن واجبهم الأوّلي وأولويتهم الرئيسة ، من وجهة نظري ، هو فهم الحاضر ، وفهم أزماته وتسميتها . هكذا يولَدُ القلق الحقيقي لوجهات النظر .

إنَّ دور السياسيين هو بناء الأفضل من كل العوالم الممكنة . وعلى المثقفين أن يرصدوا ، ويُحذّروا ، وأن يضعوا الشعب في حالة تأهُب ويقظة . عليهم ، بالنظر إلى بعض الحالات ، أن يرشدوا السياسيين ، وأن يُذكّروهم كيف انفصلوا عن الواقع عندما إتّبعوا زيف الأيديولوجيا . وأنا حين أقول هذا ، إنما أتحدّث كشخص متحرر من وهم الأيديولوجيا . هذا التحرر الذي تم اختباره من قِبَل هذا الجزء من أوروبا كله . نحن نعيش في ظروف تُجبِر الناس على تعاطي حياتهم في وضعية الانعكاس لإفلاس الأيديولوجيات .

ما نريده ، هنا والآن ، هي جُملة أمور بسيطة وأوّلية . دون الاستناد إلى أي إطار أيديولوجي ، وفوق كل ما هو أيديولوجي . نحن نتوق إلى حصّة في القِيَم الأساسية للحياة ، تلك التي يجب أن تتيحها لنا المُسلَمات الأولى ولزوميات الكرامة الإنسانية الابتدائية . لذا ؛ ما الذي قُمنا باختباره حقاً ؟ محاولة إخضاع العالم للأيديولوجيا . ويا له من إخفاق ! . ربما يشكل هذا دافعاً للمثقفين لإدراك أنه لا يكفي أن تشيدَ نظرية، ثم تلوي الواقع ليتناسب معها . فالواقع الحي والغامض ، في آن ، إنما يتجاوز كل النظريات المتخيلة ، والخطط ، والمفاهيم العامة . ولكي تضعه في سياق تنظيم وترتيب ، عليك الاستعانة بالتواضع واحترام ثراء الحياة، وفروقاتها ، وكافة تنوّعاتها متعددة الألوان . من المستحيل أن تَمُطّ الواقع فوق الفراش البروكرستيزي (*) ليوتوبيا ما ابتدعها عقلٌ بارد لرجُلٍ أيديولوجي. لكن هذا ما حدث في الجزء الخاص بنا من العالم . كان إخفاقاً شاملاً . إنها عدم الثقة بالخطط والنظريات ما تنتاب المثقفين في أوروبا الشرقية من الآن فصاعداً . إنها رغبتنا ، من الآن فصاعداً ، أن نواصل تحليل

الحاضر ، والتي هي الوسيلة الأفضل من أجل رسم ا لمستقبل .

**□ هل ترى أي اختلاف للأدوار الخاصة بالمثقفين ، في كل من الشرق والغرب ؟.**

ـ يكمن الاختلاف الأوّل الكائن في معظم بلدان الكتلة الشيوعية ، والذي ما يزال ماثلاً حتى أيامنا القريبة ، في السياسة ـ يبدو أن المناظرة والمحاججة السياسيتين قد أُزيلتا تماماً . إذ أن ممارسة الدكتاتورية تطرد السياسة وتنفيها . فبتحريم الثقافة السياسية يعجز المجتمع عن بناء دفاعاته الطبيعية ، ولا يُقدّر للرأي العام أن يولَد . كما أن السياسة ، عندنا ، لا تملك أية أرضية ذات خبرة وتجربة حيث بإمكانها أن تُمارَس . غير أن أمراً غريباً قد حدث . فالسياسة المطرودة من الباب عادت لتعبر من النافذة . لقد غزت فجأة كامل الطيف للحياة الاجتماعية . اتخذت كافة الأشياء ، على نحو سرّي ، دلالات سياسية : الحفلة الموسيقية ، والقُدّاس الكنسي ، والاحتفال ... في ظل ظروف كهذه ، تكتسب كلمة الكاتب هالة استثنائية . خاصة إذا ما ناضلَ من أجل قول الحقيقة، بلا خوف من المشكلات التي ينزلها على رأسه ، وإذا ما توقف عن أن يكون المُفسّر المطواع للسلطة . لماذا يتصف الكاتب بأهمية كبيرة ؟ لأن الأداة التي يشتغل بها هي اللغة ، والتي تسمّي الأشياء بأسمائها ( الرفشُ رَفْشاً ) والتي تطرح الأسئلة . إنها الأداة الجوهرية للثقافة . ففي بلدنا يتساوى الجمهور الثقافي للكاتب مع مستوى التوقُّع السياسي ـ إنه تَساوٍ كبير . كثيرون في الغرب صُدِموا بهذا . الناس يتطلعون بلهفة شديدة إلى سَماع ما الذي سيُقال ، إلى ما سيُعبَر عنه . إنها آمالهم الخاصة ، حريتهم ، والتي تتخذ شكلها بالتالي . وكأنما المجتمع قد أصبح متنوعاً وذو بنيان عبر الإختمار الثقافي . وعلى الكُتّاب ، الذين تقع على كواهلهم الأثقال المتنامية للمسؤولية السياسية ، أن يكونوا أكثر مطالبة بذلك كله ، وعلى نحو متطابق معه .

**□ هل تَسِمُ هذه الرغبة بالتغيير في أوروبا الشرقية وفي أجزاء أخرى من العالم حلولَ حقبة جديدة ؟.**

ـ لستُ عالماً بالمستقبل ، كما أنني لست عَرّافاً . لا أعرف إلى أين يتجه المجتمع

العالمي . إنني أرصد في كل مكان علامات أزمات عميقة في كل من الاقتصاد ، والسياسة ، والبيئة . وفي رأيي ، فإنَّ هذه هي أزمات وجودية . أزمات تختص بالهوية : لقد فقد الإنسان الإحساس بالمسؤولية التي كان يتحملها سابقاً حيال شيء أعلى منه ، حيال شيء تجاوزه . هنالك جَمْعٌ كبير من الرجال والنساء أحسوا بهذا ، واستوعبوه ، ويبحثون عن مَخرَج .

ربما يشهد نهاية الألف سنة هذه تفتحُ منظورات جديدة . ثمة الآن بعض العلامات المشجعة : تقليل من سرعة سباق التسلح، محاولات للتعايش السلمي ، اتفاقيات هلسنكي . هي علامات ما تزال بسيطة . كما أن المظاهر الأكثر قساوة ووضوحاً قد أُوقِفَت . لكن أشد الجوانب خطورة هي ، بالتحديد ، تلك غير المرئيّة .

□ **هل ستختفي الهوة بين الغرب والشرق ؟.**

ـ بصدق ، أنا لا أعرف . الفروقات بين العالمين هائلة للغاية ... لقد شكلَ كُلٌّ من هذين النظامين ، ولمدة عقود ، تاريخاً مختلفاً . إنَّ النظام الكُليّ بطابعه الشيوعي ، والذي إتبَعَ ـ كما يقول الشيوعيون أنفسهم ـ « الاشتراكية الستالينية » ، قد وصل إلى مأزق . بدأ الناس يدركون هذا في الشرق . وهذا متصل بالجهود المبذولة للخروج بعناصر لها صلة بالديمقراطية ، وإعادة البناء . هذه الحقيقة في غاية الأهمية . الشرق يخطو نحو الغرب . فهل يملك العالم الغربي ، من جهته ، القابلية لاتخاذ خطوة باتجاه جاره ؟ لا أعرف . الغرب يدافع عن قِيم جيدة للإنسانية ككل . وهو لا يرغب في التخلي عنها ، وهذا هو الصواب بالتأكيد . إنني أعاني حينما يتخلى عن أحدها : نحن نُقرّ تلك القيم أيضاً . أما بالنسبة للجَيَشان الذي يمرّ به الغرب ، فإنَّ معظم تجلياته تصدمني كونها تنويعات للأزمات العميقة للحضارة التي أنتمي إليها أنا أيضاً . الغرب وحده قادر على حل هذه المشكلات بنفسه .

لكن ثمة مشكلة خطيرة مشتركة لكلا النظامين ، ألا وهي المركزية الزائدة . إنَّ القوة السياسية ، هنا ، وكذلك الرافعات الاقتصادية ، ومصادر الطاقة ، وكل شيء ، تمتلكها أيد واحدة . لذا ، ففي الحقيقة أن الدولة هي الموظف الروحي . هي المنظّم الروحي للحياة الاجتماعية . هذا أمر رهيب . وفي الغرب ، وإنْ عبر أشكال مختلفة ـ

ثمة حيازة متسعة وتكتلات عملاقة ـ، فإنك لتجد ذات النزعة باتجاه المركزيّة الكُليّة . والنتيجة ، في كِلا الجانبين ، هي « التغافُل » الواحد عن الحياة بشكل عام ، وإنْ كان ذلك يبدو أكثر مدعاة للصدمة المباشرة في حالتنا نحن . الصِلات الإنسانية ، والعلاقات بين فرد وآخر آخذة بالاضمحلال في ميدان العمل. ولكنها، كذلك ، تضمحل في الحياة الاجتماعية ، وفي المدن ، وفي البيوت . إنَّ الفرد يتحوّل إلى مجرد سِنّ دولاب في آلة هائلة . إنه يفقد كل إحساس بعمله وبوجوده . على كِلا النظامين أن يكونا قابلين لتجاوز ظاهرة تجريد الإنسانية هذه كُلٌ وفق أسلوبه. وإذا ما قاما بهذا ؛ فربما يجدا عندها طريقة للتقارُب ...

**□ هل بمقدور المثقفين ، عند نقطة التحول الحاسمة هذه ، أن يفعلوا شيئاً لتغيير مسار الأحداث ؟.**

ـ نظراً لطبيعتهم الخاصة ، فإنَّ المثقفين بلا قوة في ميادين محددة . هُم لا يقدرون على تغيير العالَم مثلما يفعل السياسيون . يتمثل حضورهم ويأخذ علامته بما يقولونه ، وهو الفعل من خلال الكلمات . لقد سبقَ لي وأن كتبت مقالة بعنوان « قوة الضعيف »، حاولت بها أن أفسّر كيف أن الكلمة الصادقة ، حتى وإنْ نطقَ بها شخص واحد ، أكثر قوة في بعض الظروف من فرقة جنود كاملة . فالكلمة تُنير ، وتوقظ ، وتُحرر . كما أن الكلمة تملك قوتها الخاصة . ينبغي على المثقفين أن يكتسبوا هذه القوة خاصتهم ، وذلك في سبيل تحويلها إلى ما هو مفيد . عليهم ألاّ يرغبوا في حيازة قوة أخرى سواها . دعهم يتركون قوة الانتقال الفوري ، أو التنظيم الاجتماعي للسياسيين .

**□ ما الهدف الذي تعتقد بأن على المثقفين أن يُسّخروا قوتهم من أجل خدمته ؟.**

ـ لحظة الدخول في الألف سنة الجديدة ، فإنَّ المُلكية الأكثر غِنى التي علينا الدفاع عنها ، والتي يجب أن تجد دعماً كبيراً لها بين الشعوب أينما كانت ـ بغض النظر عن بلدانها أو الأنظمة التي تعيش في ظِلها ؛ تتمثل في جُملة قِيم إنسانية . في مبادئ

رئيسية. والمفهوم الإنساني قبل كل شيء . ثمة أحداث قاسية وقعت في نهايات الألف سنة هذه ، كالهتلرية ، والستالينية أو تجاوزات بول بوت ؛ أظهرت تفاهة وغرور وغطرسة المجموعات أو الأفراد ، المتعصبين أو غير المتعصبين ، الأيديولوجيين ، والنظريين غير العمليين ، واليوتوبيين . غطرسة أولئك الذين يعتقدون بأنهم يعرفون كيف ينبغي على كل شيء أن يكون ، الذين يعتقدون بأنهم قادرون على تقرير نظام الأشياء . وحين لا يتناسب الواقع مع نظرياتهم ، يقومون بفرضها مما يؤدي مباشرة إلى معسكرات الإعتقال ، والمجازر ، والحروب المريعة . هذا الإفتقار إلى الإنسانية يمكن رصده أيضاً في أي مكان آخر خارج الميدان السياسي المحض . يكمن الغرور أيضاً في جذر الأزمات البيئية للكوكب : يفرض الإنسان إرادته على الطبيعة ، دون احترام لقوانينها ، وأسرارها . هنالك الكثير مما يمكنني أن أقوله حول هذا الموضوع ... دعنا لا ننسى معنى الحرية ، والكرامة ، والعدالة . ودعنا نكون أكثر تواضعاً.

*الهوامش*

( * ) بروكرستيز الذي كان لصاً إغريقياً خرافياً يمدّ أرجل ضحاياه أو يقطعها لكي يجعل طولهم منسجماً مع فراشه .

( ■ ) سُجِلَ شريط فيديو لهذا الحوار من قِبَل ميشيل بونفيوفاني ، وتم تجهيزه بواسطة المركز الدولي لـ de Créution Vidéo ، في فرنسا ، بإدارة بيير بونفيوفاني .

*The Unesco Courier* عن

*June 1990*

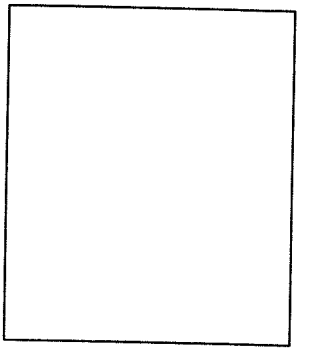

# 3 يوهن رايخ

أجرى الحوار : هاينز كلونكر

شكلت الإنتلجنسيا في الشرق قطاعاً خاصاً بين السُكّان . إنَّ مفهوم يوهن رايخ Jens Reich للإنتلجنسيا يختلف على نحوٍ واضح عن نظرة الغرب إليها؛ إذ أنها ضمَّت في جمهورية المانيا الديمقراطية المهندسين ، والكُتّاب ، ومُعالجي البيانات ، والمعلمين ، ورجال الدين .

يقدّم رايخ الفرضية القائلة بأن كُل من الحزب والبيروقراطية ، الإنتلجنسيا التقنية والإنتلجنسيا الفكرية ، المعلمين والأيديولوجيين ؛ جميعهم قاموا بدعم نظام جمهورية المانيا الديمقراطية ، ذلك لأنهم مارسوا انشطةً كانت ذات

صلات متداخلة .

يوهن رايخ أستاذ في الرياضيات الحيوية في مركز ماكس ديلبروخ-Max Del bruck في برلين ، كما كان مشاركاً في تأسيس « المنبر الجديد » ، وعضواً سابقاً في « مجلس الشعب » .

قام هاينز كلونكر مؤخراً بإجراء حديث معه عن كتابه الجديد « وداعاً للأكاذيب الحيّة » . (*)

---

* مقدّمة المجلّة

*عن دور الإنتلجنسيا*
*في جمهورية المانيا الديمقراطية ـ سابقاً :*

## « كلنا قُمنا بتسيير الأمور ـ كلنا معاً »

□ **كلونكر : يوهن رايخ ، أنت لم تطرح وجهة نظرك في المشكلات المبسوطة في كتابك من الخارج . فأنتَ نفسك منخرطٌ فيها ، كما أنك تصفُ دورك الخاص أيضاً . كيف تتوقع من الناس أن يتفاعلوا مع هذا الكتاب ؟**

رايخ : أخشى أن لا يتم استقبال الكتاب مثلما أرغب . أوّد أن أُقنع طبقة المثقفين في الشرق بطرح إستغراقهم الأنيني مع الماضي جانباً ، وأن يدركوا بأننا لم نكن الأسوأ تزويداً بما سوف يجلبه المستقبل لنا من أي انتلجنسيا أخرى .

□ **كلونكر : إنك تتحدّث عن « طبقة مثقفين » . كيف تصف هذا ؟.**

رايخ : المثقفون لا بالمعنى الغربي . ليس الكُتّاب وحدهم ، والفلاسفة ، والشعراء ، الخ . كانت الإنتلجنسيا في الشرق طوراً محدداً من أطوار المجتمع . بإمكاننا التحدّث عن « طبقة » فيما بعد . كانوا على الأقل طوراً محدداً بدقة وعلى نحو كبير بحيث إنتموا إلى مركز البُنية تماماً في مجتمعات أوروبا الشرقية . تضم الإنتجلنسيا جميع الذين تلقوا تعليماً عالياً وأكملوا دراساتهم في الجامعات أو المدارس التقنية : المهندسون ، معالجو البيانات ، بالإضافة إلى المعلمين ثم ، وأخيراً ، الكُتّاب ،

ورجال الدين ، والفلاسفة كذلك ـ ولكن ليس بالمعنى الرفيع لكلمة « مثقفين » . إنّ مهندساً مختصاً بتكنولوجيا التبريد ينتمي إلى هذه الطبقة أيضاً .

**□ كلونكر : لكنه من الواضح أن كُلاً من مثقفي الحزب والمُنشقّين ينتمون إلى هذه الطبقة ؟.**

رايخ : أجل ، رغم أن العديد من الناس سوف يختلفون حول هذا . لستُ مع الرأي الذاهب إلى أن العنصر الرئيسي في التناقض داخل المجتمع الإشتراكي كان بين المُميزين Nomenklatura من جهة ، وبقية الناس من جهة أخرى . كان هذا ما اعتقدناه : لكن التناقض البُنيوي ، الذي كوّن ماهية المجتمع ، يكمن في مكانٍ آخر . إنه يوجد ، كما هو دائماً ، بين أولئك المستغرقين في العمل المُجرد والثقافي ، وأولئك المنشغلين بالعمل الجسدي . لقد نتج عن هذا البناء الإجتماعي توترٌ ملحوظ تجاه المثقفين .

**□ كلونكر : أنتَ لم تقُل بأن الإنتلجنسيا قد أُلحِقت بالمُميزين عبر نوع من الإشتراك في الجريمة وحسب ؛ بل إنك تذهب خطوة أبعد . فأنت مع الرأي بأن الإنتلجنسيا كانت جزءاً من المُميَزين .**

رايخ : أنا لم أخترع هذه الفرضية . لقد تطورت بواسطة عالِم إجتماع هنغاري في السبعينات ، وذلك عبر الإنحراف عن الصورة التقليدية للمميزين وبقية السُكّان . كان هذا في كتاب ميلوڤان دجيلاس Milovan Djilas « الطبقة الجديدة » التي استلمت السلطة ، أو دَرْس ڤوسلنسكي Woselensky « المُميزون Nomenklatura » ، وغيرهما ... لقد بدأ كل هذا مع تروتسكي ، الذي رأى بأن البيروقراطية، البيروقراطية السياسية كطبقة ، قد تولّت السلطة . هذا ليس صحيحاً في رأيي . لقد كانت الطور الأعلى في طبقة . دعني أقدّم مثلاً للتوضيح . لقد وُجدت ، خلال عصر الإستبداد بقيادة النبلاء ، الارستقراطية الدُنيا كذلك ـ التي سُلِبَت قوتُها هي أيضاً في روسيا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . غير أن طبقة النبلاء بقيت طبقة نبلاء حتى وإنْ كانت مُعدَمَة . رهبان القرون الوسطى كانوا رهباناً حتى حينما كانوا فقراء تماماً

وملتصقين بالشعب .

لقد كانوا ، في بعض المراحل ، مختلفين عن الفلاحين أو عن سُكّان المدن . ومع ذلك عملوا ، وتشاركوا في حَمْل النظام ، أيديولوجياً وبروحية دينية . كما كان للإنتلجنسيا دوراً مماثلاً في هذا ا لنظام . لقد تم تشكيلهم وفق طريقة أدّت إلى أن يرسّخوا النظام . لا يمكن للدولة أن تؤدي وظيفتها إلاّ بسببٍ من الحزب ، والبيروقراطية، والمثقفين التقنيين ، والمثقفين النظريين ، والمعلمين ، والأيديولوجيين ، الخ ، والمُضي أخيراً بالأموز إلى مداها ليعملون معاً على صياغة النظام الداخلي .

**□ كلونكر : كي نستجلي الأمور ـ هل تقول أيضاً بأن المُنشقّين أسهموا بتأسيس النظام ؟.**

رايخ : أجل ، لقد كانوا مُرتَّدين بالطريقة ذاتها التي مارسها النبلاء الذين تحوّلوا ضد القيصر . وكما يوحي إسم المرتدّين ، فإنهم جاؤوا من الطور ذاته ، وتحدّثوا اللغة ذاتها ، وتنازعوا بالكلام ، لكنهم إنفصلوا عن هذه الطبقة . ومع ذلك ظَلوا ينتمون إليها .

إنَّ السلطة الطبقية لا تعني بالضرورة أن يكون المرء ثرياً أو مكتفياً ، بل أن يمتلك السلطة في فترات البناء . ما قُمتُ بتوصيفه الآن كان قد حدثَ في كافة البلدان عام ١٩٨٩ و ١٩٩٠ ـ وفق طِرازٍ مُوازٍ مستخفّ بكل الفروقات . لقد عملت هذه الإنتلجنسيا ذاتها على تصفية النظام الداخلي عندما ناهزت السلطة الطبقية أوجها .

كان هذا تحوّلاً تدريجياً ، ثورة وقعت على نحوٍ سلميّ . لم يحدث مثل هذا الأمر من قبل . ذلكم هو الحصيلة للقواعد ذاتها وقد فَسُخت النظام إعتماداً على نوع من تقسيم العمل . وهذا بدوره أنتجَ وضعاً عمل على شلّ نظام أمن الدولة ، ولم يعد جهاز الشرطة يعرف ماذا يفعل ، وانتظر الجيش من الجميع أن يقوموا بدورهم حيال هذا ـ وما كان من أحد في روسيا قد فكّر ، قبل عشر أو عشرين سنة ، بإمكانية أن يقبل هؤلاء القوم بانتقالهم الذاتي من السلطة وإستئصالهم .

إنّ الرضى ليتضمن الحقيقة القائلة بأنه حقاً إنجازٌ عظيم لو أنه في اللحظة التي لم تَعُد فيها الطبقة الحاكمة تقود القوى المُنتِجة ( حسب الشروط الماركسية ) وتتوقف

عن أن تكون تقدّمية ( مثلما تعلّمنا في المدارس ) ، فإنها لا تنحطّ لتستحيل إلى أجهزة محافظة ، حسب ما تعارف عليه ، وتوطّد أركانها بأسلوب دكتاتوري وسُلطوي بالإعتماد عى الشرطة ـ كما حدث قبل ١٧٨٩ عندما انتظرت الأرستقراطية الفرنسية طويلاً إلى أن كانت إزاحتها بالقوة والإعدامات ـ ، غير أن طوراً مسيطراً هنا نجحَ في تجليّه تفهُم داخلي : « لن نكون إلاّ حُرّاساً وأتباعاً لنظام . نحن لا نريد هذا . نحن نريد المشاركة في تقدّم العالم . أريد أن أحصل على كومبيوتر لائق . أريد أن أتمكّن من ممارسة الإنجليزية . أريد مشاهدة العالم . أريد الخروج من هذا السجن الذاتي المُركّب . علينا أن ندع لكل شيء حُريته . علينا أن نكفّ ، وعلينا أن نُخفف » . عددٌ كبير من أفراد الإنتلجنسيا امتلكوا هذا الإحساس . جماهير الشعب راقبت وعلى نطاق واسع ما كان يحدث وأبدت تعاطفاً . ما كان للنظام أن يتغيّر بالعُنف ؛ كان موطداً من الناحية العملية ـ كان يمتلك السلطة والأسلحة . كانت هذه ثورة حدثت بطريقة عقلية فطنة . وهذا نجاح ، بصرف النظر عن حالة الإحباط التي قد تتجمع اليوم لمعاينة أن المعاني والأهداف المرجوة لم تتحقق .

**□ كلونكر : من الجائز ، وعلى نحوٍ زائف ، أنك وبوجهة النظر هذه إنما تنتمي إلى أقلية متطرّفة . ولكن ربما تكون وضعية هذه الأقلية تتضمن أيضاً حقيقة أنك عالم طبيعي ؟.**

رايخ : لستُ براغبٍ أن أتورّط بوجهات نظر دوغمائية . إني أود رصد المجتمع بتجريبية ، تماماً مثل مراقبة عالم الحيوان لأخطبوط أو لتعايش كائنين غير متشابهين تكون التأويلات عندها قد أُثيرت بواسطة ما يحدث أمامه ، بدلاً من مفهومه المسبق عنها.

**□ كلونكر : إنك وفي سياق السيرة الذاتية جزء من تاريخ جمهورية المانيا الديمقراطية أيضاً . متى اكتسبتَ المسافة للإرتداد على دور الإنتلجنسيا ودورك . مُذ متى إمتلكت التجرّد الكافي لتستطيع من خلاله توصيف هذه الفجوة بين المشاعر الذاتية والوضعية الموضوعية ؟.**

رايخ : هذا هو ما كانت حياتي تدور حوله . كنتُ منقسماً على الدوام . كانت وضعيتي الموضوعية تنحصر في عالمٍ عملي لم يكن ليحتاج إلى صياغة بيانات سياسية كبيرة ، أو حتى للإنضمام للحزب ـ وفي النتيجة لا يحوز على وظيفة عالية المستوى جداً، ولكن بمقدوره أن يعمل .

ذاتياً كنت في غاية الإحباط وغير راضٍ عن أن أكون ضمن هذا النظام منذ البداية ـ مُذ كنتُ طالباً . كان عام ١٩٦١ ، عام بناء الجدار[١] ، هو نهاية العالم . ولقد شكّل دخولي لهذا القفص صدمةً أجهدتني وأثّرت بي لمدة عقود ـ وبالتأكيد بالنسبة لكثيرين من أبناء جيلي ، ولذلك شعرنا دائماً وبغيظٍ شديد بالتضّاد الداخلي ، وفي نفس الوقت إنغمسنا في الحياة العائلية ، والصداقات ، والتفاصيل العملية المهنية .

□ **كلونكر : من الواضح أن إحباطاً نتجَ عن هذا .**

رايخ : بالطبع . لم يكن مسموحاً لي بالذهاب إلى الغرب أو لأكون واحداً من الذين يُجاز لهم السفر . لم أستطع الحصول على المعلومات المتجمّعة من المجلس العلمي في وزارة العلوم والتكنولوجيا مثلاً . أو على البيانات السرية حول علم التنبيؤ[٢] والحالة الصحية لسكان هال Halle ، التي تحتفظ بها وزارة العلوم ومجلس علوم التكنولوجيا . لم أستطع الحصول على أي شيء يهمني .

لقد عانيتُ من إحباطٍ باطني كبير ، أكثر من أُناسٍ آخرين تكيّفوا بصورةٍ أكبر . لكن الإحباط كان شاملاً بحيث يمكنني القول ، إبتداءاً ، بأن رئيس أكاديمية العلوم كان يبوح بالصعوبات التي يواجهها في جلسةٍ خاصة ، والتحدّث بشأنها عند شربه لفنجان قهوة . لذلك كان من الواضح للغاية أنه حتى هؤلاء القوم شعروا بالإحباط جرّاء الإنحلال البيروقراطي . لقد قام العلماء القادة بالكشف عن هذا بوضوح ، وصعوداً حتى المستوى الوزاري ؛ غير أنهم آمنوا بكيفيةٍ ما أن عليهم مواصلة تأدية وظائفهم من أجل ما كان خازوقاً .

□ **كلونكر : أعتقد بأن على المرء أن يحترم بشدة حقيقة أنكَ ، رغم حيازتك لخبرةٍ كهذه في جمهورية المانيا الديمقراطية ، تعتبر نفسك واحداً من انتلجنسيا**

**وصفتها كطاقمٍ متحمس بخوف ومساعدين مطيعين لتنفيذ سياسة ما .**

رايخ : أجل ، إنّ هذا ما كُنا عليه في النهاية . لقد تلقينا الخطط ....

بإمكان المرء أن يبني فقط مع السيطرة الدائمة وأن يتعامل مع العلوم وفق أسلوب الخطط إذا ما كان متحمساً ، وأن يمضي في القيام بذلك . كان هناك على الدوام مديرٌ جديد ، وبروفسور جديد ، ورئيس جديد للدائرة ، وأستاذ كرسي جديد . الشخص الآخر إرتقى . ثمة من يتولى تسيير الأمور دائماً .

قُمنا بتسيير الأمور ـ كُلنا معاً . لقد إستمعنا إلى هذا الهراء السياسي ، ومارسنا اللعبة لفترات . كتبنا التقييمات السخيفة الواجب إنجازها . قدّمنا مشروعات لخطط ، دائماً نحن طبقة العالم ، ودائماً نحن في مقدّمة العالم ـ أُجيز استغلالنا ، مع أن كل واحدٍ كان يعرف بعدم جدوى الأمور . كانت تلك هي ذروة النقاش البيروقراطي وإنجاز الخطط ، والتي لا أستطيع إلاّ أن أصفها بالجُبن الأخلاقي .

**□ كلونكر : عندما تنظر الآن إلى الخلف ، هل ثمة تطابقات ؟ هل بالإمكان القول بأن الإنتجلنسيا المغايرة كثيراً ، في الجمهورية الفدرالية السابقة والغرب ، يمكن أن تخضع لمقتضياتٍ وأخطار شبيهة ولو بمعزل عن الخلفية الماركسية ؟ .**

رايخ : إنّ الإنتلجنسيا في الغرب ، في رأيي ، تعيش خطر تحوّلها إلى واحدة متشائمة شكاكة ، بينما مررنا نحن بمجازفة أن نكون جبناء ومستسلمين . من مستلزمات الكلبيّة (٣) المُضي قُدماً في الفعل المفروض ، وعندما ينتهي نهار العمل يمكنك عندها أن تقرأ فيلسوفاً ، أو أن تذهب إلى المسرح ، أو أن تقوم بأي شيء من هذا القبيل . يتضمن الموقف المتشائم الشكاك الحقيقي الشعور بالقلق بأن المرء هو بالفعل ـ بسبب من الضرورة ـ إنما يقوم بالعمل معاكساً بذلك لإهتماماته الشخصية . إني أرى هذا الموقف عند الكثيرين من الصحفيين الذين يعملون في صُحفٍ واسعة الإنتشار . وعندما تتحدث معهم حول هذا تُجابَه بوجهات نظر شبيهة بوجهة نظرك ، لكنهم يقولون بعدها : « نحن نعرف ماذا نفعل ، ولكن ما الخطأ في هذا ؟ وأنت بكل أفكارك عن الإستقامة لا تحرز أي تقدّمٍ أيضاً . » . هذا هو موقفهم . وهؤلاء ليسوا بالقوم الأغبياء .

المثقفون الشكاكون المتشائمون الذين يرضون بكل هذا ، ويعيشون في بحبوحة كذلك ، ولكنهم يعرفون في الوقت نفسه بأن الأمور ستصل إلى نهاية ما ـ إنَّ دوراً كهذا هو الخطر الذي يواجه الغرب . أما الخطر بالنسبة لنا فإنه الإستغراق في الأنين : ليس من أجل هذا قُمنا بالثورة . لقد تمت خيانتنا واستعمارنا ، الخ ـ وبعدها لا ترى باننا نحن أنفسنا بدأنا وأردنا كل شيء ، ثم فجأة عملنا على تجنّب النتائج . هذا هو الخطر الذي يواجهنا . تختلف الإنتلجنسيتان حتى هذا المدى ، مما يؤدي إلى إنتظار المزيد من الوقت وإلى سوء الفهم من جديد .

***Kultur - chronik*** عن
***4/1992***

***الهوامش***

( ١ ) المقصود جدار برلين الذي تمت إزالته بين الألمانيتين عام ١٩٨٩ .

( ٢ ) Ecology : فرع من علم الأحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها . ( المورد ) .

( ٣ ) Cynicism : مذهب الكلبيين . الساخرون بمرارة . الشكاكون . المتشائمون .

# الباب الثاني

## أميركا اللاتينية

- كارلوس فوينتس
  إكتشاف المكسيك : نَص
  لسنا ضحايا التاريخ الأبديين
- غابرييل غارسيا ماركيز
  أنا كاتب واقعي .. خالص وبسيط
- ليوبولدو ثيا
  الحريّة لا تتحقق في إطار التجريد
- إرنستو ساباتو
  الحس بالتساؤل

# إكتشاف المكسيك

**كارلوس فوينتس**

ولدت في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٨ ، تحت الشارة التي كنت سأختارها ، برج العقرب ، وبتاريخ شاركتُ به كُلاً من ديستويفسكي ، كروميلنيك[١] ، وفوينجوت [٢] . كانت أمي قد هرعت خارجة من دار للسينما حارة كبخار ، في تلك الأيام قبل أن يأخذ الكولونيل بوينديا إبنه لاكتشاف الجليد في مَدار استوائي [٣] . كانت تشاهد فيلماً صامتاً للمخرج كينج فيدور عن أوبرا La Bohéme بطولة جون جيلبرت وليليان جيش [٤] . ربما تكون آلام ولادتي قد استُفزَت بهذا الشذوذ : ترجمة سينمائية صامتة لأوبرا بوتشيني [٥] . ومنذ ذلك الحين دخلت الأوبرات والفن السينمائي في صراع عنيف مع كلماتي ، كأنما ثمة توقّع لصعود عقرب الرواية من الموسيقى الصامتة والخيالات المبهرة .

لقد حدث كل هذا ، دعوني أضيف ، في الحرارة القائظة لمدينة باناما ، حيث كان والدي يباشر عمله الديبلوماسي كملحق ثقافي في المفوضيّة المكسيكية . ولأنه كان مكسيكياً وطنياً عن قَناعة ، فلقد أصرّ والدي على أن مشكلة أين ستكون ولادتي ينبغي أن تُحَل تحت « شارة » أخرى : ليست شارة العقرب وإنما شارة النسر والأفعى [٦]. لم يكن لدى المفوضية المكسيكية ، على أية حال ، ورغم حيازتها على حقوق إقليمية ، قابلة إقليمية ، وما كان السفير ـ وهو أعزب من الصعب إرضاؤه ـ ليسمح لي أن أظهر فوق أرضية المفوضية من خشب الباركيه . فإذا لم يكن بالإمكان أن أولَد في مكسيك خيالية ، ذات إقليمية زائدة ، فليس لي أن أولَد حتى في تلك الأكثر خيالية المُلحَقة بالولايات المتحدة الأميركية ، منطقة القناة ـ حيث كانت أفضل

المستشفيات . لذا ، بين خيالين إقليميين ـ المفوضية المكسيكية ، ومنطقة القناة ـ ، وبين لقطة مقرّبة صامتة لجون جيلبرت ، وصلتُ في اللحظة الحرجة في مستشفى جورجاس في مدينة باناما في الحادية عشرة من تلك الليلة .

ثم برزت مشكلة معموديتي [٧] . كانما مياه المحيطين الجارين المتلامسين بأطراف الأصابع الفولاذية للقناة لم تكن كافية ، ولذا كان عليّ أن أجتاز احتفالاً مزدوجاً : جرَت معموديتي الدينية في باناما ، لأن والدتي ، وهي كاثوليكية ورِعَة قد طالبت بذلك ؛ غير أن معموديتي الوطنية جرت بعد شهور قليلة في مدينة مكسيكو، حيث أصرَ والدي ، الذي كان يعقوبياً [٨] عنيداً وكارهاً للكهنة حتى النهاية ، على أن يتم تسجيلي وفقاً للقوانين المدنية التي أرساها بونيتو خواريز [٩]. وهكذا ، ظهرتُ للعيان أصيلاً منتمياً لمدينة مكسيكو بناء على جميع الموجبات الشرعية ، وكان لهذا الشذوذ أن يرسم فيما بعد حقيقة مركزية في حياتي وفي كتابتي : أنا مكسيكي بالإرادة وبالمخيلة .

لقد اتضح ذلك كله عندما كان والدي مستشاراً في السفارة المكسيكية في واشنطن العاصمة ، وكنت أنمو في العالم النابض بالنشاط لأميركا الثلاثينات ، وتقريباً يوم تولية المواطن روزفلت رئاسة الجمهورية وحرمان المواطن كين [١٠] ذلك المنصب . عندما وصلت إلى الولايات المتحدة كان ديك تريسي قد التقى للتو بتيس تروهارت [١١] . وحال مغادرتي لها كان كلارك كنت مجتمعاً بلويس لين [١٢] . أنتَ تتكوّن من الشيء الذي تأكله . كما أنك المجلات المصورة التي تمعَنتَ فيها وأنت طفل.

دفعني والدي في البيت إلى قراءة التاريخ المكسيكي ، ودراسة جغرافيا المكسيك وفهم أسماء ، وأحلام ، وهزائم المكسيك : إنه بَلد غير موجود ، فكّرتُ وقتها ، اخترعه والدي لتغذية خيالي الطفولي : أرض الأوز [١٣] بطريق يحاذيه صبّار أخضر ، وأفق وتراب مختلفين عن الأفق والتراب في الولايات المتحدة إلى درجة أنهما يبدوان خياليين .

خيال وحشي : كان تاريخ المكسيك تاريخ هزائم ماحقة ، في حين أنني عشت في ذلك العالم المتمحور في مدرسة رسمية في واشنطن العاصمة ، حيث احتفل

بالإنتصارات ، انتصاراً إثر انتصار ، من يورك تاون [١٤] إلى نيو أورليانز [١٥] إلى تشابلتيبك [١٦] إلى أبوماتاكوس [١٧] إلى سان خوان هل [١٨] إلى بيلوود [١٩] : ألم تعرف هذه الأمة الهزيمة أبداً ؟. أحياناً كانت أسماء انتصارات الولايات المتحدة هي ذاتها أسماء هزائم المكسيك وذُلها : مونتيري فيراكروز [٢٠]. تشابلتيبك . حقاً : من قاعات مونتيزوما إلى شواطئ طرابلس . انتهى ميجويل هيدالجو [٢١] ، أبو الإستقلال المكسيكي ، برأسه المعروض فوق حَربة عند بوابات مدينة تشايهواهوا . تصوّرْ جورج ومارثا [٢٢] وقد قُطع رأساهما عند ماونت فيرنون[٢٣] .

في الجنوب ثمة أغان حزينة ، وحنين عَذب ، ورغبات مستحيلة . وفي الشمال، هنالك الثقة بالنفس ، والإيمان بالتقدّم ، والتفاؤل المطلق . حَلِمَتْ المكسيك، ذلك البلد المُتخَيل ، بماض غير أليم ؛ بينما حَلِمَت الولايات المتحدة ، البلد الحقيقي ، بمستقبل سعيد .

مارستْ عدة أشياء ضغطها عليّ خلال تلك السنوات . كانت الولايات المتحدة هل تصدّقون هذا ؟ـ بلداً نجحت فيه الأشياء ، ولم ينكسر فيه أي شيء على الإطلاق : التمديدات الصحية ، والطرق التي بَدَتْ أنها تفي بالغرض منها بإتقان ، على الأقل ضمن رؤية عين إبن ديبلوماسي مكسيكي يعيش في فندق سَكَني في الشارع السادس عشر في واشنطن ، مواجهاً حديقة ميريديان هل بارك ، حيث لم يتعرّض ، حينذاك ، أي كان للمهاجمة من الخلف بقصد السرقة ، وحيث أجرة شقة بسبع غُرَف مؤثّثة تأثيثاً فخماً هي ١١٠ دولارات شهرياً قبل التضخّم المالي . أجل ، ورغم كل المشاكل ، بدت المعيشة سهلة خلال تلك الأصياف الطويلة لـ« تيدواتر » ، عندما صرت أوّل مكسيكي والوحيد ، ربما ، الذي يُفضّلُ المثابرة على الإستسهال . كما أنني صرت المكسيكي الأصيل الكالفيني [٢٤] ، وثمة فارض مَهام ثقيلة غير مَرئي يُدعى **الواجب التطهري** ما يزال يُظَلل كل خطوة من خطواتي : لن أستحق شيئاً إلاّ إذا عملت بلا هوادة في سبيله ، بإرادة حديدية ، وبشكل يومي . الكَسلُ خطيئة ، وإذا لم أجلس أمام آلة طباعتي كل يوم في الثامنة صباحاً ، ليوم عَمَل مكوّن من سبع إلى ثماني ساعات فإنني ، بالتأكيد ، سأذهب لجهنم . ليس من قيلولات لي ، واحسرتاه ، ليس لي أن أتمطّى وأتثاءب : كيف حدث أن صرتُ أحسد أخي اللاتيني ، الذي يتخفف من

همومه وخطاياه ، بفعل تأثير الأخلاقيات البروتستنتية ، ولماذا ينبغي عليّ أنا ، حتى يومنا هذا ، أن أقرأ كامل أعمال هرمان بروخ[٢٥] وأن أخربش على دفتر ملاحظاتي الأسود على شاطئ مكسيكي مشمس بدلاً من التراخي طوال اليوم وانتظار جوزة الهند أن تسقط ؟.

كان مُقَدَراً للأمة التي رآها توكويفيل [٢٦] أن تتحكّم بنصف العالم ، وأن تتبيّن بأن الدولة القارية وحدها هي التي بمقدورها أن تكون دولة حديثة ؛ ففي الثلاثينات كان على الولايات المتحدة الأميركية أن تقرر ماذا ستفعل بقوتها الجديدة، وعَلّمنا فرانكلين روزفلت أن نؤمن بأن على الولايات المتحدة البرهنة بإمكانية العيش في مستوى مُثُلها . تعلّمت حينذاك ـ درسي السياسي الأول ـ بأن هذا التعهّد بالتزام مُثلها هو عَظَمة الولايات المتحدة الحقيقية ( المعيار طوال حياتي ) وليس الثراء المادي ، ولا غطرسة القوة الموظّفَة ضد الشعوب الأضعف ، ولا العِرقية الجاهلة التي تحرق نفسها عبر احتقارها للآخرين . لقد رأيت ، كمكسيكي شاب ، أمة ذات طاقة بلا حدود وإرادة لمجابهة القضايا الاجتماعية الكبيرة على مر الأيام دون خوف أو بحث عن أكباش فداء . كان بلداً اكتسب هويته من خلال مبادئه العُليا : ديمقراطية سياسية ، اقتصاد متين البناء وإيمان بطاقاته الإنسانية ، خاصة بذلك الأثمن من كل رأس مال ، الغِنى المتجدّد في التعليم [٢٧] .

رأيت الولايات المتحدة في الثلاثينات وهي تنهض بنفسها من غُبار أوكلاهوما الميّت والطوابير الرمادية للعاطلين عن العمل في ديترويت ، وكان لصورة الرخاء هذه انعكاسها في حياتي ، وفي قراءتي لمارك توين ، وفي الأفلام والصحف ، وفي قُدرة الشمال الأميركي على مزج الوهم الناعم الرقيق بالحقيقة الصلبة الصادمة ، الإنتشاء الذاتي بالنقد الذاتي : أدّى كل من كارول لومبارد وألكر إيفانز [٢٨] دور الوَرَثة الطائشين في فيلم سينمائي إلى تصوير الأمهات المهاجرات ، كما أن وطْأ قَدمي فريد أستير [٢٩] الرشيقتين لم تُصمِت السحق الثقيل لجزمتي توم جود [٣٠] .

لقد عكست مدرستي ـ وهي مدرسة رسمية ، غير تابعة لأي طائفة ومختلطة ـ هذه الحقائق وتمثلاتها الأساسية المبنية على المساواة . آمنتُ بالبساطة الديمقراطية

لأساتذتي والطلاّب المقيمين معي في غرفتي ، وفوق هذا كله آمنت بأنني كنت ، بطبيعية ، وعلى نحو غير واع كلياً ، جزء من هذا العالم . من المهم أن تكون « شعبياً » في الولايات المتحدة ، في كل الأعمار وفي كافة المِهَن والأشغال ؛ أنا لم أعرف مجتمعاً آخر تكون فيه قِيَم الإنتظام عالية التبجيل كهذا المجتمع . كنت شعبياً ، وكنت « منتظماً » إلى تاريخ يوم من آذار / مارس - ١٨ آذار ١٩٣٨ . في ذلك اليوم ، قام رجل من عالم آخر، البلد المُتَخيل في طفولتي ، رئيس المكسيك ، لازارو كارديناس ، بتأميم ممتلكات شركات النفط الأجنبية . أدانت العناوين الرئيسية في صحافة الشمال الأميركي حكومة المكسيك « الشيوعية » ورئيسها « الأحمر » ؛ طالبوا بغزو المكسيك من خلال المحافظة على المُلكية الخاصة المُكَرَسَة ، وتَمَ دعوة المكسيكيين ، بحجة المقاطعة الدولية ، إلى شرب نفطهم .

وعلى الفور بِتُ منبوذاً في مدرستي . النفور مني ، النظرات العدوانية ، النعوت وإطلاق الصفير أحياناً . يعرف الأطفال كيف يكونون قُساة . ولم تكن هذه القسوة مدّخَرة لي أو للمكسيك . ففي نفس الوقت تقريباً وصل ولَد في منتهى الذكاء ، عمره أحد عشر عاماً ، من ألمانيا . كان يهودياً فَرّت عائلته من النازيين . سأظل أتذكّر وجهه على الدوام ، وجهاً داكناً ومرتعشاً ، وكذلك أنفه المعقوف وعينيه الغائرتين الذكيتين بحزنهما العظيم ؛ رِقة يديه والغرابة التي ظهرَ بها على زملائه الأميركيين . كان لهذا اليافع ، هانس بيرلنر ، ذهنية رياضية متقدة الذكاء ، وكان يسير ويلقي التحية مثل رجل من وسط أوروبا . ارتدى بنطالاً قصيراً وجوارب طويلة منسوجة ، بالإضافة إلى سترات تايرولين ، وكان يملك قدراً من الكياسة بحيث أغاظَ هؤلاء الشعبيين ، المنتظمين ، الكلبيين الصغار ، المرتدين بنطلونات قصيرة واسعة ومزمومة عند الرُكَب ، الأجلاف ، الأبناء الصغار لذئاب مرحلة الكساد الإقتصادي في مدرسة هنري كوك الرسمية في الشارع الثالث عشر .

اكتشفت بأن بلد والدي كان بلداً حقيقياً . وبأنني أنتمي إليه . كانت المكسيك هويتي مع أنني كنت أفتقد الهوية . عانى هانز بيرلنر أكثر مني - تَمَ نسيان عناوين الصحف الرئيسية عن المكسيك وبرز موضوع كبير آخر ليصبحَ عيد الإعلام لمدة

عشرة أيام ـ ، ومع ذلك فلقد كان يملك هوية : كان يهودياً من وسط أوروبا . تَمليتُ في صور الرئيس كارديناس : كان رجلاً من نَسْلٍ مغاير ؛ لم يظهر في مستودع الصور الصقيلة ، المُغرية ، للمبيعات الرائجة في العالم الشمال أميركي . كان **ميستيزو** ( هجيناً ) ، إسبانياً وهندياً ، بنظرة متأملة خضراء ، وملتمعة في عينيه ، كأنما كان يحاول أن يتذكّر ماضياً صامتاً وقديماً جداً . أكان ذلك الماضي ماضيَّ كذلك ؟ هل بمقدوري أن أحلم أحلام البلد الذي بانَ فجأة في فِعْلٍ سياسي كشيء أكثر من كونه حدوداً يقينية الوجود على خريطة ، أو رابية في إحصاء في كتاب سَنوي ؟. أؤمن بأنني ، وقتها ، كنت قد حدستُ بأن لا راحة لي حتى يكون باستطاعتي التشبث بذلك المصير المشترك الذي ما يزال يعتمد على وحدة أخرى : وحدة الزمان . جعلتني الولايات المتحدة أؤمن بأننا نعيش من أجل المستقبل فقط ؛ غير أن المكسيك ، وكارديناس ، وأحداث ١٩٣٨ ، جعلتني أفهم بأننا ومن خلال فعل في الحاضر يمكننا صياغة الحاضر ماضياً كما يمكننا صياغته مستقبلاً : من أجل أن تكون مكسيكياً عليك أن تُماثِل الجوع بالوجود ، والرغبة بالكرامة المتجذّرة في كثير من القرون المنسيّة وفي كثير من القرون التي ستجيء ، لكنها متجذّرة هنا ، الآن ، في اللحظة ، في زمن المكسيك اليقظ الذي تعلّمت فهمه فيما بعد في الأفاعي الحجرية لتيوتيثواكان ، وفي ملائكة أوكساكا متعددة الألوان (٣١) .

عام ١٩٣٩ ، أخذني والدي لمشاهدة فيلم في السينما القديمة ـ RKO Keith في واشنطن . كان اسم الفيلم **رَجُلُ الفَتْح** وقام ريتشارد ديكس بدور سام هيوستون (٣٢). وعندما نادى ديكس / هيوستون بفصل جمهورية تكساس عن المكسيك ، قفزت عن مقعد القاعة وأعلنت بتلقائيتي ومن عمق وطنيتي ذات السنوات العشر « **تحيا المكسيك !الموت للغرينغويين !** » . سحبني والدي المُحْرَج خارج القاعة ، لكن اعتزازه بي لم يقاوِم تسرب فِعل أولى تمرداتي إلى جريدة الواشنطن ستار .

خلال الإجازة السنوية لوالدي ، أثناء عمله الديبلوماسي ، سافرتُ إلى تشيلي ودخلت عالم اللغة الإسبانية ، عالم السياسة الأميركية اللاتينية وشدائدها . كان

الرئيس روزفلت قد قاوم ضغوطاً هائلة من أجل استخدام وتطبيق عقوبات اقتصادية لا بل وحتى غزو المكسيك لمعاقبة بلدي على استعادتها لثرواتها . وبالمثل ، لم يحاول هدم الإستقرار في حكومة تشيلي المكوّنة من الراديكاليين ، والشيوعيين ، والإشتراكيين التي تَمَ انتخابها بديمقراطية تحت رايات الجبهة الشعبية . في بداية الأربعينات كانت قوة الحياة السياسية التشيلية قوة مُعْدية : نقابات فاعلة ، أحزاب فاعلة ، وحملات انتخابية عَبّرت كلها عن هذا الثراء السياسي ، عن أكثر أمم أميركا اللاتينية ديمقراطية . كانت تشيلي بلداً مُسَيساً بكل ما في اللفظة من معنى . ولم تكن صُدفة أنها كانت ، أيضاً ، بلد الشعراء الإسبان ـ الأميركيين العظماء غابرييلا ميسترال ، وفيسنتي هويدوبرو ، وبابلو نيرودا .

لم أتعرّف على نيرودا وأصبح صديقاً له إلاّ بعد سنوات من ذلك التاريخ . كان بوسع ملك الشعر ميداس هذا [٣٣] أن يكتب ، عبر وصيّة أدبية نَجَت من بيت ضيق ومن ضريح غير مُسمّى ، أغنية جميلة باللغة الإسبانية . لقد أخذ الفاتحون الإسبان ذهبنا ، قال ، لكنهم تركوا لنا ذهبهم : تركوا لنا كلماتنا . ذات ظهيرة ، وعلى الشاطئ في **لوتا** في شمال تشيلي، رأيت عُمّال المناجم وقد خرجوا ، مثل الخُلد ، من عملهم القاسي الكائن تحت البحر بعمق عدة أقدام ، ليستخرجوا فحم المحيط الباسيفيكي . تحلّقوا حول نار أضرموها في الهواء الطلق وغَنّوا ، على موسيقى الغيتار ، قصيدة من **النشيد الشامل** لنيرودا . أخبرتهم بأن المؤلف سيتأثر ويفرح عندما يعلم أن قصيدته قد حُولّت إلى موسيقى . أي مؤلف ؟ سألوني باندهاش . إن شعر نيرودا ، في نظرهم ، لا مؤلف له : جاء من بعيد وكان يُغنّى على الدوام ، مثل شعر هوميروس . تعلّمت في تشيلي بأن الإسبانية يمكن أن تكون لغة الأحرار . وكان عليّ أن أتعلّم عبر حياتي ، وفي تشيلي ١٩٧٣ [٣٤]، هشاشة كل من لغتنا وحريتنا عندما ساعد ريتشارد نيكسون بجذل ، إثر عدم تمكّنه من تدمير الديمقراطية الأميركية ، على تقويض الديمقراطية التشيلية : الشيء نفسه قام به ليونيد بريجينيف في تشيكوسلوفاكيا . ثمة لغة غير مميزة ، لغة تنتمي لنا جميعاً ، مثلما انتمت قصيدة نيرودا إلى عمال المناجم أولئك على الشاطئ ، بل هي علاوة على ذلك لغة قابلة لأن تُختَطف ، وأن تُسلَب قوتها ، وأن تُسجَن أحياناً ، وأحياناً تُقتَل .

دعوني أوجز : لقد وفّرت لي تشيلي وللآخرين من كُتّاب جيلي ، في سانتياغو، كُلاً من لغة هَشّة ومنزوية ، الإسبانية ، وتلك التي صانت لاتينية زماننا ، اللسان الفرنكاوي للعالم الحديث ، الإنجليزية . وفي مدرسة كرينج ، وهي مدرسة بريطانية صغيرة ، قام وتحت تأثير الجمال المرعب لجبال الأنديز كل من خوسيه دونوسو، وخورخي ادواردز ، وروبيرتو توريّتي ، ولويس ألبرتو هيرمانس المتأخّر ، وأنا ـ كنا وقتذاك جميعنا هواة متبرعمين ـ بكتابة أولى تمريناتنا في الأدب . شاركنا بنشاط في سباقات عبر البلاد ، وتلقينا الضرب بالخيزرانة من وقت لآخر ، وكنا نتعافى ونحن نقرأ سوينبرن [٣٥] ؛ كنا في وضع المتلقين لجرعات هائلة من الرجبي ، ورُسكين [٣٦] ، والعصيدة للفطور وشَلل الشفة العليا عند الهزائم العسكرية . وعندما اخترق مونتغمري خطوط الألمان في العلمين ، قذف طلبة المدرسة المحتشدون بقبعاتهم في الهواء وهَللوا فرحين للموت . تَسمّت الأندية في أميركا الجنوبية باسم جورج كانينغ[٣٧] وفرَق كرة القدم باسم اللورد كوشرين؛ غير عابئين بحقيقة أن مساعدة الإنجليز في الفوز بالاستقلال قادت إلى الإمبريالية الإقتصادية الإنجليزية ، من النفط في المكسيك إلى سكك الحديد في الأرجنتين . كان ثمة رعشة سرية في قلوبنا : لقد تم ضرب غُزاتنا الإسبان بواسطة الإنجليز ؛ عَوّضَت هزيمة أرمادا فيليب الثاني التي لا تقهر عن جرائم كورتيز ، وبيزارّو ، وفالديفيا [٣٨] . إذا كانت بريطانيا امبراطورية ، فعلى الأقل كانت امبراطورية ديمقراطية .

هنا يكمن ، بالنسبة لجيلي ، التناقض المركزي لعلاقتنا مع العالم الناطق بالإنجليزية : لقد جَعَلَت من قيم الحداثة ، والحرية ، والتنمية الإقتصادية ، والديمقراطية السياسية قِيَماً كونية ؛ لكننا حينما طَوّرنا تلك القيم في أميركا اللاتينية وفق أسلوبنا من خلال ثقافتنا ، قامت حكوماتكَ بوسمنا على أننا أدوات الماركسية ـ اللينينية ، إلى جانب الحُماة العسكريين لمثالانيّة الإرتداد نحوالفتح الإسباني ، عازية حيوية تغيّرنا إلى مؤامرة سوفياتية ، وأخيراً مُحرّفة الحركة باتجاه التحديث التي قمتم أنتم أنفسكم بتشجيعها .

ومع ذلك ، فلقد حَدد عبوري من الإنجليزية إلى الإسبانية التعبير المتماسك لما كان يوحي بالهوية في واشنطن . أردت أن أكتب وأردت أن أكتب من أجل أن أبيّن

لنفسي بأن هويتي وبلدي كانا حقيقيين : بدأت الآن في تشيلي بخربشة قصصي الأولى ، بل وحتى نشرها في مجلات المدرسة ، تعلّمت بأن عَليّ في الواقع الكتابة بالإسبانية .

عرفت في تشيلي إمكانيات لغتنا في منح أجنحة الحرية والشعر . كان الإنطباع راسخاً ؛ لقد أوصلتني وللأبد إلى تلك الأرض الحزينة والرائعة . إنها تحيا في داخلي ، وحوّلتني إلى رجل يعرف كيف يحلم ، ويحب ، ويحتقر ، ويكتب بالإسبانية فقط . كما أنها تركتني منفتحاً على علاقة متبادلة متواصلة : ماذا جَرى لهذه اللغة العالمية ، الإسبانية ، التي توقفت بعد القرن السابع عشر عن أن تكون لغة الحياة ، والإبداع ، والإستياء ، والقوة الشخصية ، وباتت لفترة طويلة جداً لغة الحداد ، والجدب ، والإطراء البلاغي المتكلّف ، والقوة المجرّدة ؟ أين كانت خيوط تقاليدي ، أين بمقدوري أنا ، كاتباً في أميركا اللاتينية منتصف القرن العشرين ، أن أجدَ الصلة المباشرة إلى الأطياف الحيّة العظيمة التي كنت أشرع بقراءتها حينذاك ، سرڤانتسي الضائع ، كويفيدواي العجوز ، إنه ميّت لأنه لم يستطع احتمال كاتب آخر ثان ، غونغوراي . . المهجور في خليج من الوحدة ؟ .

بعد إقامتي في سانتياغو أمضيت ستة شهور رائعة في الأرجنتين . كانت ، على الرغم من قِصَرها ، على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لهذه القراءة والكتابة عن نفسي . كانت بوينس أيرس وقتذاك ، مثلما هي دائماً ، المدينة الأكثر جمالاً ، وتطوراً ، وتحضراً في أميركا اللاتينية . لكنها ، في صيف ١٩٤٤ ، بينما أرصفة الشوارع انصهرت بالحرارة وفاحت من المدينة رائحة البنزين في زمن الحرب ، والجلد غير المدبوغ من الميناء وأصبعيات الشوكولاته من محلات الحلوى ، كانت الأرجنتين تُعاني من إرث الإنقلابات العسكرية : لقد أطاحَ الجنرال راوسون بالرئيس كاستيللو ممثل أوليغاركية أصحاب المواشي ، غير أن الجنرال راميريز أطاحَ بعدها براوسون ، والآن قام الجنرال فارّيل بالإطاحة براميريز . ثمة كولونيل شاب يُدعى خوان دومينغو بيرون صعد وباتَ وزير العمل في حكومة الجنرال فاريّل ، ولقد استمعت إلى ممثلة اسمها ايفا دوراتي تقوم بدور « امرأة التاريخ العظيمة » في راديو بلغرانو (٣٩) . وكان هنالك روائي مبتذَل وسفيه يكتب باسم أدبي هو هوغو واست قد تم تعيينه وزيراً للتعليم باسمه الحقيقي ،

مارتينيز زوفيريا ، جاء بكل هلعه المَرَضي اللاسامي ، اللاديمقراطي ، والفاشي وأدخله إلى نظام مدرسة بوينس أيرس العُليا ، والتي غطستُ فيها على نحو فُجائي . ولأنني قَدمتُ من أميركا **التعامل الجديد** ، وبوحي من مبادئ المكسيك الثورية ، وسياسات الجَبهة الشعبية في تشيلي ، لم أستطع هضم هذا ، فتمرّدت ومنحت نفسي صيفاً كاملاً من التجوال في بوينس أيرس ، متحرراً لأول مرة في حياتي ، ملاحِقاً موسيقى التانغو المفضّلة لديّ وهي تُعزَف على مدار الصيف في الظلال الشبيهة بلوحات رينوار، وعلى ضوء الأنهار ومقصورات الـ تيجر ومالدونادو .

حدَث أمران في غاية الأهمية .

الأول ، أنني فقدت عُذريتي . لقد سَكنا في بناية تتألف من شقق على المنعطف المُورِق لشارعيّ كالاوّ وكوينتانا ، وما كان أحد يوجد هناك بعد العاشرة صباحاً سواي ، وعجوز بولندي أطرش هو البوّاب ، وامرأة تشيكية جميلة في الثلاثين من عمرها . صعدتُ لأطلب منها استعارة السنتوينا ، الذي كان دليل برامج الإذاعة في الأربعينات ، لأنني أردت معرفة متى ستمثّل ايفيتا دور **جان دارك** . قالت بأن التمثيلية قد فاتتني ، غير أن البرنامج القادم هو **مدام دو باري** . تساءلت إنْ كانت حياة مدام دو باري مثيرة مثلما هي حياة جان دارك . قالت إنها بالتأكيد أقل طهارة ، كما أنها ، إضافة إلى ذلك ، يمكن أن تضاهيها . كيف ؟ قلت ببراءة . هكذا ، وبتلك الوسيلة ، قامت جميلتي بتدريبي . أسعدنا بعضنا بعضاً سعادة كبيرة . وسبّبنا لبعضنا حزناً شديداً كذلك . لم تكن هذه هي حرية الحب ، بل كانت ، على الأصح ، حفلة خلاعة مُنوّعَة : مارسنا الحب بالخفية . كنت صغيراً على أن أكون سادياً حقيقياً . لذا كان ينبغي أن ينتهي الأمر .

الثاني ، بدأت بقراءة الأدب الأرجنتيني ، من القصائد الوحشية إلى **ذكريات الحياة الريفية** لسارمينتو إلى **جوفينيليا** لكانه إلى **دون سيكوندو سومبرا** إلى ... إلى ... - وكان هذا جيداً كاكتشاف أن جان دارك كانت جنسية أيضاً - إلى بورخيس . ينتمي بورخيس إلى ذلك الصيف في بوينس أيرس . ينتمي إلى اكتشافي الشخصي لأدب أميركا اللاتينية .

قرأت **تخيلات** بورخيس أثناء تحليقي شمالاً في مركب طائر تابع للبان أميركان ايرويز . كان وقتُ حرب ؛ وجبَ علينا العمل وفق الأولويات . جميع آلات التصوير كانت محظورة ، وتم وضع شاشات مزججة بلاستيكية على نوافذنا قبل دقائق من هبوطنا . وبما أنني لم أكن جاسوساً لدول المحور ، فلقد قرأت بورخيس بينما نحن نبرز في سانتوس ، قائلاً بأن أفضل برهان على أن القرآن كتاب عربي هو عدم ذِكْر جَمَل واحد في صفحاته . وما إن انحدرنا صوب ريو دي جانيرو غير المرئية ، حتى بدأت أفكّر بأن أفضل برهان على أن بورخيس أرجنتيني يكمن في وجوب تصويره لكل شيء تصويراً نابضاً بالحياة ، لأن لا شيء كان موجوداً . وعندما حَلّقنا خارج باهيّا ، فكّرت أن بورخيس اختلق عالَماً لأنه بحاجة إليه . أنا أحتاج ، إذَن أنا أتخيّل .

ووقت أن هبطنا في ترينيداد ، قام كتاب « الذكرى الراسخة Funes the Memories » ، « بيير مينارد » ، مؤلف دون كيخوته [٤٠] بتقديمي ، دون أي خشية مني ، إلى سلالة المجانين الرائقين ، أطفال ايراسموس [٤١] . لم أكن أعرف وقتها بأن هذه كانت العائلة الأكثر شُهرة في الرواية الحديثة ، إذ أنها امتدت ، متقهقرة ، من بيير مينارد إلى دون كيخوته نفسه . وخلال فَترتي ركود مؤقّت قصيرتين في سانتو دومينغو ( سُميَتْ فيما بعد ، بشكل مروّع ، سويداد تروجيليو ) وبورت - أو - برينس، كنت قد أُعددتُ بواسطة بورخيس للقاء أصدقائي الرائعين : توبي شاندي ، الذي بنى من جديد ميادين القتال في الفلاندرس على ورقة ملفوف منمنمة ، والتي لم يكن بإمكانه اختبارها تاريخياً ؛ كاثرين موريلاند لجين أوستن ومدام بوفاري لغوستاف فلوبير ، اللذين آمنا مثل دون كيخوته بكل ما يقرآنه ؛ السيد ميكوبر لديكنز ، الذي يأخذ آماله ليحوّلها إلى حقائق ؛ ميشكين لديستويفسكي ، أبله لأنه يمنح منافع الشك لاحتمالات البشرية الطيبة ؛ نازارين لبيريز غالدوس ، المجنون لأنه يؤمن بأن كل إنسان يمكنه أن يصير مسيحاً كل يوم ، والذي هو حَقاً جاهل القديس بولس : « .. إنْ كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصر جاهلاً لكي يصير حكيماً . » [٤٢]

وعند هبوطنا في مطار ميامي ، اختفت النوافذ المزججة دفعة واحدة وعرفت ، كبيير مينارد ، أن على الكاتب أن يواجه دائماً الواجب العظيم للأدب بعَمَلٍ يعتمد على إعادة بناء تلقائية . وهكذا التقيت بتقليدي : كان دون كيخوته كتاباً ينتظر أن

يُكتَب . كان تاريخ أميركا اللاتينية ينتظر أن يُعاش .

عندما وصلت إلى المكسيك أخيراً ، اكتشفت بأن بلد والدي المُتخيَلة حقيقية، لكنها أكثر روعة من أي أرض خيالية. كانت حقيقية مثلما هي حدودها المادية والروحية . المكسيك : الحدود الوحيدة بين العالمين الصناعي والنامي ، بين بلدي والولايات المتحدة ، بين مجموع أميركا اللاتينية والولايات المتحدة ، وبين كاثوليكية البحر الأبيض المتوسط وعناصر البروتستنطية الأنجلو ـ ساكسونية للعالم الجديد .

اقتربت من ذهب وطين المكسيك ، وها البلد الخيالي والمُتَخيل حقيقي أخيراً ، لكنه حقيقي فقط إذا ما رأيته على بُعد مسافة تؤكد لي هذا ، وذلك بسبب من الإنفصال الحقيقي جداً ، والتي ستكون رغبتي بالإلتحام به للأبد عاجِلة ، وهو حقيقي فقط إذا ما كتبته .

كان اتصالي الأول بالأدب وبلغته قد استوى على رُكبتي ألفونسو ريس . فعندما كان الكاتب المكسيكي سفيراً لدى البرازيل في بداية الثلاثينات ، قام ريس ببعث الكلاسيكيات الإسبانية لنا ؛ كتب كتباً فَذّة عن اليونان ؛ كان أكثر الباحثين الأدبيين النظريين صَفاء في الفكر ؛ قام ، في الحقيقة ، بترجمة كل الثقافة الغربية ضمن مصطلحات أميركية لاتينية . في أواخر الأربعينات كان يعيش في منزل صغير ، له لون فاكهة المامي ، في كويزنافاكا . كان يدعوني لقضاء عطلات الأسبوع معه ، ولأنني كنت في الثامنة عشرة وأجوس المدينة ليلاً ، فلقد لازمته من الحادية عشر صباحاً ، حين يجلس دون ألفونسو في مقهى ويقذف بباقات استحسانه اللفظية للفتيات المتمشيات حول الساحة العامة التي كانت حينذاك حديقة للغار وليست ، كما تحوّلت، حديقة للإسمنت . لا أعرف إنْ كان الرجل رَبع القامة ، أحمر الوجه ، الجالس إلى الطاولة المجاورة قنصلاً بريطانياً أُفتتن بقُرب البركان ؛ لكن إذ اقتبس ريس ، مستمتعاً بمشهد العالم اللافت للنظر ، من لوب دي فيغا ومن غارسيلاسو ، فإن جارَنا، محتسي **المسكال** ، سيجيب ، دون أن ينظر إلينا ، بأشد المقاطع الشعرية كآبة لكل من مارلو وجون دَن (٤٣) . وبعد ذلك نذهب إلى السينما لكي ، كما يقول ريس ، نستحِم في ملحمة معاصرة ، وما كان ليبدأ بتوبيخي إلاّ في الليل : ألم تقرأ ستاندل

بعد ؟ العالم لم يبدأ قبل دقائق ، كما تعلم .

كان بمقدوره أن يثيرني . لقد قرأت ، بمعاكسة ذوقه الكلاسيكي ، الكتب الأكثر حَداثة .. والأكثر إحداثاً للضجيج ، دون أن أعي بأنني كنت أتعلّم درسه لي : ليس ثمة إبداع بلا تقاليد ؛ « الجديد » هو التواءٌ على شكلٍ سابق عليه ؛ التجديد تنويع دائم على الماضي . قال بورخيس أن رييس كتب أفضل نَثر إسباني في زماننا . عَلمني بأن للثقافة ابتسامة ، وأن التقاليد الفكرية للعالم أجمع هي تقاليدنا بحق الولادة ، وأن الأدب المكسيكي مهم لأنه أدب ، وليس لأنه مكسيكي .

ذات يوم صحوت مبكراً جداً ( أو ربما عدت متأخراً جداً من إحدى الحفلات ) ورأيته جالساً في الخامسة صباحاً ، يعمل على طاولته ، وسط شَذا الجكرندة والبوغنفيلية (٤٤) . كان بوذا مُصَغَّراً ، أصلع ووردي اللون ، كأنما يقترب من أن يكون واحداً من أولئك الأقزام الذين يرقّعون الأحذية في الليل بينما تنام العائلة . لقد أحب الإقتباس من غوته : أكتبْ عند الفجر ، أقشدْ قشدة النهار ، عندها يكون باستطاعتك دراسة الشفافيات ، تآمَرْ على البلاط ومارِسْ الجنس مع خادمة المطبخ . كان رييس يكتب بصمت ، ولم يكن يبتسم . انتهى عالمه ، بطريقةٍ ما ، في يوم احتفالي في شهر شباط / فبراير ١٩١٣ عندما سقط والده المتمرّد عسكرياً ، الجنرال بيرناردو رييس ، وقد خرقه رصاص رشاش آلي محوّلاً جسده إلى غربال في زوكالو في مدينة مكسيكو ، وسقط معه ما تبقى من **المرحلة الجيدة ، الزاخرة بالتغيرات** ، سلام بورفيريو دياث(٤٥) الطويل والقاسي .

ظَلَ والدي مقيماً في بوينس أيرس كقائم بالأعمال المكسيكي ، ومُزوداً بتعليمات تقتضي منه إبداء التجهّم حيال تعاطف الأرجنتين مع دول المحور . وانتهزت أمي غيابه لتسجلني في مدرسة كاثوليكية في مدينة مكسيكو . كان الأخوة الذين يديرون هذه المؤسسة مشغولي البال بأمر لم ينفذ إلى رأسي أبداً : الخطيئة . في مستهل العام الدراسي ، كان أحد الأخوة يجيء إلى الصف بزنبقة بيضاء في يده ، ويقول : « هذه شاب كاثوليكي قبل أن يقوم بتقبيل فتاة . » . وبعد ذلك يرمي الزنبقة على الأرض ، ويرقص مهتزاً عليها ، ثم يلتقط الشيء المتسخ ويؤكد على أسوأ

شكوكنا : « هذه ولَد كاثوليكي بعد أن ... » .

حسن ، لقد عبأتْ كل هذه الأمور الحياة بالغواية . وحين أستعيد الماضي متأملاً فيه ، فإني سأوافق لويس بانويل (٤٦) على أن الجنس بلا خطيئة كبيضة بلا ملح . جعلَ الرهبان في الكلية الفرنسية من الجنس أمراً لا يقاوَم بالنسبة لنا ؛ كما أنهم جعلوا منّا يساريين بشجبهم المتواصل لليبيرالية المكسيكية وخاصة لبينيتو خواريز . باتت الغواية الجنسية والسياسية عظيمة جداً في مدينة تُصّعب الأعراف الريفية ، والفروقات الإجتماعية الحادة فيها ، من إقامة علاقات جنسية طبيعية مع فتاة ، أو حتى مع امرأة أكبر .

أدى كل هذا ، كما أقول ، إلى موقف تمردي تبلور فيما يخصني بالقرار أن أصير كاتباً . أما والدي ، الذي عاد وقتذاك من الأرجنتين ، فقد قال بصرامة ، فليكنْ ، أخرجْ وصِر كاتباً ، ولكن ليس جَرّاء إنفاقي عليك . أُرسلتُ ثانية لزيارة ألفونسو رييس في مكتبته ـ منزله الرائع ، حيث بدا أكثر شدة في الصِغَر من أي وقت آخر ،ومحتجباً في زاوية صغيرة أخلاها لسريره وسط المشهد شبه البيرانسي للمجلدات المكدّسة فوق المجلّدات . قال لي « المكسيك بلد يهتم بالشكليات كثيراً . إذا لم يكن لديك لَقَبٌ فانت لا أحد : في الحضيض ، لا تُرى . اللقب مثل المقبض للكأس ؛ فبدونه لا يرفعك أحد . يجب عليك أن تتحوّل إلى حامل رُخصَة ، مُحام ؛ عندها يكون باستطاعتك أن تفعل ما يحلو لك ، مثلما فعلت أنا. » .

وهكذا دخلت كلية القانون في الجامعة الوطنية حيث انصرفت ، كما خشيت، إلى التعلّم بالصَمّ دون الفهم الحقيقي ، وحيث يمضي الأساتذة الساخرون ساعة الدرس الكاملة في العناية بالمائتي طالب الدارسين للقانون المدني ، يتلون أسماءهم من الألف إلى الياء . غير أن ثمة استثناءات وُجِدَت : لقد أدرك الأساتذة الحقيقيون ـ كانوا بشكل رئيسي من المنفيين الجمهوريين الإسبان المهزومين الذين أغنوا على نحو هائل الجامعات المكسيكية ، ودور النشر ، والفنون والعلوم ـ أن القانون غير منفصل عن شؤون الثقافة ، والمبادئ الأخلاقية ، والعدالة . وقام السيد مانويل بيدريسو ، العميد السابق لجامعة إشبيلية ، بجعل دراسة القانون متسقة مع ميولي الأدبية . فحين كنت أشكو بمرارة من جفاف ومَلالة حفظ القانون الجزائي أو التجاري عن ظهر قلب ، كان

يرد بالمقابل : « انسَ القوانين . اقرأ ديستويفسكي ، اقرأ بلزاك . فهنا يوجد كل ما ينبغي عليك أن تعرفه عن الجريمة أو القانون التجاري » . ولقد جعلني أرى أيضاً بأن ستاندال كان على حَق : بأن أفضل نموذج لبناء روائي جيد هو القواعد النابوليونية للقانون المدني . على أية حال ، لقد وجدتُ أن الثقافة تتألّف من مترابطات ، وليست وفق منفصلات : أن تتخصص يعني أن تَعزِل .

كانت مدينة مكسيكو حينذاك بلدة مطواعة يقطنها مليون ساكن ، جميلة في إفراطها بالأناقة الكولونيالية وطراز الفن التاسع عشر ، وبتوهج حياة الليل فيها المليئة بالحيوية والخطرة . أمضيت وأصدقائي آخر سنوات صِبانا وبدايات شبابنا في سلسلة متصلة من الحانات ، والمواخير ، واللقاءات العارية ، والنوادي الليلية الملَمّعة بالفضة حيث تم غِناء **البوليرو** ورُقِصَت **المامبو** ؛ كانت المومسات ، **وبنات الليل الثملات المتهتكات** ، والسَحَرة رفاقنا بينما كنا نناضل عبر قراءاتنا الأولى لـ د . ش . لورنس وألدوس هكسلي ، جيمس جويس وأندريه جيد ، ت. س. اليوت وتوماس مان . كنت وسالفادور ايليزوندو الإثنين القابلين لأن يكونا كاتبين ضمن المجموعة ، وإذا ما كانت حَبة الواقعية في **أكثر الأقاليم شفافية** قد بُدْرَت في تلك الأجواء ، فإنه من غير شك أن انفجارنا المُسَرنِم في الحياة الليلية الشبحية لمدينة مكسيكو هو حقيقي أيضاً ، كما هو كذلك الخيال الوحشي للحظة في رواية اليزوندو Farabeuf الذي له الخلفية ذاتها . كنا نذهب إلى ماخور سَمّوه بشذوذ **النغم الجميل** ، ونختار فتاة مكسيكية فقيرة كانت عادة تقول بأن اسمها غلاديس وأنها قَدِمَت من غوادالاهارا ، ونتوجه إلى غُرفنا المحترمة . في إحدى المرات ، سُمِعَت صرخة فظيعة واندفعت غلاديس من غوادالاهارا لتخرج ، وهي تبكي وترشح بالدم . كان ايليزوندو ، في ذروة لحظة الحب ، قد قام بشرط إبطها بواسطة موسى للحلاقة .

عام ١٩٥٠ ذهبت إلى أوروبا لأستكمل دراساتي العليا في القانون الدولي في جامعة جنيف . كان أوكتافيو باث قد نشر للتو كتابين غَيّرا من وجه الأدب المكسيكي، **حُرية مشروطة** ، **ومتاهة العزلة** . قرأتُ وأصدقائي هذين الكتابين بجهرية على الملأ في المكسيك ، منبهرين بالشعرية التي استطاعت تجديد لغتنا من

الداخل ووصلها بلغة العالم في آن .

لم يكن أوكتافيو باث وهو في السادسة والثلاثين كثير الإختلاف عما هو عليه اليوم . إن الكُتّاب المولودين في ١٩١٤ ، مثل باث وخوليو كورتاثار ، قاموا بكل تاكيد بتوقيع عقد إتفاق فاوستي [٤٧] عند الفَم تماماً من خنادق الجحيم ؛ لذا فإن عدداً كبيراً من الشعراء ماتوا في تلك الحرب مما أوجَب لآخرين أن يحلوا محلهم . أتذكر باث في النوادي الليلية التي سُميَت وجودية في ذلك الوقت في باريس ، عبر النقاش مع ألبير كامو المفعم بالحيوية والوسيم ، الذي تناوَب على الفلسفة والرقص الحديث في **الوردة الحمراء** . أتذكر باث أمام النوافذ الضخمة لصالة عَرْض في ساحة فيندوم ، عاكسة لوحات ماكس ارنست العظيمة لمرحلة ما بعد الحرب **أوروبا بعد المطر** ، وجانب وجه الفنان مثل نسر قديم ؛ وأني لأحدّث نفسي بأن شعرية باث هي فن الحضارات ، حركةُ مواجهات وتقابُل . إن باث الشاعر يلتقي ببباث المفكّر ، لأن شعره تكوينٌ فكري وفِكرة تكوينٌ شِعري ؛ ونتيجة لهذا الإلتقاء فإن مواجهة للحضارات تحدث . قام باث بتقديم الحضارات لبعضها بعضاً ، وجعلها لائقة لذلك قبل فوات الأوان ، ذلك لأن خلف ابتسامة كامو الرائعة والمركزة باستمرارعلى تفاهة الموت ، كما أن خلف الإنجراف المُضيء للوحات ماكس ارنست والأضواء الساطعة لساحة فيندوم استطعنا ، أنا وأوكتافيو ، عندما التقينا ، أن نسمع صوت حرية الشاعر el Poete Libra ، لعزرا[٤٨] ، وهو يتفجّع على موت الأشياء الأفضل ، « من أجل كلبة عجوز مخلعة الأسنان ، ومن أجل حضارة متقرّحة . »

منحَ أوكتافيو باث الحضارات مرآة فنائها ، مثلما فعل بول فاليري ، لكنه منحها أيضاً انعكاس نجاتها من لقاءات وبائية ومخاطر شهوانية . تعلّمت من خلال علاقة الصداقة الكريمة مع أوكتافيو باث بأن ليس هناك من مراكز ثقافية ذات امتياز ، عِرقي أو سياسي ؛ وبأن لا شيء ينبغي تركه خارج الأدب ، لأن زمننا هو زمن الاختزال المميت.

لم تتمثّل المشكلة ، بالنسبة لجيلي في المكسيك ، في اكتشاف حداثتنا بل في اكتشاف تقاليدنا . وكانت الأخيرة قد تم إنكارها على نحو مؤلم عبر التدريس الغيبي، والمتحجّر للكلاسيكيات في المدارس المكسيكية الثانوية : كان على المرء أن يبعث سرفانتس من جديد على الرغم من نِظام مَدرسي استشرَقَ على نحو مهلك باتجاه نموذج

من الجامعات شبيهة بمصانع السجق ـ على الرغم من التمثلات الأكثر بشاعة وتنافراً للوطنية المكسيكية لذاك الزمان . أخبرني مدرّس ماركسي ذات مرة بأن قراءة كافكا تتنافى مع الذات المكسيكية ؛ وقال ناقد فاشي الشيء ذاته ( كان هذا قدر كافكا الكافكاوي في كل مكان ) ، كما أن مؤلفاً مجدباً مكسيكياً ألقى محاضرة طنانة رنانّة في كلية الفنون الجميلة محذّراً من أن القُرّاء الذين يقرأون بروست سوف يعّهرون أنفسهم . .

لكي تكون كاتباً في مكسيك الخمسينات عليك أن تنضمّ إلى ألفونسو ريبس وأوكتافيو باث في التوكيد والإصرار على أن المكسيك لم تكن إقليماً معزولاً وبِكراً ، لكنها ، وبدرجة كبيرة ، جزء من الجنس البشري وتقاليده الثقافية . كنا جميعاً ، بدواعي الخير أم الشر ، معاصرين لجميع الرجال والنساء .

استأجرت في جينيف علّية تطلّ على ميدان بورج ـ دو ـ فور القديم الجميل ، والذي أسسه يوليوس قيصر كساحة عامة للخنازير قبل ألفي عام . كان الميدان مليئاً بالمقاهي والمكتبات القديمة . جاءت الفتيات من كافة أنحاء العالم ؛ كُنّ جميلات ، وكُنّ مستقلات . لم يكنّ ليتحولن إلى زنابق ملطّخة عندما يتم تقبيلهن . كان ثمة ملح على شِفاهنا . أحببنا بعضنا ، كما أحببت أنا الذهاب إلى الجزيرة الصغيرة حيث تلتقي البحيرة بالنهر لأقضي ساعات طويلة بالقراءة . وبما أنها تُدعى جزيرة جان ـ جاك روسّو ، فلقد أخذت معي المجلّد الذي يخصّني من **الاعترافات** . حدث وأن التقت عدة أشياء في ذلك الوقت . كانت الرواية انعكاس التجربة داخل التاريخ . وكانت الملحمة الحديثة ملحمة ضمير الفرد المتكلّم ، ملحمة الأنا ، من القديس أوغسطين إلى أبيلارد إلى دانتي إلى روسّو إلى ستاندال إلى بروست . عندما يقول الأوديسي [٤٩] بأنه غير موجود ، فإننا نعرف وهو يعرف بأنه يتخفى ؛ وعندما تعلن شخصيات بيكيت عن لا وجودها ، فإننا نعرف بأن « الحقيقة مُشَهرة » : إنها لم تعد متخفيّة .

لم أكن عرفت هذا بعد بينما أمضيت ساعات عديدة بالقراءة فوق جزيرة روسّو الصغيرة عند نقطة التقاء بحيرة جينيف بنهر رون عام ١٩٥٠ . لكنني شعرت على نحو غامض بوجود شيء ما وراء استبار الذات .

هل بمقدوري ، أنا المكسيكي الذي لم يكتب كتابه الأول بعد ، والجالس على مقعد حديقة في يوم ربيعي مبكّر بينما ريح البيز الشمالية الباردة الجافة تسلك طريقها هابطة من أعالي جبال جورا ؛ هل بمقدوري امتلاك الشجاعة لأن أسبر بلغتي ، بتقاليدي ، بأصدقائي وبتأثيرات أخرى ، من أجل اكتشاف تلك المنطقة التي تدعونا إليها الصياغة الأدبية ؟ سرفانتس فعل هذا : لقد جلبَ العالم الحديث للوجود عبر حَمْله لدون كيخوته على مغادرة قريته الآمنة ( قرية كان اسمها ، دعونا نتذكّر ، لقد نُسيَت ) وأخذه إلى الطرقات المفتوحة ، طرقات اللاحماية ، اللامعروف ، والمختلف ، هناك لكي يفقد ما قرأه هو وليربح ما قرأناه فيه ، نحن القُرّاء .

ترتحل الرواية للأبد على طريق دون كيخوته ، من أمان المتشابه إلى مغامرة المختلف بل وحتى اللامعروف . هذا هو الطريق الذي أردت الرحيل إليه . لقد قرأت روسّو ، أو مغامرات الأنا ؛ جويس وفوكنر ، أو مغامرات النحن ؛ سرفانتس ، أو مغامرات الهو الذي سَمّاه الكسول ، القارئ الودود : أنتَ . كما قرأت رامبو في رذاذٍ من النار ، وفي نورٍ من الحَماسة . سألته أمه عمّا تقوله قصيدة معينة من قصائده . وأجاب : « أردت أن أقول ما تقوله هنا ، بمعناها الحرفي وبكافة المعاني الأخرى . » . أصبحت مقولة رامبو هذه قاعدة غير منزاحة لي ولما نكتبه جميعاً اليوم ؛ كما أن القوة الحالية لأدب العالم الإسباني ، الذي أنتمي إليه ، ليست مغايرة لطريقة الفهم الرامبوية هذه : قُل ما تعنيه ، حرفياً وبكافة المعاني الأخرى .

أعتقد بأنني تخيّلت في سويسرا ما كنت أحاول كتابته في يومٍ ما ، لكن عليّ أولاً أن أنجز مسألة امتهاني للقانون . وليس قبل مضي عدة سنوات سأكون قادراً على كتابة ما تخيلته وقتذاك ؛ ليس بعد سنوات حينما لم أعرف فقط أنني احتزت على الأدوات التي سأنجزه بواسطتها ، ولكن أيضاً ، وبذات القدر من الأهمية ، حينما عرفت أنني إنْ لم أكتب فإن الموت لن ينجزه لي . أنتَ تبدأ العيش بالكتابة . أنتَ تنتهي بالكتابة وذلك كي لا تموت .

صيف ١٩٥٠ ، وفي مساء هادئ على بحيرة زيوريخ ، دعاني بعض الأصدقاء المكسيكيين الأثرياء لتناول العشاء في فندق بور ـ دو لاك الأنيق . كان المطعم قائماً

على شُرفة طافية فوق البحيرة . ومن أجل الوصول إليه ينبغي ركوب عَبّارة ، وكان مُضاءاً بفوانيس ورقية وشموع متخفقة . في اللحظة التي بسطتُ فيها منديل المائدة الأبيض وسط الرنين المُهدّيء للفضة والزجاج ، رفعتُ عيني ورأيت المجموعة التي تتعشى على المائدة المجاورة .

جلستْ هناك ثلاث سيدات مع رَجُل سبعيني . كان هذا الرجل جامداً ومرتدياً على نحو أنيق جاكيتاً مزدوج الردة من النسيج الصوفي المتين الأبيض ، وقميصاً بلا ترقيط وربطة عنق . قامت أصابعه الطويلة والناعمة بتقطيع لحم تَدْرُج (٥٠) بارد ، وبتلذذ تقريباً . لقد بدا لي ، وإنْ عبر الأكل ، متحفظاً بظَهر قاس ، وبجلسة عسكرية . أظهرَ وجهُهُ المُسن « إعياء متنامياً » ، لكن هناك الإعتزاز الذي بواسطته كانت شفتاه وفَكّاه تحاولان بيأس إخفاء الحقيقة ، بينما ومضَتْ العينان بـ« لعبة الحب المضطرمة » .

في الوقت الذي لَعِبْت فيه الأضواء الكرنفالية لتلك الليلة في زيوريخ على قَسمات الوجه انتبهتُ متعرفاً عليه ، كان وجه توماس مان مسرحاً للعواطف الضمنية والصامتة . أكلَ وتركَ للسيدات الحديث ؛ كان ، في عيني المفتونتين ، مكان التقاء حيث تمنح العزلةُ الميلاد للجمال غير المألوف والخَطِر ، لكنه يمنح الميلاد كذلك للشرير منه و المُحرَّم . استطاع توماس مان أن يتدبّر ليجد ، خارج هذه العزلة ، الصِلة « بين المصير الشخصي للمؤلف وذاك الخاص بمعاصريه بشكل عام . ». تخيّلت من خلاله بأن نتائج هذه العزلة وهذه الصلة قد سُميَتْ فَنّاً ( أُبدعَ بواسطة واحد ) وحضارةً ( أُبدعَتْ بواسطة الجميع ) . لقد تكلّم بثقة كبيرة ، في **موت في البندقية** ، عن « المهمات المفروضة عليه من قِبَل أناه الخاصة والروح الأوروبية » كما رأيته هناك ، مشلولاً جَرّاء إعجابي به ، في تلك الليلة حيث لم أجرؤ على تصور وجود صِلة كهذه في ثقافتنا الأميركية اللاتينية ، حيث اقتضى التطرفُ التخريبَ ، كما أن صوت القارة غالباً ما قَتَل صوت الذات وصَنعَ وحشاً سياسياً أجوف من صوت المجتمع ، أو قتَلَه بتوليده لقَزَمٍ هزيل عاطفي .

أجل ، وحالما استرجعت قراءاتي المتحمّسة لكل ما كتبه ، من **دَم والسنجس** إلى **دكتور فاوست** ، لم أستطع إلاّ أن أشعر بأن الأدب ، على الرغم من الاختلافات الواسعة بين ثقافته وثقافتنا ، يفرض ذاته في النهاية عبر علاقة بين العوالم المرئية وغير

المرئية للحكاية . ينبغي للرواية أن « تجمع خيوط عِدة مصائر بشرية في سّداة فكرة واحدة ؛ الأنا ، الأنتَ ، والنحن ما كانوا لينفصلوا ويجفّوا إلاّ بسبب افتقار الخيال . » ودون أن يعرفني تركت توماس مان يرشف من فنجان قهوته الصغير ، بينما اقترب منتصف الليل واهتزّ المطعم الطافي بنعومة وخفقت الفوانيس الصينية بهدوء . سأظل شاكراً له على الدوام تعليمه الصامت لي بأنك ، في الأدب ، تعرف ما تتخيله فقط .

عُدتُ إلى المكسيك ، لكنني عرفت بأنني سأظل للأبد هائماً أبحث عن المنظور: كانت هذه معموديتي الحقيقية ، وليست ذاك الإحتفال الديني أو المدني اللذين ذكرتهما . لكن ، وبصرف النظر أين مضيت ، ستكون الإسبانية لغة كتابتي وأميركا اللاتينية ثقافة لغتي .

نيرودا ، رييس ، باث ؛ واشنطن ، سانتياغو دي تشيلي ، بوينس أيرس ، مكسيكو سيتي ، باريس ، جينيف ؛ سرفانتس ، بلزاك ، رامبو ، توماس مان : فقط مع كل اللغات المُشارَك بها ، وتلك الأماكن التي تخصّني وأصدقائي وسادتي ، أكون قادراً على الدنو من نار الأدب ومُطالبتها بقليل من الشرارات .

عَن ***GRANTA***

***No/22. Autumn 1987***

***الهوامش***

١ . فرناند جروميلنيك Grommelynck , Fernand ( ١٨٨٥ - ١٩٧٠ ) ، كاتب مسرحي بلجيكي كتب باللغة الفرنسية وبات ناجحاً بمسرحيته « الدّيوث المذهل » المنشورة عام ١٩٢٠ والتي حُولِت إلى فيلم سينمائي عام ١٩٢١ ، وهي هزلية ساخرة مكتوبة شعراً غنائياً تتناول مسالة الغيرة . ويذكر أن جروميلنيك عمل ممثلاً قبل إحرازه للشهرة بعد مسرحيته هذه . ومن مسرحياته المعروفة : « ذَهَبٌ في الأحشاء - ١٩٢٥ » و « كارين - ١٩٢٩ » ، و « ساخن وبارد - ١٩٣٤ » ، وكلها تتصف بلغة شعرية . (Grolier Academic Encyclopedia) .

٢ . كورت فونيجوت Vonnegut , Kurt , Jr. ، ولد عام ١٩٢٢ . واحد من أكثر الكتّاب شيوعاً في الولايات المتحدة خلال الستينات . اتسمت أعماله بالنقد والتهكم واستخدامه للعناصر الغرائبية مع نوع من الروائية العلمية ، وذلك لكي يبدع أعمالاً تحرر المجتمع الحديث من أوهامه . تعكس أعماله مسلكيات الأولاد في مرحلة الستينات وبداية السبعينات . من أشهر كتبه « المسلخ - خمسة - ١٩٦٩ » وهي رواية نصف سيرة ذاتية له ومضادة للحرب . وكذلك « عازف البيانو - ١٩٥١ » و « مهد القطة - ١٩٦٣ » ومسرحية « عيداً سعيداً يا واندا جون » و « فطور الأبطال - ١٩٧٣ » و « المطرقة - ١٩٧٦ » و « المجرم المزمن - ١٩٧٩ » . ( G. A. E )

٣ . الإحالة إلى رواية غابرييل غارسيا ماركيز « مائة عام من العزلة » . - المترجم - .

٤ . ممثلان أميركيان مشهوران في تلك الفترة . - المترجم - .

٥ . جياكومو بوتشيني Puccini , Giacomo ( ١٨٥٨ - ١٩٢٤ ) . مؤلف موسيقي إيطالي ابن لعائلة من المؤلفين الموسيقيين الأوبراليين . شُجِعَ لدراسة الموسيقى في سِنِيّه المبكرة . ليحرز نجاحاً باهراً لكنه رغم افتقاره لمواهب وقدرات أسلافه مثل ڤيردي على سبيل المثال ، إلاّ أن عطاءه كان متمثلاً في الميلودراما والإثارة الرقيقة . ولقد تمثّل هذا في عمله « توسكا » و « لابوهيم » ، اللذين رسخا استمرارية شعبية أعماله الأخرى . ( G. A. E ) .

٦ . النسر والأفعى : شعار المكسيك المثبت على علمها . - المترجم - .

٧ . المعمودية : طقس مسيحي أرثوذكسي وكاثوليكي يتمثّل بغسل الطفل بالماء المقدّس وإعلانه مسيحياً منذ تلك اللحظة . - المترجم - .

٨ . اليعقوبي : من اليعاقبة ، جماعة سياسية متطرفة عُرِفَتْ بنشاطها الإرهابي خلال الثورة الفرنسية . ( المورد ) .

٩ . بينيتو خواريز Juárez , Benito ( ١٨٠٦ - ١٨٧٢ ) . أول رئيس مكسيكي من أصل هندي . لعب دوراً مهماً في الإطاحة بالدكتاتور سانتا أنّا وأصبح رئيساً للحكومة الليبرالية في ١٨٥٨ . كان لجهوده وإسهاماته في نقل السلطة للسكان الهجينين ( مزيج الهنود والإسبان - مستيزو ) ، بالإضافة إلى انتصاره على النظام المدعوم من الفرنسيين والمتمثّل في الإمبراطور ماكسميليان عام ١٨٦٧ ، الفضل في أن يتحوّل إلى بطل وطني لبلاده . كما يجدر بالذكر أن خواريز كان مناضلاً من أجل تأسيس وتكريس الديمقراطية قبل وخلال توليه للسلطة . ( G. A. E ) .

١٠ . Kane : منافس فرانكلين روزفلت في الإنتخابات على رئاسة الولايات المتحدة . - المترجم - .

١١، ١٢ . شخصيات عامة أميركية ، قد تكون من الوسط الفني الشعبي . ـ المترجم ـ.

١٣ . حكاية أسطورية للأطفال تصور أرضاً خيالية ساحرة . ـ المترجم ـ .

١٤ . Yorktown : كان حصار مدينة يورك تاون عام ١٧٨١ من قبل القوات الأميركية ـ الفرنسية المشتركة وضرب حاميتها البريطانية ، هي آخر معارك الإستقلال الأميركي . ( G. A. E ) .

١٥ . New Orleans : مدينة أميركية في لويزيانا انتقلت السيطرة عليها من الفرنسيين إلى الإسبان إلى الفرنسيين ثانية عام ١٨٠٣ ، ثم باعها نابوليون الأول للولايات المتحدة . شهدت « معركة نيو أورليانز » عام ١٨١٥ خلال حرب ١٨١٢ ، وتم حصارها خلال الحرب الأهلية بواسطة السفن الإتحادية حيث سقطت في ٢٥ نيسان / ابريل ١٨٦٢ .( G. A. E )

١٦ . Chapultepec : تلة جرت عندها المعركة الفاصلة بين الجيش الأميركي بقيادة جن . وينفيلد سكوت والجيش المكسيكي بقيادة سانتا أنّا ، في ١٢ ـ ١٣ أيلول /سبتمبر ١٨٤٧ ، والتي كانت نتيجتها هزيمة المكسيكيين ودخول القوات الأميركية للعاصمة مكسيكو سيتي .( G. A. E )

١٧ . Appamattox : بلدة أميركية في فيرجينيا شهدت عدة معارك بين الجيش الفدرالي والإتحادي، خلال الحرب الأهلية ، كان آخرها تلك التي وقعت في التاسع من نيسان / ابريل عام ١٨٦٥ والتي انتصر فيها الجيش الإتحادي منهياً بذلك الكونفدرالية والحرب الأهلية في آن . ( G. A. E )

١٨ . San Juan : عاصمة للكومنويلث بويرتو ريكو . أنشأ المستكشف الإسباني خوان بونسي دي ليون عام ١٥٠٨ محطة الإستقرار الأولى فيها : كابّارا . أُلحِقَت المدينة بالولايات المتحدة عام ١٨٩٨ خلال الحرب الإسبانية ـ الأميركية . ( G. A. E ) .

١٩ . Belleau Wood : منطقة حرجية في شمال فرنسا . شهدت معركة من معارك الحرب العالمية الأولى حيث استطاعت القوات الأميركية وقف الزحف الألماني بتاريخ ٦ ـ ٢٥ حزيران / يونيو عام ١٩١٨ . أُعيد تسميتها بـ ( بوا دي لوبريجادور مارين ) تكريماً للواء الثاني في البحرية الأميركية . وهنالك نصب تذكاري للأميركيين في الغابات . ( G. A. E ) .

٢٠ . Monterry Veracroz : مدينة مكسيكية تم احتلالها من قبل الجنرال الأميركي وينفلد سكوت خلال الحرب المكسيكية ـ الأميركية ( ١٨٤٦ ـ ١٨٤٧ ) ، بواسطة قواته البالغة ١٢ ألف رجل نقلو عبر البحر جنوب المدينة بنحو خمسة كيلومترات . بعد رسو القوات في ١٠ ـ ١١ آذار / مارس تم محاصرتها في ١٥ من الشهر نفسه ، ثم بدأت مدفعية السفن الأميركية بقصف المدينة قصفاً عنيفاً بتاريخ ٢٢ ـ ٢٣ ، مما أدّى إلى سقوطها في ٢٨ من ذاك الشهر . ( G. A. E )

٢١ . ميجويل هيدالجو - Hidalgo , Miguel ( ١٧٥٣ - ١٨١١ ) . رجل دين مكسيكي قاد حركة التحرر للعام ١٨١٠ ، التي نالت التأييد والمؤازرة العملية من خلال الفلاحين مما أوقع الهلع في صفوف الطبقات الإجتماعية الثرية المكسيكية ، ودفعها إلى مساندة السلطات الإسبانية لإحباطها والإجهاز عليها . يُعرَف هيدالجو « باب الإستقلال المكسيكي » ، وكان قد أعلن التمرّد على الإسبان منادياً بالإستقلال عبر ما سُمي بـ « صرخة دولوريس » بتاريخ ١٦ أيلول / سبتمبر ١٨١٠ ، وهو التاريخ الذي يحتفل به عادة على أنه يوم الإستقلال المكسيكي . هُزِمَت قوات هيدالجو عند جسر كالديرون بالقرب من غوادالاهارا في ١٧ كانون الثاني / يناير ، ففر صوب الشمال إلاّ أنهم قبضوا عليه في شهر آذار / مارس ، وحسب الموسوعة الأميركية ، فقد تمت محاكمته ونُفذ فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص في الثلاثين من الشهر ذاته . ( G. A. E )

٢٢ ، ٢٣ . الإشارة إلى أي مواطن غربي أبيض في أي منطقة تخصّه . - المترجم - .

٢٤ . من كالفن : أحد المجددين في المسيحية مثله مثل مارتن لوثر . - المترجم - .

٢٥ . Broch, Hermann : أنظر الهامش رقم ( ٣ ) ، ص ٤٨ .

٢٦ . أليكس دي توكويفيل Tocqueville , Alexis : ( ١٨٠٥ - ١٨٥٩ ) . سياسي فرنسي وكاتب معروف بدراسته عن الولايات المتحدة المعنونة بـ « الديمقراطية في أميركا » والتي طبعها في مجلّدين ، الأول عام ١٨٣٥ ، والثاني عام ١٨٤٠ . على الرغم من تحدر توكويفيل من أسرة أرستقراطية ، إلاّ أنه ، وبعد أن أُرسِلَ من قبل الحكومة الفرنسية لدراسة النظام الجزائي الأميركي ، فلقد أُعجِبَ بما رآه إنه الحرية الإنسانية هناك . كما ساعد على تأسيس النظرة الأوروبية الجديدة تجاه الولايات المتحدة على أنها أرض الفُرَص اللامحدودة ، والمساواة ، والإرادة السياسية . ورأى أن على الأرستقراطية الأوروبية أن تفسح المجال لنمو الديمقراطية والمساواة الإجتماعية . كل ذلك بوحي من دراسته لطبيعة ما عاينه في الولايات المتحدة . كتب توكويفيل كتاباً آخر هو « النظام القديم والثورة الفرنسية - ١٨٥٦ » . ( G. A. E ) .

٢٧ . تجمع الدراسات الآن على أن مستوى التعليم ومنهجيته في الولايات المتحدة باتا متراجعين ويفتقران إلى كثير من الأسس التي تؤهِل المواطن الأميركي لأن يكون في مستوى أحداث العالم . - المترجم - .

٢٨ . ممثلان أميركيان مشهوران في تلك الفترة . - المترجم - .

٢٩ . Astaire , Fred : ممثل وراقص أميركي ظهر مع الممثلة جينجر روجرز في فيلم سينمائي عام

١٩٣٤ هو « الطلاق المرح » . ثم ما لبث أن بدأ بسلسلة من الأدوار الموسيقية الصاخبة خلال الثلاثينات . نال تقديراً أكاديمياً عام ١٩٤٩ بسبب « رفعه لمستويات كل ما يتعلّق بالموسيقى » . (G. A. E)

٣٠. قد يكون اسم لشخصية فنية ـ راقص لم ينل نجاح أستير . ـ المترجم ـ .

٣١. Teotibuacán : تقع حالياً شمال مكسيكو سيتي ، وكانت تعتبر مركزاً حضارياً مهماً خلال الجزء المبكّر الالفي الأول بعد المسيح . تشتهر « بأهرام الشمس » الذي يعد واحداً من المراكز التجارية والدينية الأولى والمبكرة لمرحلة ما قبل اكتشاف كولومبوس للقارة في وسط المكسيك ، والذي يتصف بحجمه الهائل ومعماره المؤثر .(G. A. E) .

- Oaxaca : مركز حضاري مكسْيكي قديم وجبلي يقع في شمال المكسيك على طول امتداد المحيط الباسيفيكي . معظم سكانه من الهنود الزابوتيك والميكستيك . تم اكتشاف كميات ضخمة من الفضة والذهب في هذه المنطقة . غزاها الإسبان عام ١٥٢٢ . (G. A. E)

٣٢. سام هيوستون Housten , Sam ( ١٧٩٣ ـ ١٨٦٣ ) : شخصية سياسية وعسكرية أميركية . كان من أوائل الأميركيين الذين ذهبوا إلى تكساس إبان كونها تابعة للمكسيك عام ١٨٣٢ ، ثم ليستقر فيها عام ١٨٣٥ ، وأصبح قائداً عاماً للجيش الثوري في نفس السنة عندما انفجرت « ثورة تكساس » . وفي آذار / مارس ١٨٣٦ بات هيوستون من المنادين بجعل تكساس جمهورية مستقلة . تجددت زعامته ليقوم بعدها بقيادة جيش تكساس إلى نصر كبير ضد حاكم المكسيك سانتا انّا في معركة سان جاكينتو في ٢١ نيسان / ابريل ١٨٣٦ . أصبح هيوستون أول رئيس للجمهورية الجديدة من ١٨٣٦ حتى ١٨٣٨ ، ثم أعيد انتخابه من ١٨٤١ حتى ١٨٤٤ . وبعد إلحاقها بالولايات المتحدة عام ١٩٤٥ تم انتخابه نائباً عنها من ١٨٤٦ حتى ١٨٥٩ . انتهى عهده السياسي عام ١٨٦١ عندما لم ينتخبه الشعب . أُطلِقَ اسمه على مدينة هيوستون ، تكساس ، نظراً لتاريخه هذا . (G. A. E)

٣٣. هو الملك ميداس من فريجّا القديمة في آسيا الصغرى الذي ورد ذكره في الميثولوجيا اليونانية ، على أن كل ما يلمسه يتحوّل إلى ذهب . ـ المترجم ـ .

٣٤. الإشارة هنا إلى نجاح الولايات المتحدة في الإطاحة بنظام حكم سلفادور الليندي في تشيلي ، ممثل الجبهة الشعبية ، عن طريق الفوضى التي قامت بها نقابات النقل برشوة من المخابرات الأميركية ، والتي أدّت إلى تدخل الجيش وقصف القصر الجمهوري ومقتل الرئيس الليندي،

وسيادة دكتاتورية العسكر ، بقيادة بينوشيه ، المرتهنين للولايات المتحدة . ـ المترجم ـ .

٣٥ . ألجيرنون تشارلز سوينبرن Swinburne ( ١٨٣٧ ـ ١٩٠٩ ) : شاعر وناقد أدبي إنجليزي من العصر الفيكتوري . ـ المترجم ـ .

٣٦ . جون رُسكين Ruskin ( ١٨١٩ ـ ١٩٠٠ ) : واحد من أهم النقّاد المؤثرين خلال الفترة الفيكتورية . قام بدراسة استبارية للعلاقة بين القيم الجمالية والمجتمع في معظم كتاباته . بَوّأ في مجلداته العديدة « الفنانون الحديثون ١٨٤٦ ـ ١٨٦٠ » فَن الإنجليزي جي .ام . دبليو تيرنر ، كما أضاف دافعاً باتجاه الإحياء القوطي أواخر القرن التاسع عشر في كتابه « أحجار البندقية ١٨٥١ ـ ١٨٥٣ » . ( G. A. E ).

٣٧ . جورج كانينغ George Canning ( ١٧٧٠ ـ ١٨٢٧ ) : سياسي إنجليزي محافظ خدم مرتين كوزير للخارجية البريطانية . اشتهر بدعمه للحركات الإستقلاليه في المستعمرات التابعة للقوى التي كانت تزاحم بلاده سياسياً . عُيّن رئيساً للحكومة عام ١٨٢٧ بواسطة الملك جورج ، لكنه توفي بعد تسلمه لمنصبه بأربعة شهور . ( G. A. E )

٣٨ـ ١ ) كورتيز Cortás , Hernan : هو المستكشف الإسباني الذي غزا المكسيك واستعمرها ، وذلك بعد أن دمّر حضارة امبراطورية الأزتيك عام ١٥٢١ ببراعة سياسية واستراتيجية .

٢ ) بيزارو Pizarro , Francisco : هو الإسباني الغازي لشعب الأنكا في بيرو ، والذي دمر امبراطورية الأنكا الضعيفة ، وذلك عندما استولت قواته غير المعروفة العدد وحسنة التجهيز على كاجاماركا عام ١٥٣٣ . قام بيزارو بقتل قائد الأنكا أتاهوالبا . كما أن غزوته التي جلبت لإسبانيا الثراء والمستعمرات قامت بتزييف خضوع سكان البيرو الأصليين والتي أثّرت على المجتمع البيروي حتى اليوم . ( G. A. E )

٣ ) فالديفا Valdivia , Pedrode : مستكشف وغازي إسباني كان من رجال بيزارو في حملته على بيرو . انفصل عنه عام ١٥٤٠ برفقة مجموعة صغيرة من الجنود الإسبان وحوالي ألف هندي ليقيم مستعمرة في تشيلي . عاد إلى بيرو عام ١٥٤٧ لتتم مكافأته بتعيينه حاكماً لتشيلي في ١٥٤٩ . أثناء محاولته قمع انتفاضة الهنود الأوروكانيون عام ١٥٥٤ وقع في الأسر وعُذّب حتى الموت . ( G. A. E )

٣٩ . الإشارة هنا إلى منبت كل من خوان وايفا بيرون ، اللذين تتابعا على حكم الأرجنتين .

٤٠ . عنوان قصة لبورخيس تتحدّث عن كاتب مُتخَيَّل يعيد كتابة دون كيخوته من جديد من

الذاكرة ، وعندما يطابق بين نصه الذي كتبه ونَص سرفانتس يكتشف أنهما متطابقان تماماً . لكن الراوي يشير إلى أن الكتابين رغم تطابقهما حرفياً هما كتابان مختلفان . ـ المترجم ـ .

٤١ . ديسيديروس ايراسموس Erasmus , Desiderius ( ١٤٦٦ ـ ١٥٣٦ ) : عالم ألماني كان الضليع الأول في أدب الإغريق والرومان خلال عصر النهضة الأوروبية . إن أعماله الدّالة على معرفة واسعة وذات النزعة الإنسانية ممثّلة بـ « أقوال مأثورة ـ ١٥٠٠ » و « الوجيز حول الفارس المسيحي ـ ١٥٠٣ » قامت بالدفاع عن المحبة الإنسانية والإحسان والإعتدال . تبرز ترجماته العديدة أسلوباً أنيقاً وتأويلات حساسة . ( G. A. E )

٤٢ . رسالة بولس الرسول الأول إلى أهل كوروثنتوس . الإصحاح الثالث . عدد ١٨ . كما جاء في الكتاب المقدّس الترجمة العربية . ـ المترجم ـ .

٤٣ . الإشارة هنا تحيل إلى الكاتب الإنجليزي مالكولم لوري Malcolm Lowry ، الذي عاش تلك الفترة في المكسيك ، وكتب رواية شهيرة حوّلت إلى فيلم سينمائي هي « تحت البركان » . ـ المترجم ـ .

٤٤ . الجكرندة : شجرة أميركية استوائية . البوغنفيلية : نبات أميركي معترش . ( المورد ) .

٤٥ . بورفيريو دياث Diaz , Porfirio ( ١٨٣٨ ـ ١٩١٥ ) : كان قائداً عسكرياً ثم حاكماً دكتاتوراً للمكسيك منذ ١٨٧٦ حتى ١٩١١ . ترك دراسته للقانون عام ١٨٥٤ لينضم إلى الثورة التي أطاحت بنظام سانتا أنّا . كرّس نفسه ، بعد ذلك ، للحياة العسكرية وبرز في صفوف الجيش خلال حرب الإصلاح ( ١٨٥٨ ـ ١٨٦١ ) ، وأصبح جنرالاً عام ١٨٦١ . وفي نفس العام تم انتخابه نائباً فدرالياً عن ولاية أوكساكا . وخلال التدخّل الفرنسي ( ١٨٦١ ـ ١٨٦٧ ) حارب دياث مع القوات الجمهورية بقيادة بينيتو خواريز ليصبح فيما بعد قائداً للجيش ، وليلعب دوراً حساساً في النجاح النهائي للجيش الجمهوري ، والإطاحة بإمبراطورية ماكسميليان . ثار عام ١٨٧١ ضد الحكومة ليمنع إعادة انتخاب خواريز ، لكنه فشل في ذلك . ثار مرة أخرى عام ١٨٧٦ معارضاً خليفة خواريز ، سباستيان ليدرو دي تيجادا، ونجح هذه المرة ، وبذلك أصبح رئيساً للجمهورية عام ١٨٧٧ محتفظاً بالرئاسة حتى ١٩١١ ، فيما عدا الفترة ما بين ١٨٨٠ ـ ١٨٨٤ . كان دياث دكتاتوراً مغالياً في تسلطه . شجع النمو الإقتصادي لكنه تجاهل المشكلات الناجمة عنه . ولاهتمامه بالأثرياء المكسيكيين ورجال الأعمال الأجانب ، قامت حكومة دياث بالمساعدة على انتزاع الأراضي من أيدي جماعات الفلاحين الهنود ، كما حاول أن يكتم أنفاس

الحركة العمالية النامية . أعلن خلال عام ١٩٠٩ بأنه سيعيد الديمقراطية للبلاد ، لكنه عام ١٩١٠ تلاعب بالانتخابات مرة ثانية ، عازلاً المكسيكيين بكافة طبقاتهم الاجتماعية ، وكانت نتيجة ذلك الثورة التي قادها فرنسيسكو ماديرو التي أطاحت بحكم دياث عام ١٩١١ . توفي في منفاه في باريس عام ١٩١١ . (G. A. E)

٤٦ . مخرج سينمائي طليعي إسباني مشهور . ـ المترجم ـ .

٤٧ . نسبة إلى فاوست ، الشخصية المعروفة للألماني غوته ، التي أبرمت اتفاقاً مع الشيطان غايته أن تظل كما هي شابة لقاء بيعها لروحها . ـ المترجم ـ .

٤٨ . الشاعر الأميركي عزرا باوند ـ المترجم ـ .

٤٩ . من ملحمة الأوديسة ـ المترجم ـ .

٥٠ . التّدْرُج : طائر ذيّال شبيه بالحجل . ( المورد ) .

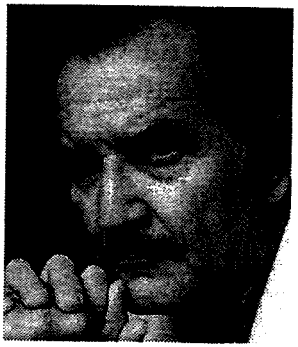

# 1 كارلوس فوينتس

أجرى الحوار : فرناندو اينسا

لا أُخفي حقيقة ان كارلوس فوينتس قد استوقفني لأكثر من سبب . غير أن ثمة ما يجعلني ، اختصاراً وعلى سبيل التقديم ، أُجمِلُ ذلك بتكثيفه في هاتين النقطتين :

الأولى : مغايرته في أسلوبه الروائي لما يمكن لي تسميته بـ « موضة ـ صرعة » روايات أميركا اللاتينية . هذه الموصوفة ( بالواقعية السحرية ) دون تدقيق بالمصطلح ، أو غوص حقيقي بتمثلاته عبر النصوص متعددة النماذج ، وللعديد من كُتّاب القارة .

فمن الجدير بالملاحظة ، ان القارة الواحدة بتشابهات ومشتركات بلدانها لا

يعني ، بالضرورة ، بروز سمات واحدة للنصوص المنتَجة من قِبَل كتّابها . ونحن، إذا قُمنا بارتكاب هذا الخطأ ، إنما نتعامى عن خصوصية كل كاتب ، ونُزيل تميّزه عن سواه من زملائه . لذا أجدني ، وفقاً لما سادَ من نعت كتابات القارة ، بأن مَن يطلق على جُملة تلك الكتابات بأنها تقع ضمن ( الواقعية السحرية ) ما هو إلاّ قليل الإطّلاع عليها ، وشديد التسرّع بتعميم الاحكام .. جرياً خلف صيغة ينبغي التثبّت منها .

وفي هذا السياق ، ومن خلال المقارنة ، يكون لكارلوس فوينتس جدارة التفرُّد ـ مع آخرين لم يُترجَموا إلى العربية بعد ـ بعيداً عن عموميات باتت تتطلّب الحذر والدراسة .

الثانية : إتصافه بعمق ثقافي بارز قَلَّ أن نجده في الكثيرين من الكتّاب أصحاب الصيت والشهرة . وليس أدلّ على هذا من المراجعة لكتاباته الواقعة خارج جنسيّ الرواية والقصة . فهو فنان ـ مفكّر ، مثلما هو مواطنه أوكتافيو باث . وبذلك ؛ فإنّ نصوصه الروائية تعكس تأملاً معرفياً ، بالقدر الذي تكشف فيه عن ريادة وابتكار أدبيين .

وأخيراً : يتضمن هذا الحوار من الطروحات ما تستدعي منا التوقف والمساءلة ، وذلك لما تشفُّ عنه من فَهمٍ لما بعد ثنائية الإستقطاب . قد نختلف معه في بعض التفصيلات ـ لا بد . لكن ثمة ما يستحق الموافقة ، وخاصة تلك الطارحة لحلول أوّلية ، لمشكلات تكاد تتطابق ، تجمع ما بين مجتمعاتنا العربية من جهة، ومجتمعات أميركا اللاتينية من جهة أخرى .

ـ المترجم ـ

الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتس هو أحد الرموز الرئيسية في الأدب المعاصر لأميركا اللاتينية . تمتزج ، في رواياته وقصصه القصيرة ، الأساطير قبل ـ الهسبانية بالتاريخ المعاصر ، وذلك لإيضاح الهوية المكسيكية وتحديدها .

يتعرّض فوينتس ، في واحدة من ثيمات عمله ، إلى العلاقة المركبة والمعقدة بين بلده وإسبانيا ـ تلك التي نشأت إثر التقاء العالم القديم بالعالم الجديد ( اكتشاف أميركا ) ، والتي يتم هذا العام الاحتفال بمرور ٥٠٠ سنة عليها .

## لسنا ضحايا التاريخ الأبديين

**□ أجريتَ ، في مقالة نُشرت عام ١٩٨٢ ، تأمُلاً عمّا إذا كان بمقدور أوروبا وأميركا اللاتينية توحيد جهودهما للخلاص من السيطرة الدولية المزدوجة ، والتي شطرت ، في ذلك الحين ، العالَم إلى قسمين . كان سؤالاً عن اجتراح عالمٍ « متعدد الأقطاب » حيث لا أحد يكون تابعاً لأي أحد ، وحيث بإمكان كل واحد منا أن يسهم في صياغة روح نظام متعدد الثقافات ، ومتنوّع الأشكال ، ومتحضّر .**

ـ خلال الخمسينات ، وبينما كُنا طُلاباً ، شعر أبناء جيلي بأننا إنما نعيش في مصيدة ، بغير ذي جدوى ، وبالعقم ؛ محاصَرون بين كتلتين ، بين قوتين عُظميين ، بين أيديولوجيتين كُليتين تبادليتين . كانت كل واحدة منهما تطالب بولاءٍ كامل ، وتضحيّ بالاختلاف والتعددية لكافة تلك البلدان والثقافات التي رفضت إجراء خيارٍ غير متكافئ بين الشيوعية والرأسمالية ، بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة .

لم تكن الحرب الباردة أمراً سهلاً في أميركا اللاتينية . فباسم الأيديولوجيات المتضاربة ، وحيال مواقف القوتين ، تم تضييع عدة فُرَص سياسية وثقافية . كان التجلي المرئي الأوّل للحرب الباردة في أميركا اللاتينية هو التدخل الأجنبي في غواتيمالا عام ١٩٥٤ . إنك لتتذكر بأنه كان لغواتيمالا حكومتين تم انتخابهما بديمقراطية ناجحة ـ حكومة أريفالو وحكومة آربنز . لقد تم الإجهاز على تلك التجربة بفظاظة ، لتتبعها ثلاثون سنة من الإبادة الجماعية ، والقمع ، وازدراء الديمقراطية . عانت عدة بلدان أخرى من مآسٍ مماثلة ، هذا إذا لم نُشِرْ إلى تلك التي كانت تخضع لأنواع شتى من الضغوطات ، أو البلدان التي حظيت أنظمتها الدكتاتورية بالدعم.

لم تترك الحرب الباردة أميركا اللاتينية في حالة من الفوضى السياسية الرهيبة وحسب ، وإنما شملت في ذلك أفريقيا وآسيا ، مثلما شملت ، أيضاً ، الحياة الثقافية بما هو أسوأ من الفوضى . لم يُمنَح العالم الثالث الفرصة لأن يكون صوته مسموعاً ، أو ليسهم في بناء عالم أكثر غِنى من ذاك الخاص بالاختيار بين « إما أو » موسكو وواشنطن .

هذا هو السبب في أن بزوغ « تعددية الأقطاب » ـ التي بحث عنها العديد من المكسيكيين من أبناء جيلي طوال أربعين عاماً تقريباً ـ كانت مبعثاً للابتهاج ، حتى وإنْ كان ابتهاجنا صامتاً . لقد شهدنا للتو انهيار نظريات سياسية ونُظم اقتصادية ما كان لها النفع الكبير في معالجة مشكلاتنا ، لكننا في غاية القلق من أن الانتقال من ثنائية الاستقطاب إلى تعدديته لن يكون أمراً هيّناً . فبعد حيوية سقوط جدار برلين ودكتاتوريات أوروبا الشرقية الشيوعية الصارمة ، بدأنا ندرك نسبة الأخطار التي تهددنا والعوائق المغلقة للممر العابر من ثنائية الإستقطاب إلى تعدديته .

**□ ألسنا نشهد الآن انبعاثاً للقومية الإثنية ولتوكيد هوية الذات للأقليات أكثر مما هو بزوغ لعالم متعدد الأقطاب ؟ .**

ـ لم أتوقع على الإطلاق أن تكون ولادة عالم متعدد الأقطاب أمراً ليس صعباً . لقد كان من العسير دائماً فرض التنوع الثقافي كقيمة قادرة على إبراز حقائق سياسية جديدة وإيجادها . ففي الأساس ، نحن جميعاً نندفع فوق الصفحات البيضاء للقرن الواحد والعشرين متسائلين بخوف فيما إذا ثمة حقاً قرن عشرين أم إطالة غير طبيعية للقرن التاسع عشر ، بنزاعاته الأيديولوجية ، ونزوعاته القومية المتضخمة ، وأوهامه عن التقدّم .

لقد آمَن القرن العشرون بوعد التكامل الإنساني عبر التقدّم وعبر الحرية الأكيدة، بما فيها حرية فعل الشَر . كان قرن تنوير علمي وإظلام سياسي ، قرن السلطة الكونية للتكنولوجيا . . لكنه ، كذلك ، قرن العنف والأزمات الأيديولوجية .

**□ أكانت تلك أزمات أيديولوجية أم بداية إدراك مُعيَّن للدولة ؟ .**

-إنَّ مفهوم الدولة القومية ، بحسب ما أرى ، والذي سيطر على عالم السياسة منذ ١٩١٧ ، قد تعرضَ للمساءلة على نَحوٍ جَديّ . لقد امتلكنا ، في أميركا اللاتينية، الميزة الهائلة في أن الأمة والثقافة يشكلان وجهيَ العملة . هذه الميزة البعيدة عن الحالات الكائنة في الاتحاد السوفياتي ، وفي كندا ، وفي ايرلندا أو حتى في فرنسا وإسبانيا ، حيث توجد مزاوجة ما غير ملائمة بين فكرة الأمة وتعبيرها الثقافي .

في أميركا ، تعلمنا كيف نبدع « تعددية ثقافية » في كل دولة . مجتمع متعدد الأجناس ربما لديه مشاكله الخاصة ، لكنه لا يستدعي سؤال التعايش السلمي لثقافات عدة ضمن الأمة الواحدة . لقد تأسست أُممنا الأميركية وفق مزيج من الأجناس، كما استوت تلك الأمم على قاعدة الدمج لا الإقصاء . كان الفشل من نصيبنا كلما تعرّضنا لامتحان ممارسة الإقصاء ، وفي كل مرة خُضنا فيها تجربة الدمج كنا المكتسبين للغنى الأوفر . هذا هو المنطق الجوهري لخبرتنا الثقافية والتي كانت ، منذ القرن السادس عشر ، واحدة من التفتحات باتجاه تأثيرات ظاهرة .

تتأتى طاقتنا على الدمج من جذورنا الآيبيرية ، من شبه الجزيرة تلك حيث تم التعايش السلمي بين ثقافات المسيحية ، والإسلام ، واليهودية ، والتي خَبِرَت كثيراً من الغزوات والفتوحات . إنه لتوافق ملحوظ أن عام ١٤٩٢ بالذات ، الذي بهتت فيه الصورة التاريخية لإسبانيا كأمة مُضيفة وذلك بإقصائها لليهود وإخضاعها لمملكة غرناطة ، كان هو عام اكتشاف أميركا . ففي ١٢ تشرين أول / أكتوبر ١٤٩٢ حدث أوّل إتصال بالحضارات قبل الكولومبية ، مما أدّى إلى تفتح الإمكانيات لتمازج جديد ولِغنى غير متوقَع .

إنني أؤمن ، دون الرغبة في التقليل من شأن الجرائم التي ارتكبَت بحق السكان المحليين ، أن الأمر الذي سادَ في النهاية كان النزوع إلى امتزاج للأجناس واندماج للثقافات ، إلى درجة باتت فيها الآن كل من الأمة والثقافة شيء واحد وهو ذاته معززاً للطرف المقابل على نحو تبادلي .

لقد نجحنا في أميركا اللاتينية ، إثر جُهدٍ صياغي ، في إيجاد وابتكار عالم تكون فيه القيم ، بعيداً عن خنقها بالتصادم بين المتناقضات ، قد أُعطيت حياة جديدة عبر اتصال حي واندماج للواقع متعدد الثقافات . لا يمكن للقيم أن تنفصل عن

المضمون الاجتماعي الذي أنشأها . إنَّ إحترام تلك القيم وبلوغها بالمعرفة والقبول بها إنما يتضمن ، في الآن نفسه ، احتراماً ومعرفة وقبولاً لما هو « مُغاير » ، لما هو مغاير حتى وإنْ أظهرَ رفضاً لنا . هؤلاء « الآخرون » ، هؤلاء الرافضون لنا قاموا بإثرائنا وصياغتنا من خلال عدم تمكيننا من تقبُّل ما هو ليس « نحن » . إنَّ صياغة الواحد بواسطة الآخر، وتحوّل ذواتنا المستقلة ( الفردية ) عبر الإتصال بكل ما هو غريب ومختلف ، لهو جزء من التحدّي الحاصل والحاضر بواسطة تعددية الأقطاب ، وعالمَ الإثنية المختلطة، وذلك باتجاه ما نحن مقدمون عليه لا محالة .

□ **ولكن ، ألم تشكّل ثنائية الإستقطاب صيغة حماية لكثير من بلدان العالم الثالث ، وضعاً مكّنهم من إحراز حضور فوق مسرح العالم وحماية أنفسهم من إحدى القوتين العظميين باللجوء إلى دعم القوة الأخرى ؟. اليوم ، وخاصة في أميركا اللاتينية ، يبدو أن ثمّة إحساس بالارتباك جَرّاء التخلي والإعتماد على المصادر الذاتية ، مع أن البعض يرى الجانب الإيجابي في المسائل وأسعده أن العالم الثالث استطاع أخيراً تحمّل مسؤوليته تجاه مشكلاته والسعي لحلها .**

ـ هذا صحيح ، غير أنه لا ينطبق على العالم الثالث فقط ؛ إذ بالإمكان إطلاقه على الإتحاد السوفياتي ، على سبيل المثال ، وحتى على الولايات المتحدة ، اللذان وجدا أنفسهما مجبران على النظر باهتمام أكبر إلى مشاكلهما الداخلية بدلاً من العمل على استراتيجيات كونية من أجل الآخرين .

أما فيما يخصنا ، نحن الأميركيون اللاتينيون ، فينبغي أن نرتب بيتنا من جديد ، أو ، كما نقول ، « أن نحكّ جلدنا بأظافرنا » . نحن وحدنا الذين بإمكاننا حل مشاكلنا . ينبغي أن نتوقف عن جلد أنفسنا وصياغة أنفسنا على أننا ضحايا التاريخ الأبديين . أنا شخصياً لا أملك الشعور بأنني ضحية . إنني أؤمن بأننا قادرون ، باستقلالية كاملة ، على توكيد خصوصيتنا في الميدانين السياسي والإقتصادي تماماً مثلما أنجزنا ذلك في المسائل الثقافية .

لستُ مستخفاً أبداً بالمشكلات المتعلّقة بالأرصدة المالية ، والتجارة الأجنبية والديون ، لكن يبدو لي أن ثمة سلسلة كاملة من المشكلات الأساسية لها صلة

بالزراعة ، وتوفير الغذاء والتعليم ، بإمكاننا أن نحلها بأنفسنا . إنَّ البلد العاجز عن إطعام وتعليم نفسه من خلال مصادره الذاتية لا يملك شرط تحقيق النقلة الكبيرة إلى الأمام ، والتي نتوقعها في القرن الواحد والعشرين . الأمر الأساس يتمثّل في تعليم شعبنا ، والأهم من كل شيء ، أن نطعمه .

كنا ضحايا لسوء فهم هائل . أعتقدنا بأن صناعات القرن التاسع عشر بمعاملها ومجموعة مداخنها هي علامة على الإزدهار والممر المؤدي إلى التقدّم . كل هذا تحوّل إلى شيء أثري بظهور الأتمتة ، والتقنية العالية ، والاقتصاد الخدماتي ، بينما ما نزال ، على الأقل في بعض البلدان ، نحاول أن نبني تجمعات صناعية ضخمة تقذف الأدخنة والسِناج .

علينا أن نبدأ بمعالجة المشكلات المحلية ـ بناء أوّل مدرسة ، أوّل مستشفى ، أوّل طريق ـ وأن نشرع بهذا على نحو متواضع ، وبصبر ، خطوة خطوة .

لا يمكننا مواصلة خِداع أنفسنا ، والقول بأن الحلول سوف تجيء من الخارج . إذا ما فعلنا هذا سنفشل مثلما حدث عند نهاية القرن التاسع عشر ، عندما اخترنا حلاً ليبرالياً تأسسَ على التجارة الخارجية بوجهٍ خاص . ثم كانت النتيجة أن الأقلية أثرَت دون أن تطال الأغلبية أي فائدة . ثمة جهود ديمقراطية هنا وهناك ، من قِبَل سياسيين أصحاب تفكير واضح ، مثل خوزيه باتل أوردينيز في الأورغواي ، ولازارو كارديناس في المكسيك ، ساعدت على تنقية الإقتصاد وتحقيق توزيع معقول للثروة . لكن الهوة الفاصلة بين الغَني والفقير ، في كل مكان آخر تقريباً ، ازدادت إتساعاً . علينا أن لا نقع ثانية في الحلقة المفرغة لأخطاء الماضي ؛ وهذا ما سيحدث إذا لم نعالج جذر مشكلاتنا الداخلية .

**□ هل تعتقد بأن المباشرة في عملية التخفيف من التناقضات والتنافرات في أميركا اللاتينية قد انطلقت في مسارها أخيراً ؟ .**

ـ نحن نشهد تغيّراً جذرياً في بُنيات مجتمعاتنا . لقد ورثنا بُنيات مركزية عادت في بعض الحالات إلى مرحلة الإمبراطوريات ما قبل الكولومبية ، نجت من الفتح والإخضاع ودامت حتى مرحلة الجمهوريات . أرى اليوم ، على أي حال ، تطوراً باتجاه

حركة طالعة من عشب الجذور وهوامش المجتمع ، تتخطى البنيات والمؤسسات الرأسية للماضي ـ الكنيسة ، الدولة ، والجيش . بكلمات أخرى ، المجتمع المدني يتهيأ لاستلام زمام تاريخنا وزمام المجتمع المدني بشكل شامل . هذا هو الذي يبدع الثقافة ويُيسر شيوعها . الثقافة هي الأقوى ، والأكثر قيمة ، والأشد متانة ضمن كافة ممتلكاتنا . هي الأفضل في مقاومة الأزمات ، كما أنها التي بقيت متعافية دون مساس عبر الأزمات الحالية .

بهذا المعنى فإن الثقافة ، كاستجابة لمشكلات الحياة ، حَية وقوية في أميركا اللاتينية ، من المكسيك حتى تيرّا ديل فويغو . أعني بالثقافة طريقة حياة ، وتفكير ، وحلم ، وصراع ، وحب ، وغناء ، ولبس ، وتأثيث وتزيين البيت ، والتذكر . كل هذا حَي للغاية ويمتلك ، في رأيي ، دوراً إيجابياً ليلعبه في بيئة العالم التعددي الاستقطاب حيث سنحيا فيه من الآن فصاعداً .

**□ ألم تعد تخشى ، بينما ترحّب بحلول عالم متعدد الاستقطاب ، من «بلقنة» أميركا اللاتينية ؟ .**

ـ لدى أُمم قارتنا منطقها الذاتي واستمراريتها الثقافية . وكما ذكرت من قبل ، فإنَّ الأُمة والثقافة يتكاملان كوجهي العملة عندنا ، حتى في تلك البلدان بتنوعها الإثني كالمكسيك ، على سبيل المثال . ومردّ هذا يعود إلى أن ثقافاتها نجحت في دمج إسهاماتها المحلية في بوتقة تكامُل ، أو ، كما الوضع في كوبا ، في كونه عالَماً أسود . هذه التعددية الثقافية ، والتي تتمثّل في المكسيك مثلما تتمثّل في الإكوادور أو فنزويلا ، إنما تعني أن ثمة خطراً ضئيلاً في انفجارات انفصالية داخلية كالتي نشهدها في الاتحاد السوفياتي ، وتشيكوسلوفاكيا ، أو يوغسلافيا . أنا لا أعتقد بإمكانية التحدّث عن « البلقنة » ضمن وضعنا . إنها ليست مشكلة أميركية لاتينية .

إنَّ صيغة « البلقنة » لدينا تنتمي إلى نوع مختلف . إنها تتحرّك عندما يكون السؤال قد تعدّى مفهوم الأُمة صوب خلق تجمعات إقليمية فوق ـ وطنية . هذه منطقة فشلنا فيها .

نحن لم نمتلك المخيلة ولا الإرادة السياسية لتحويل روابطنا الثقافية المشتركة إلى

وحدة سياسية . فالتناقض بين الوحدة الثقافية من جهة ، والمصير السياسي والاقتصادي لأميركا اللاتينية من جهة أخرى لهو أمر مقلق ، ذلك لأنه يمثّل فشلاً ، وعقماً . لم نستطع بناء وحدة بسبب من أننا طالما بحثنا عن / أو فرضنا نماذج تنموية لا تمت بصلة إلى حقائق ثقافتنا .

المفتقَر إليه هي الإرادة لتجسير الهوة بين تماسكنا الثقافي القاري وصيغة ما لوحدة سياسية وتعاون اقتصادي ، وهذا لغاية تجلية صلاتنا الثقافية الغنية وتحويلها إلى وحدة سياسية واقتصادية متساوية ومثمرة .

عليك أن تتذكّر ما قاله خوزيه مارتي : « إنَّ البلد الذي يتعامل مع بلدٍ واحدٍ فقط إنما يتجه صوب العبودية » . علينا أن نباشر بإقامة الصلات مع الجميع ـ مع الولايات المتحدة ، والمجموعة الأوروبية ، وبلدان الباسيفيك ومع بلداننا . علينا أن نطور مناطق تجارية حرّة موحّدة ، كما فعلت الأرجنتين والأرغواي مع مركوزور . كما يوجد أيضاً **ميثاق الأنديان** النشط ، أُولى الخطوات باتجاه سوق مشتركة تصل ما بين الولايات المتحدة ، وكندا ، والمكسيك ، بالإضافة إلى محاولات بلدان أميركا الوسطى لاجتراح وحدة . ثمة فُرَص عظيمة للعمل تتوفر في المجالين داخل وخارج المنطقة ، وللتهيؤ من أجل جُملة انفتاحات على بعضنا بعضاً وعلى العالم .

□ **عند الرجوع إلى عملك ككاتب ، نجد أن قصصك انطبعت بقوة بأساطير التاريخ المكسيكي . أليس من المحتمل أن تَحوّل هذه الأساطير التي منحت البلد هويتها ، بسبب من ثقلها الثقافي ، دون سلوك طريق التقدّم المرغوب به ، وأن تعرّض للخطر التغيّرات الواجب على المجتمع إنجازها حتماً ؟ .**

ـ نادراً ما تشكّل الأساطير عوائق أمام التطور ، فعند لحظة تحوّلها إلى ثقافة تكون قد باتت عناصر مثالية في المهمة الجوهرية لتوظيف الماضي . هذه وظيفة الروائي مثلما هي وظيفة المؤرخ أن يصنع منها بناءاً صحيحاً . يأخذ الروائي على عاتقه أن يوظف وبعمق عالَماً ينبغي إحياءه من جديد ، إذ أن المستقبل لا يتحقق إلاّ بتحقق الماضي .

الأساطير الحَقة هي أشياء حَية تستنبط بعضها بعضاً ، وتتناقض مع بعضها ، وتثير واحدتها الأخرى . هي دينامية متحرّكة أكثر من كونها جامدة ، إنها تستحث

بعضها ، كما أن تناقضاتها إنما تعكس تناقضات العالم الحقيقي .

كان هدفي دائماً يتمثّل في استحضار الأساطير ما قبل ـ الكولومبية في حالة مجابهة مع حقائق المكسيك المعاصرة . فالماضي حَي ، وهو ماثل ومحيط بنا . ليس صدفة أن بقايا معبد الأزتيك العظيم قد عُثِرَ عليها في الوسط ما بين هذين الأثرين الباقيين لمدينة المكسيك ، الكاثدرائية والقصر الرئاسي . ثمة ثقافة كاملة ، ثمة طريقة حياة كاملة حاضرة هناك كما في آثار الدم المُضحّى به أيضاً .

ليس باستطاعة أحد أن يفهم المكسيك دون معرفة شيء عن ماضيها . إنَّ هذا ، بلا شك ، يصحّ على البلدان الأخرى . ففي غياب الأساطير ، فإنَّ بلداً كالأرجنتين ، حيث كان لثقافاتها المحليّة تأثيراً طفيفاً ، استطاعوا أن يجدوا أساليب كيما يجترحوا الأساطير لأنفسهم . إنَّ اقتراح صيغة للتفكير جدلية ومفتوحة ، في هذه المنطقة ، لأمرٌ ضروري .

من الجلي أن فراغ الماضي يجب أن يُعبأ . علينا أن نعبيء الفجوات ، الثغرات الغائرة في تاريخٍ لم يُقَلْ عنه ، أن نتمثلها وأن نمتلكها . فالناس ، في أميركا اللاتينية ، كثيراً ما بحثوا ليعبؤوا تلك الثغرات بأحلام يوتوبية . ففي عمل كهذا ، فإنهم يلوذون بالتخيّل ليجترحوا الماضي ، وذلك من أجل تعاطي الحاضر والمستقبل على نحو أفضل . وكما عبّر عنها مرة المدير العام لليونسكو ، فيدريكو مايور : « علينا أن نقدر على تخيّل الماضي إذا قُيض لنا أن نكون قادرين على امتلاك تصوّر واضح للمستقبل . » .

□ **سوف نحتفل هذا العام ، ١٩٩٢ ، بمرور خمسمائة سنة على إلتقاء عالَمين.**

ـ لن تكون هذه مسألة احتفال ، وإنما مناسبة للتفكير التأملي العميق ، وعلينا أن نحاذر السقوط في النقد المفرط أو الغلو الذي يلخّص بتعجُل الدرس الذي يمكن أن تقودنا إليه هذه المناسبة . ينبغي ألاّ يُرى الماضي على أنه إما سلسلة من الجرائم أو فردوس مفقود. من المستحسن أن ندرك بأننا وكل ما حققناه خلال الـ ٥٠٠ سنة الماضية هو خلاصة تلك المواجهة القاسية والمؤلمة . كان هنالك تصادماً لثقافات ، غير أن كارثة الفتح منحتنا الولادة نحن الأميرهنديون . لقد قمنا معاً ، بمعنى ما ، بصياغة الثقافة التي توحّدنا الآن .

نحن نِتاج التمازج واللغة الإسبانية التي يتكلّمها معظمنا . جئنا من ثقافة كاثوليكية ، ولكن مُلقَحين بتوفيقٍ ديني ، أغنياء بعناصر هندية وأفريقية لا يمكن فهمها بمعزل عن أقنعتها الفطرية ، والسوداء فيما بعد . وكما صاغها الشاعر المكسيكي رامون لوبيز ڤيلاردي : « نحن نحمل وجه الأوَربة الغربية ، لكنها مشوبة بمسحة المور والأزتيك » ، وأضيف أنا : واليهودية والأفريقية ، الرومانية والإغريقية .

إنَّ ثقافة أميركا اللاتينية لم تندثر كما أنها لم تنتصر أيضاً . دعنا نقول بأنها نَجت لتصير جزءاً متمماً لما دعاه خوزيه ليثاما ليما « الفتحُ المُضاد » ـ الإستجابة الهندية والإفريقية للسيطرة الأوروبية على أميركا . الصفاء العنصري للفاتحين لم يعد قائماً بعد أوّل ليلة حب بين إسباني وامرأة هندية . إنه هذا الإتصال الحميم بين الرجال والنساء الذي يميّز الفتح الآيبيري عن سواه من الأنظمة الاستعمارية التي لم تختبر الإمتزاج الإثني .

ذلكم هو الأمر الدافع إلى عدم وجود المبرر لإغلاق تحديقتنا على النكبة الأولى للاكتشاف والفتح ، كما يريد بعض المؤرخين منا أن نفعل . بدلاً من ذلك ، علينا أن نطرح أسئلة حول هويتنا ، حول مَن نحن ، وأن نحاول الخروج بالإجابات .

لا يمكننا إدارة ظهورنا عن الثقافة التي قمنا بصياغتها عبر ٥٠٠ سنة دون أن يعني هذا تخلينا عن كل النشاط الثقافي للـ ٥٠٠ سنة القادمة . لهذا السبب أعتقد بأن ١٩٩٢ يجب ألاّ يكون عاماً للاحتفال بقدر ما هو فرصة للتأمل في ما يمكن لنا تحقيقه ، ليكون بمقدورنا التقدّم إلى الأمام وليس الإنصات للأصوات المغوية لكل ما هو متطرف .

□ **سؤال أخير : ماذا سيحدث بعد ١٩٩٢ ؟.**

ـ سوف تتبدى في السنوات القادمة مشكلات عظيمة ، سيكون بعضها على مستوى الكوكب ( إني أفكّر بالبيئة ) ، وبعضها الآخر سيتفرع عن تصادم الثقافات غير المتآلفة وعن مَدّ الهجرة ( عن القوى العاملة ، عن الشعوب ) من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب . إني أمنح التحديات بين الأمم اهتماماً أقل من اهتمامي بالمشكلات الثقافية المنبثقة عن التخوّف مما يبدو « أجنبياً » .

إنني أؤمن بأن الألف سنة القادمة سوف تثبت ضرورة وجود اليونسكو وبقية المنظمات الثقافية العالمية . فبوجودها ومعها يمكن لألغاز المعرفة العظيمة أن تجد حلولها. هل سيأتي يوم نتعلّم فيه كيف نوفّق بين العلم ، والسياسة ، والقيم الأخلاقية، وأن نحقق هذا دون مثالية مبالغة أو اللجوء إلى عُنف إجرامي ؟ . هل سيكون بإمكاننا كسر حلقة الوهم المفرغَة ، واستبدالها بنظرة إنسانية أكثر شمولاً ، نظرة أُخاطِر بتسميتها « رؤيا المأساة » ؟ .

من النادر أن تتوافق السعادة مع التاريخ . ينبغي أن نكون قلقين ، ولكن ألاّ نكف عن القتال كلنا معاً . علينا أن ندافع وأن نرعى الحياة والقيم التي تجعلها جديرة وذات شأن ـ الفن و الحب ، التضامن والثقافة . إنَّ عدم معرفتنا بإمكانية نجاحنا ليس سبباً لعدم محاولتنا .

***The Unesco Courier*** عن

***January 1992***

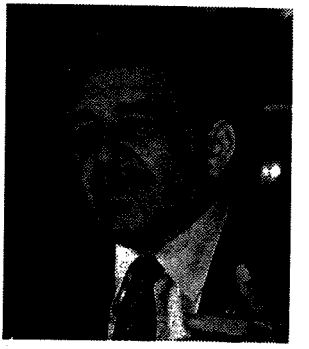

# 2 غابرييل غارسيا ماركيز

أجرى الحوار : مانويل أورسوريو

عديدة هي الحوارات التي أُجريت مع غابرييل غارسيا ماركيز . وعديدة ، أيضاً، تلك التي تُرجِمَت إلى العربية ، ونُشِرَت في دوريات شتى . ناهيك عن توفّر جُملة حوارات كانت بمثابة « مشاريع استكشافية » للتعرف على ( فكر) هذا الكاتب الكولومبي ، والذي يمكن اعتباره ( شخصية العالم الأدبية ) خلال السنوات العشرا لماضية . وأبرز هذه الحوارات / المشاريع المعروفة لدينا ، والمنشورة في كتب مستقلة ، أشير إلى :

١ . « عزلة غابرييل غارسيا ماركيز » لميغيل فرنانديز-براسو . ترجمة ناديا ظافر شعبان ، دار الكلمة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢ـ « رائحة الجوافة » لبيلينو أبوليو مندوزا . ترجمة فكري بكر محمود ، دار منارات للنشر ، عمّان ، ١٩٨٩ .

.. ورغم أهمية ما تضمنته حوارات هذين الكتابين ، إلاّ أن نظرة ماركيز إلى أميركا اللاتينية وظروفها بالمقابل من وضعية العالم ، وخاصة عبر المستجدات التي حدثت على خريطته السياسية وتغيّرات القوى فيه ، توحي إلى أن جديداً قد تم استنطاقه وإظهاره من ماركيز ، عبر هذا الحوار .

هذه نقطة . أما النقطة الأخرى : فهي أني حين انتقيت هذا الحوار بالتحديد ، فإنّ الدافع لديّ تمحوّر في البعد الآخر للكاتب المبدع ( أي كاتب وأي مبدع )، ألا وهو : كيف يرى إلى العالم ، والمحيط ، والذات ، والصراعات ، لا في النص ذاته .. بل في القول المباشر والصريح .

ليس من أديب صاحب عمل ناجح ومقنع بغير ثقافة أوسع من أدبية خالصة . كما ليس من عُمق في النَصّ الأدبي بغير تأمل واستبصار لمتغيرات العالم ، وتحديد لموقف صاحب النص مما يجري ، وبالتالي تحديد لموقعه .

هذا ما كنت أتوخّى الإمساك به عند انتقائي لهذا الحوار . وكذلك عندما انتقيت حوارات أخرى مع كتّاب آخرين ، كان من بينهم المكسيكي كارلوس فوينتس على سبيل المثال . .. فلنر ماذا يقول ماركيز .

ـ المترجم ـ

ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٩ ، في قرية أراكاتاكا الكولومبية ، وترك بصمته كأستاذ في الرواية الحديثة بنشره « مائة عام من العزلة » عام ١٩٦٧ . ثم ترسخت سمعته بنيله جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٢ .

يتحدّث ماركيز ، في هذا الحوار ، عن رؤيته الشخصية لأميركا اللاتينية ، مستحضراً بعضاً من الموضوعات الأساسية لأعماله، والتي تمتزج فيها عناصر الخيال المذهلة مع الواقع شديد العادية ، لتمنح الحياة اليومية بُعداً أسطورياً وكونياً .

من أعمال ماركيز : « ليس لدى الكولونيل من يكاتبه » ، ١٩٦٨ ، و « خريف البطريرك » ، ١٩٧٦ ، و « قصة موت معلَن » ١٩٨٣ ، و « الحب في زمن الكوليرا » .

## انا كاتب واقعي .. خالص وبسيط !

□ **إجتمعت في أميركا اللاتينية عدة ثقافات لتبدع شيئاً جديداً وغنياً . هل يشعر الأميركيون اللاتينيون بالقلق جرّاء هذا الامتزاج ؟.**

فلأتحدّث عن نفسي . أنا لم أشعر بالقلق بسبب هذا إلاّ قبل سنوات قليلة . ومع ذلك فإنّ تجربتي ككاتب ، واحتكاكي المستمر بمجتمعات متباينة وأنظمة سياسية، زادت من تفهمي لسمات أخرى في ثقافة أميركا اللاتينية .

لاحظتُ ، عندما كنت أتنقّل في أفريقيا ، تشابهات بين بعض صيغ الفن الشعبي هناك وتلك الموجودة في بلدان الكاريبي المختلفة . لقد منحتني هذه الملاحظة تفهماً أوضح لوضعنا الثقافي كما للعلاقة القائمة بين العناصر الكائنة في ثقافات متباينة بوجه عام .

يمكنك ، عبر تبصرات كهذه ، أن تكتشف كُلاً من الخاص وما هو عالمي في أية ثقافة . ثمة شبكة كاملة من الروابط بين الشعوب ، والتي لا تستدعي القلق بالضرورة.

□ **أليست هذه هي نقطة البداية لرواياتك ؟ أليست هي الموضوعة الرئيسة؟.**

لم أكن في الحقيقة واعياً لتعدد الثقافات ، كعامل مؤثر ، عندما كنت أكتب رواياتي . لقد جاءتني بتلقائيتها . ثم لاحظت، فيما بعد ، وبغير تقصّد تقريباً ، بأن ثمة عناصر من هذا المزيج الثقافي في عملي . عناصر إنسلّت فيه بالتدريج خلال الكتابة .

هنالك مؤثرات متعددة امتزجت في أميركا اللاتينية وانتشرت عبر القارة :

الثقافة الغربية ، والحضور الأفريقي ، وحتى بعض ا لعناصر الشرقية ؛ لقد أضيف ذلك كله إلى المعتقدات الأصلية ، القبل ـ كولومبية . لذلك ، فإنني لا أعتقد أن بإمكانك التحدّث عن ثقافة مكسيكية أو كولومبية خالصة . كما أنني ، على الصعيد الشخصي ، لم أعد أعتبر نفسي كولومبياً ؛ إنني بداية وفي المقام الأوّل أميركيّ لاتينيّ، وأنني فخور بذلك .

علي أن أضيف مشيراً إلى خطأ الإعتقاد بأن تاريخ أميركا اللاتينية يبدأ من الفتح الإسباني . هذه وجهة نظر استعمارية . ينبغي ألاّ ننسى بأن الأمم التي صاغتها النيابات الإسبانية كانت النِتاج لقرارات استبدادية صدرت من الخارج ، وليست من حاجاتنا الخاصة .

ولكي نفهم مشكلاتنا الحالية ، علينا أن نعود إلى فترة ما قبل الفتح . إنَّ الحدود التي رُسِمَت بين بلدان أميركا اللاتينية ما كانت لتوجد إلاّ للتلاعب بنا . وستبقى هكذا جاهزة كلما اقتضت الحاجة إليها ، وكلما تصاعدت صيحة الوعي القومي . إنّ هذا لا يؤدي بنا، بالتأكيد ، إلاّ إلى الوقوف ضد بعضنا بعضاً ، كما ويمنعنا من رؤية وتحسس المشكلات التي نشترك بالمعاناة منها . لكل بلد ظروفه وأوضاعه الخاصة ؛ لكن الأمر المهم ، حقيقة ، إنما يتمثّل في هويتنا الأساسية المشتركة .

□ **إذن ، هل هنالك ما يمكن اعتباره ثقافة أميركية لاتينية ؟.**

لا أعتقد الطبع أن بمقدور أحد القول بوجود ثقافة أميركية لاتينية متجانسة ، وذات طبيعة واحدة . هنالك في أميركا الوسطى، على سبيل المثال ، وفي منطقة الكاريبي عامل أفريقي مؤثر تَحَصّل في ثقافة تختلف عن تلك الموجودة في بلدان ذات عدد ضخم من السكان المحليين ، كالمكسيك أو البيرو . وبإمكانك تسجيل تشابه كهذا يتعلّق ببلدان أميركية لاتينية أخرى .

في جنوب أميركا ، تملكُ كُل من فنزويلا وكولومبيا ما هو مشترك مع منطقة الكاريبي أكثر مما تملكان مع الهنود الأنديين ، رغم أنهما يضمان سُكاناً من الهنود . وفي البيرو والاكوادور ثمة اختلاف بين المناطق الساحلية والجبال . والوضع ذاته ينطبق على القارة ككل .

لقد اجتمعت كل هذه العوامل المتعددة والمختلفة لتمنح حضارة أميركا اللاتينة نكهتها الخاصة وأصالتها ، بالمقابل مع ثقافات العالم الأخرى .

□ **أي دور كان للعامل الإسباني في هذا المزيج ؟.**

ليس هنالك من إنكار لقوة العامل الإسباني في أميركا اللاتينية ، وللعامل البرتغالي في البرازيل . إنه حاضر في كل مظهر من مظاهر حياتنا . حتى أننا نتكلّم الإسبانية القشتالية .

إنه عامل في غاية الغنى ، رغم أنه يشكّل أمراً مثيراً للجدل ومُستخَفٌ به في كثير من الأحيان . ومع أن الميراث يكوّن جزءاً من خصوصيتنا الثقافية ، إلاّ أن الارتياب في كل ما هو إسباني في أميركا اللاتينية يعمل على التعقيد ، كما يبدو لي أنه زائد عن الحد وخطير . أما فيما يتعلّق بي ، فإنني فخور بأن أرث تلك الثقافة ، بالإضافة إلى أنني لا أشعر بالخجل منها بأي شكل من الأشكال . لم يعد الاستعمار الإسباني يمثّل مشكلة اليوم . صحيح أنه جرى صياغتنا ، على نحو ما ، عبر فيضانٍ أوروبي ؛ غير أننا لسنا نسخة مقتطعة من أوروبا . عادت أميركا اللاتينية لتكون شيئاً آخر .

□ **من أين جاء حافز الكتابة ، من أين جاء الوحي في الرَوي الذي منحنا « مائة عام من العزلة » و « خريف البطريرك » و « قصة موت معلَن » و « الحب في زمن الكوليرا » .. ؟**

ـ أعتقد أن جميعها جاءت من الحنين .

□ **الحنين إلى طفولتك ؟ إلى بلدك ؟.**

هو الحنين إلى بلدي وإلى الحياة ذاتها .

كان لي طفولة غير عادية . طفولة مُحاطة بأُناس أصحاب خيال فَذّ يؤمنون بالخرافات . أُناس عاشوا في عالم غامض عامر بالأخيلة . اعتادت جدتي ، مثلاً ، على أن تروي لي ليلاً ، بغير ما وعيٍ كامل ، قِصصاً تجعل شعر رأسي ينتصب هلعاً .

□ **يبدو أن جَدكَ كان يمثّل أسطورة عائلية . هل لعب دوراً هاماً في طفولتك ؟.**

كان عجوزاً هائلاً بدا أنه معلّقٌ في الزمان وفي الذاكرة ، وكنت شديد الإعجاب به . مات عندما كنتُ في الثامنة ، ولقد حزنت لهذا حزناً عميقاً . اعتاد أن يحدّثني عن حياته وكل ما حدث في القرية والمنطقة المحيطة بها منذ زمن سحيق . قام بوصف الحروب التي خاضها وصفاً تفصيلياً ، وكذلك المجازر الرهيبة التي وقعت في مزارع الموز في السنة التي ولدتُ فيها . المجازر التي تركت أثراً دائماً في التاريخ الكولومبي .

□ **هل كان لأمكَ تأثيرها عليك ككاتب ، هي أيضاً ؟.**

إنها امرأة فاتنة . عندما كان يقوم أحدهم بسؤالها عني ، وإلى ماذا تعزو موهبة إبنها ؛ كانت تجيب دون أن يطرف لها جفن:« إنه مستَحلَب سكوت »(١) . هنالك نادرة موحية أخرى . إنَّ لي عِدة أشقاء . وفي كل مرة يسافر أحدنا بالطائرة ، كانت تشعل شمعة وتتلو الصلاة من أجل أن يتم كل شيء على ما يرام . لكننا لم نعد نعيش كلنا في البيت معاً ، ولقد قالت لي في آخر مرة رأيتها : « إنني أحتفظ الآن بشمعة مشعَلة على الدوام في حالة أن أحدكم استقل طائرة دون علمٍ مني . » .

جميع أفراد أسرتي مهمين عندي للغاية ، وجميعهم يظهرون في كتاباتي بشكل أو بآخر . لن أنسَ أبداً بأنني ابن عامل بريد من أراكاتاكا .

□ **إنَّ منبتَك الأصلي هو الكاريبي ، كما أن كتبك تعكس نشاط وحيوية حياة تلك المنطقة . هل عثرت على الواقعية السحرية هناك ، والتي جعلت من رواياتك أعمالاً رائجة في العالم ؟.**

ثمة تكافُل كامل في الكاريبي ـ حسن ، دعنا نشير إليه على أنه عامل مؤثر آخر متوفّر هناك دون توفّره في منطقة أخرى ـ ، ثمة تكافُل بين الناس ، والحياة اليومية ، والعالم الطبيعي . لقد نشأت في قرية متوارية نائية بين المستنقعات والغابات العذراء على ساحل كولومبيا الشمالي . كانت رائحة الحياة النباتية هناك كافية لأن تقلب معدتك .

هو مكانٌ حيث يمرّ البحرُ عبر كل ظلٍ يمكن تصوّره من ظلال الأزرق . حيث تعمل الأعاصير على جعل البيوت تطير بعيداً . حيث ترقد القُرى مدفونة تحت الغبار ، وحيث يحرق الهواء رئتيك . وبالنسبة لشعوب الكاريبي ، فإنَّ الكوارث الطبيعية والمآسي الإنسانية لهي جزء من الحياة اليومية .

وعَليّ أن أضيف بأن المنطقة مُشبعة بالخرافات التي جلبها العبيد معهم ، ممزوجة بأساطير الهنود والخيال الأندلسي . والحصيلة هي نظرة إلى الأمور خاصة جداً ، وتصوّر للحياة يرى قسطاً من الروعة يكمن في كل شيء . أنت لا تجد هذا في رواياتي وحسب ، ولكنك تجده أيضاً في أعمال ميغيل آنجل أستورياس في غواتيمالا ، وأليخو كاربانتييه في كوبا . ثمة جانب فوق طبيعي للأشياء ، ضَرْبٌ من الواقعية يتجاهَل قوانين السبب .. تماماً مثلما الحال في الأحلام .

كتبت مرة قصة عن البابا وهو يزور قرية كولومبية نائية . بدا الأمر مستحيلاً تماماً في ذلك الوقت . ولكن ، وبعد سنوات قليلة، زارَ البابا كولومبيا .

**□ على ضوء عوامل التأثير التي ذكرتها ، وبناءاً على حضور الغرائبي في أعمالك ؛ هل تعتقد بأن النقّاد كانوا على حق حين وصفوك بأنك كاتب خيالي ، كاتب باروكي ؟.**

نحن نراعي في منطقة الكاريبي ، وفي أميركا اللاتينية عموماً ، ما يمكن تسميتها بالحالات السحرية كجزء من الحياة اليومية، مثلها في ذلك مثل بقية أوجه الواقع . وأنه لمن الطبيعي تماماً ، بالنسبة لنا ، أن نؤمن بالمعجزات ، والتخاطر عن بُعد ، والهواجس . ثمة حشد كامل من الطُرق الخرافية و الخيالية لها مكانها في سياق الواقع. لم أحاول على الإطلاق أن أفسّر أو أن أثبت ظاهرة كهذه في كُتبي . إنني أنظر إلى نفسي على أنني كاتب واقعي . واقعي خالص وبسيط .

**□ كانت العلاقة بين أوروبا وأميركا اللاتينية حافلة ، وعلى الدوام ، بسوء فهم غير مُجد . هل تعتقد بضرورة تنقية هذه العلاقة، وتنحية المشاعر المريرة ، إذا ما كُنا بصدد الوصول إلى توازن جديد بين الشمال والجنوب ؟**

إنَّ المشكلات التي تواجهها قارتنا من الضخامة بحيث أنها تمنعنا من رؤية الأشياء بوضوح ، ورغم هذا فإننا في وسط الوضع تماماً . لذا فإنه ليس من المستغرب ، فيما لو استغرقت أوروبا في ثقافتها الخاصة ، أن تفتقد ما يكفي من تفهمها لنا . لقد ورثَ الأوروبيون تقليداً كبيراً من العقلانية ، وإنَّ ما هو متوقَّع منهم ، كأمر وحيد ، هو وجوب الحكم علينا باستمرار بموجب مقياسهم الخاص ، دون حساب للفروقات الكائنة في نطاقات أخرى . وأنه لمن غير المستغرب ، أيضاً ، إذا لم يفعلوا هذا ، أن يفشلوا في رؤية أن الحاجة إلى الازدهار والرخاء ، ووعي الهوية الذاتية هي موضع إيمان في أميركا اللاتينية ، أو في أفريقيا وآسيا ، تماماً مثلما كانت في أوروبا .. وما تزال حتى اليوم . وبالضبط ، فإنَّ أي محاولة لتأويل جزء من العالم باستخدام مقياس جزء آخر لكفيل بأن يوصل إلى سوء فهم فظيع ، ولا ينجح إلاّ في استدراج الناس إلى الشرك الأعمق للاستلاب ، والتوحُّد ، والعزلة .

على أوروبا أن تحاول رؤيتنا على ضوء ماضيها هي . كأنما عدم التوازن الحالي جعلها تفقد الإدراك للتقلبات الخاصة بتاريخها . مَن يتذكّر أن بناء جدار حول لندن استغرق ٣٠٠ سنة ؟ وأن روما لم تُبْنَ في يوم واحد ، وإنما عبر قرون . أو أنه كان مَلكاً أترورياً [٢] من وضع روما على حلبة التاريخ ؟ وأن تينو تتيتلان ، عاصمة الأزتيك ، كانت أكبر من باريس عند وصول الفاتحين الغُزاة ؟

الأوروبيون أصحاب البصيرة ، وكذلك الذين يبذلون ما يستطيعون من أجل خلق مجتمع أكثر عدلاً وإنسانية في قارتهم ، هُم القادرون فعلاً على مساعدتنا إذا ما بَدّلوا من أسلوبهم في الحكم علينا . أي تعاطف حقيقي مع أحلامنا وآمالنا يجب أن يتخذ صيغة معاونَة للناس الذين ينحصر طموحهم في أن يعيشوا حياتهم الخاصة في عالَم حيث يتوفّر فيه إحساس حقيقي بالأخوة الإنسانية .

لماذا ينبغي على أُمم الجنوب أن لا تحاول نسخَ الحلول التي يتبناها الأوروبيون في أوروبا ، حتى وإنْ كانت الشروط والنُظم مختلفة ؟.

□ **هل تنبع المشكلات من الداخل ، أم تأتي من خارج القارة ؟.**

أعتقد بوجوب توقفنا عن التظاهر حيال أنفسنا بأن كل العُنف ، والبؤس ، والنزاعات التي أوجَعَت أميركا اللاتينية هي نتيجة مؤامرة تم تفقيسها على بُعد آلاف الكيلومترات ، وكأننا لم نقدر على تصوّر أي مصير آخر لنا غير أن نكون تحت رحمة القوى العالمية .

يجب أن تكون إجابتنا على عدم المساواة ، وبالمقابل منها ، هي الحياة نفسها . وكذلك على الإضطهاد ، والإستغلال ، والإهمال . إنّ قروناً من الحروب لم تطفىء ثبوتية الحياة العنيدة . لقد رفض وليم فوكنر ، قبل أربعين عاماً ، أن يقبل احتمالية انقراض الإنسان . واليوم نعرف بأن ما كان يخشاه هو احتمالٌ علمي مباشر . ونحن بامتلاكنا لهذه الحقيقة المخيفة ، ومعرفتنا بأن الصلات بين الأمم هي أقوى مما كانت عليه من قبل ، وأن عصراً جديداً يبزغ ؛ أقول : مع اعتبار كل هذا فإني أعتقد بأن الوقت لم يفت على بناء ( يوتوبيا ) تسمح لنا بالمشاركة في أرض لا يملك واحد أن يتخذ قرارات نيابة عن شعب آخر ، وحيث سيُمنَح الناس الذين في الهامش فرصة طازجة . في عالم يتحوّل التضامن فيه إلى حقيقة .

**□ إنَّ هذا لطموح تم عكسه في أعمالك مثلما تم الإلتزام به ، كما هو ، حيال أميركا اللاتينة ، بالإضافة إلى كونه إدراك لمصيرها .**

ـ هذا صحيح . فأنا لا أعتقد أن أحداً ما بإمكانه العيش مع حنينٍ كهذا . أنَّ أحداً حاولَ ولمدة طويلة أن يصفَ بلداً أو أن يفهم قارةً ، دون شعور عميق بالصِلة بهم وبالعالم الداخلي من خلالهم .

***The Unesco Courier*** عن

***October 1991***

***الهوامش***

( ١ ) مُنشِّط الأطفال .

( ٢ ) أتروري : منسوب إلى أتروريا ، وهي بلاد قديمة في غرب إيطاليا .

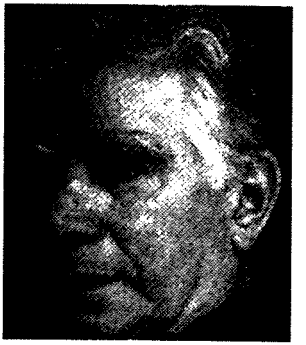

# 3 ليوبولدو ثيا

طوّر المفكر المكسيكي ليوبولدو زيا *Leopoldo Zea* فلسفة تاريخ تجذّرت في تجربة اميركا اللاتينية ،

لكنها إتصلت بقوة ايضاً لتلتحم بالحركات الرئيسية في الفلسفة العالمية .

يطرح ثيا هنا آراءهُ عن الدور الذي يمقدور الفلسفة ان تلعبهُ في حالة العالم المعاصرة .

* لم يرد ذكر من أجرى الحوار

## الحريةُ لا تتحقق في إطار التجريد

□ **هل ما تزال هناك فُسْحَة للتفكير الفلسفي في عالمٍ سريع التغيُّر ؟**

لقد تحطّم عام ١٩٨٩ النموذج التاريخيّ الذي إنْوجَدَ عند نهاية الحرب العالمية الثانية . وختمت التغيّراتُ الإستثنائية الحادثة في أوروبا خلال الشهور الأخيرة حقبةَ الحرب الباردة بوسْم النهاية . نحن الآن ندخلُ دورةً من التفكير المُكثّف حيث تتجددُ أوروبا وتبحثُ عن بُنى مختلفة ، بينما تقيم مناطق أخرى تصوّراتها لعلاقات وصيّغ جديدة للإندماج مع بقية العالم ، مثلما تفعل هذا كُلّ من أميركا اللاتينية ، وآسيا ، وأفريقيا . ينبغي للفلسفة ، أكثر من أي وقتٍ آخر ، أن تساعد على بلوّرة تفكيرنا عن هذا العالم المتجدد المنبثق من عالمٍ مقسّم .

□ **يعتقد الكثيرون بأنّ الفلسفة بلا فائدة وغير ضرورية ، وقد يحذفونها حتّى من مناهج التعليم .**

قامت الفلسفة على الدوام بمحاولة الدخول في سياق الواقع . بدايةً من أفلاطون الذي بحث عن حُلول لمشكلات المدينة ـ الدولة اليونانيّة ، إلى القدّيس أوغسطين الذي فكّر بالعلاقات بين المسيحيين والوثنيين ، وكانط الذي استغرقه التأمل بمكانة الفرد في المجتمع الحديث ، وكذلك هيغل الذي كتب التاريخ على ضوء الثورة الفرنسيّة . لذا ؛ فإنّ الفلسفة استجابت دائماً للمشكلات القائمة في زمانٍ ومكان مُعيّنين . ووفّرت

إجابة مُحتملة للأسئلة التي يطرحها الناس على أنفسهم . وبدون هذه الأسئلة ليس ثمة مبرر .

□ أهناك إمكانيّة وجود شيء كفلسفة كونيّة ؟

يقوم جوهر التفكير الفلسفي على المبدأ المزدوج للّوغوس [1] : السبب والكلمة . بالنسبة للسبب ؛ هو أن تعي العالم الخارجيّ من خلال رؤيّة تعمل على فهمه ، بينما تقوم الكلمة بجعْل عمليات إيصال هذه الإدراكات الحسّية للآخرين ممكنة . إنها توفر الطاقة للفهم وجعل المرء مفهوماً عبر عمليات الإيصال من أجل توسيع الحوار وتعزيزه . هذه الحركة هي نقطة البداية لأيّ حديث عن الكونيّة ، ذلك لأنّ الحقائق الفلسفية ليست كونيّة التعميم الفوريّ . فهي لا تُصبح هكذا إلاّ بالإعتماد على مدى انفتاحها على الآخرين . تعتمد كونيّة الفلسفة على طاقة البعض في الإيصال وعلى طاقة البعض الآخر في الفَهْم .

إنعقد عام ١٩٨٦ مجلس الفلسفة العالمي في مونتريال ( كندا ) ، وتوصل إلى خُلاصة مفادها أنه لطالما اعتمدت كونيّة الفلسفة على طاقة البَشَر في إيجاد السبب كوسيلة للإيصال ، والحوار ، وتبادل الخبرات . كما قيل ، كذلك ، أن ليس ثمة فلسفة كونيّة وإنما فلسفات محدّدة تتحوّل إلى كونيّة استناداً لمدى تفهمها من قِبَل الآخرين ، وجعْلها ممكنة القدرة على أن تفهم الآخرين .

إذا وُجِدَ اليوم حديثٌ حول فلسفة كونيّة حقّة ، فإنّ هذا ليس بسببٍ من أن طبيعة الفلسفة قد تغيّرت ؛ ولكن لأن المشكلات قد أصبحت كونيّة لأوّل مرة في تاريخ البشرية . فمنذ أن أثّرت بعض المشكلات على كافة البشر وبنفس الطريقة ، متجاوزة تباياناتهم وحدود خبراتهم ؛ فإنّ الإستجابة للفلسفة سوف تنال وثاقةً في الصلات الكونيّة . غير أن هذه هي كونيّة دائماً ، وتتخذُ من الواقع نقطة بداية لمحاولة حلّ المشكلات لأناسٍ ضمن أوضاعٍ محددة .

□ ما هي الأولويات لكونيّة كهذه ، علاوةً على التفكير المُحدّد ؟

الأمر الأوّل هو توضيح الصيغ الخاصة بالتصرّف والمشاركة في عالم متغيّر . إنّ المدى أو الحجم الأرضيّ الهائل للمشكلات يولّد السؤال عن تصرّف الشعوب والأمم ، مثلما يفعل هذا عن تصرّف الأفراد . نحن لا نقبل من الآخرين ـ التكتلات ، والحكومات ، والأيديولوجيين ـ أن يتخذوا القرارات بالنيابة عنّا . وهذا يقتضي ضمناً أن نأخذ على عاتقنا قدراً كبيراً من المسؤولية حيال ما تمّ بالفعل ، وأن نختار أشكالاً جديدة للمشاركة . فبدلاً من العلاقات العمودية للهيّمنة وبالتالي للتبعيّة ، ينبغي أن تُوجَد قنوات أفقيّة من التعاون والتعاضد . ينبغي أن توجد الرغبة بالمشاركة ، وعلى نحوٍ مضطرد ، بين الأفراد ، والأقليّات ، والتكوّنات متنوّعة الثقافة .

كلُ إنسان يريد أن يشارك في التهيئة للعالم الذي هو في طور النشوء ، العالم الذي لا يتم الإكتفاء فيه بالحديث ، كما اليوم ، عن « البيت الأوروبي المشترك » . نحن نعرف الآن بأننا نعيش في عالمٍ واحد ، وبأنّ كوكبنا هو عالميٌّ حقاً لأوّلِ مرة . إنه البيتُ المشترك للإنسانية ما ينبغي أن ينصّب تفكيرنا عليه .

**□ هل تتخذ الفلسفة ، كقاعدةٍ سلوكيّة عمليّة ، إتجاهات جديدة في هذا السياق الكوني ؟**

يتحوّل المدّ في عديدٍ من البلدان باتجاهٍ معاكس للفكرة القائلة بوجوب أن تكون أداة الفلسفة ـ المنطق ـ هي غايتها أيضاً. لقد تم القبول الآن بالمنطق على أنه معاني المعرفة مصحوبة برؤية نحو الفعل وحسب . وكلما تَنَقَّت هذه الأداة المنطقية كان ذلك أفضل . غير أنّ الأمر الجوهري يتمثّل في تحصيل معرفة عن الواقع من أجل تغييره . هذا هو صُلب المسألة. ينبغي ألاّ يُعتبر المنطق بذاته هدفاً للفلسفة .

إذن ؛ ثمة إمكانيّة للحديث عن عودة إلى الإنشغال الأصليّ للفلسفة : كيف نتعرّف على الواقع وأن نشتغل عليه . لم يكترث الفلاسفة اليونانيون بكون فلسفتهم كونيّة ، إلاّ أنها كانت كونيّة بمعيار إنتاجها لإجاباتٍ ترسّخت قيمتها عند الآخرين، ضمن ظروف متشابهة .

□ **إنّ هذه « الواقعية » الفلسفية الجديدة تستجيب بوضوح للإنشغالات الأخلاقية . كيف يمكن للأخلاق والبراغماتية أن يتوافقا ؟**

تخلّى فلاسفة كثيرون عن التحليل المحايد للّغة الإفتراضيّة غير المؤكدَة ولم يعودوا مكتفين بالبُنى المجردة التي حاولها عددٌ من معاصريهم . إنّ ما يهمنا الآن ، كما أسلفت ، هو المشكلات المتعيّنة لبني البشر . على الفلاسفة أن يلعبوا دوراً في نقد خرافات المجتمع المعاصر ، والتأشير على المشكلات الأخلاقية ، وتجليّة المبادىء الأوّلية ، وإعادة صياغة الأسئلة الأساسية في البيئة الحاليّة .

إنّ للتفكير الأخلاقي تأثيره على مشكلات الإنسان والمجتمع . والفلاسفة معنيّون بأخلاق الطب ، وبالعدول عن الأسلحة النووية ، وبالديمقراطية والعدالة الإقتصادية . ففي المجتمع الديمقراطي ينبغي للتفكير المثالي المناقبي أن ينتشر على أوسع نطاق ممكن. وحيال مشهد عملية التضامن المتبادل المتناميّة في عالم اليوم ، فإنّ نوعاً من الإجماع الأخلاقي يجب أن يتأسس بين جميع الشعوب التي يجب ، بدورها، أن تنال نصيبها في مصيرٍ أرضيّ مشترك .

□ **هل بالإمكان الحديث عن إهتمام أخلاقيّ ـ فلسفي خاص بالبيئة ؟**

إعتماداً على المؤرخ أرنولد توينبي ، تعامل الغربُ دائماً مع الناس ، مثلهم مثل النباتات والحيوانات ، كموضوعات للإستثمار . يمكننا معاينة هذا الفهم بالتدقيق في موقف البلدان المتقدّمة ، والتي تبغي فرض قوانين علم التبيؤ خاصتها [٢] على العالم الثالث دون الأخذ بعين الإعتبار إهتمامات الذين يعيشون هناك . ثمة محاولة لوقف تدمير الطبيعة باستخدام نفس السلطة التي كانت وراء تشجيع هذا التدمير ـ دون إبداء أيّ إكتراث بالكائنات البشرية المحكوم عليها ، بناءً على هذا، بالتخلّف باسم المحافظة على البيئة . الإجماع الأخلاقي وحده قادرٌ على إتاحة الفرصة لإعادة الضبط الذي لا يدين شعوباً معيّنة بسبب فقرها المستحكم . بمقدور الفلسفة أن تقدّم شيئاً لهذه القراءة العادلة الكونيّة ، وبذلك فإنها تساعد على تمهيد الطريق نحو إتفاقٍ حول المشاركة في ثراءٍ مُكتَسَب .

□ **هل بالإمكان التفكير بفلسفة تطبيقيّة مثلما نفكّر بعلمٍ تطبيقيّ ؟**

تصبو الفلسفة نحو الفعْل ـ ولم يكن ماركس الوحيد في الإشارة إلى هذا . التفكير مسألة مهمة ، لكنّ من المهم كذلك العمل بانسجامٍ مع ما يُفكّرُ فيه المرء . والفلسفة ليست تمريناً في حدود التجريد يكتفي بالكلمات ؛ إذ لو اعترضتني مشكلة واخذتُ بالتفكير بها فإنني أقومُ بذلك من أجل حلّها ، مما يعني القيام بالفعل . وعلاوةً على هذا ، فإنّ حقيقة التفكير المركّزة إنما تفترض بأنّ المرء يحوز على قابليّة الفعل المباشر .

هنالك في أميركا اللاتينية تقليدٌ فلسفيّ ممتد من الإنشغال بمشكلات المنطقة . وكما حدث في بواكير ١٨٤٢ ، أقام المفكّر الأرجنتيني خوان بوتيستا آلبردي في مونتيفيدو ( الأورغواي ) تصوّراً لمشروع أميركي خاص من التفكير الفلسفي متجذّر في « ضرورات » القارة . « ما هي المشكلات التي تتعرض لها أميركا والتي تستوجب أن تسأل نفسها عنها وأن تحلّها في هذه اللحظة ؟ » ـ كان هذا سؤاله . وكانت الإجابة تدلّ على مشكلات الحريّة ، والحقوق الأساسية ، والقانون الاجتماعي والسياسي . لذا؛ على الفلسفة أن تكون « توليفية وعضوية في منهجها ، إيجابية وواقعية في فعلها، جمهورية في روحيتها وغايتها » .

لقد استلزمتْ هذه المعرفة العمليّة درجة معينة من المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية على الفيلسوف أن يحققها . « إنه الواجب لكل إنسانٍ شريف »، كما قال آلبردي ملخّصاً : « والذي يستطيع من خلال شرطه الحياتي أو طاقته ، أن يمتحن أيّ سُلطةٍ مهما كانت ، وذلك من أجل الإنخراط في شؤون بلده » .

□ **هل هذا يعني أن على الفلسفة أن تكون أكثر « عمليّة » في البلدان الأقلّ تنمية ؟.**

لدى شعوبنا مشكلات هائلة تتطلّب المعالجة ـ مشكلات الهويّة والثقة بالذات. الفلسفة أداة نادرة للتعامل مع هذه المشكلات ومحاولة معالجتها . غير أننا يجب ألاّ نستخدم معيارنا الخاص فقط من أجل تعيينها . علينا أن ننفتح على بقية العالم.

بهذا المعنى ينبغي للحوار بين الشمال والجنوب أن يستمر ويتواصل في سبيل تعيين وتحديد ما نُطلق عليها « أخلاقيات التنميّة » . لقد بات التعامل مع الأسئلة الأخلاقية التي أوجدتها التنميّة أمراً لازباً .

**□ هل كان هذا ما فكرت فيه ضمن الرؤية للتاريخ الكوني التي أرسيتها في كتابك الأخير « محاضرات في الهامشية والوحشيّة» ؟.**

يمكن للمعرفة الأوسع عن بقية مناطق العالم أن تساعدنا لأن نكون واعين حالة الثقة بالذات التي نعيشها ، وأن نفهم ما الذي يشكل « أصالتنا » ، وموقعنا بالنسبة للآخرين . فإذا كنا قد بدأنا بمحاكاة النماذج الأجنبية ، فإنّ سبب هذا هو « تمثّل » الفلسفة الأوربية وتسخيرها لخدمة حاجاتنا . لقد قمنا بهذا العمل عن عمدٍ وبتانٍ . وإنه من السخف إنكار أن الثقافة الغربية قد إجترحت أدوات من المفاهيم بمقدورها أن تنطبق على وضعنا . كما قُمنا أيضاً باستيعاب البُعد الجدلي للماضي ، قابلين بالجيّد والرديء في تاريخنا ، ومحتفظين بما نعتبره يُمثّل قيمةً ومُعدّلين لما كان في نظرنا خلاف هذا . إني أعتقد بأنّ إحدى مسؤوليات فلاسفة أميركا اللاتينية هي ترجمة وتكييف ما يأتينا من جهاتٍ أخرى ليتناسب مع وضعنا الخاص ، وبالمستطاع ، رغم ذلك ، أن يكون مفيداً لنا .

على أية حال ، لقد أغلقت أميركا اللاتينية عينيها وبعناد عن حقيقة وضعها الخاص ، حتى أنها رفضت محلّيتها أو ماضيها الآيبيري ، بحيث أثّر هذا حدّ التجاهل الواقعي على الأرض عدم ملاءمة هذا الرفض ومخالفته للواقع كذلك . لكنّ تجاهل تاريخ المرء إنما يعني حرمانه من تجربةٍ يكون من المستحيل ، بدونها ، أن يبلغ الرشد ، وتحمّل المسؤولية .

مع هذا ، لم يُقيّد التفكير الأميركي اللاتيني نفسه بمشكلات المنطقة وحدها ؛ إذ ساهم في صياغة فلسفة أميركية معيّنة ، وفي إدراكٍ ما لواقع مشكلات العالم من زاوية نظر أميركية . « محاضرات في الهامشية والوحشية » هَدَفَ لأن يكون كتاباً عن فلسفة التاريخ تَمَتْ كتابته من خلال منظور ليس بالأوروبي أو « بتركيزٍ أوروبيّ » .

لماذا على الفلسفة ألاّ تُعطي نفسها « مركزاً من الوعي » مُغايرٌ لأوروبا ؟ إنّ هذا ما قُمتُ بعمله ، مفسّراً ، لا تاريخ أميركا وحسب ، بل تاريخ الشعوب غير الأميركية أيضاً . لقد إخترتُ وبتروٍ الشعوب الأوروبية على الخطوط الجانبية للتاريخ ، « البرابرة » وفقاً للإنطباع الكلاسيكي ، مثل إسبانيا والبرتغال عند الطرف الغربي لأوروبا ، وروسيا عند الطرف الآخر . وإنه من المثير أن نرى كيف تلعب اليوم هذه الشعوب المُقاسة تاريخياً دوراً مهماً في إعادة ترتيب العالم .

**□ في هذا العالم الموحّد والمعتمد على بعضه بعضاً نستطيع أن نُعاين ، أيضاً ، إنبعاثاً للإنعزالية ، والمطالبة بالهويات الوطنية التي كانت مكبوتة ، وعدداً متنامياً من حالات التنافس العِرقي .**

من الواضح أن انتزاع الحرية عملٌ يحمل مخاطرهُ وينبغي موضعته في سياق التساؤل المنهجيّ . ما المدى الذي تستطيع الحرية أن تذهب إليه ؟ على العالم أن يتجنّب التّذرية و « العصبيّة القبليّة » التي تؤدي إليها الوطنية أو الإقليمية المتفاقمة . إذا قمنا بتشجيع صيغ من المسلكيات والنماذج للمشاركة مؤسسة على إحترام الآخرين بالمقابل من إحترام الآخرين لنا ، عندئذ يصيرُ بالإمكان تصوّر الآتي على أنه نوعٌ من إتحاد عالميّ تكون فيه العلاقات أفقيّة ، متوقفة على بعضها بعضاً ، وحيث سيتوفر مسعىً مشترك لإيجاد حلّ للمشكلات المشتركة . إذا ما فهمتُ جاري وكيفيّة اختلافه عني، وإذا ما قام هو بالمثل ؛ عندها يكون بمستطاعنا أن نناقش ، ونتعاون ، ونصل إلى إتفاق دون أن نفقد الهوية التي ليس بمقدورنا رفضها أبداً ، وأن نبني هذا « البيت المشترك للإنسان » الذي من المُقدّر لنا أن نعيش فيه معاً .

وزيادة على هذا ؛ لقد إمتلكنا في أميركا خبرةً نستطيع أن نقدّمها للعالم : إستعداداً للقبول بالتمازج العرقي والثقافي ( التهجين ) [٣] . لقد أورثنا الإسبانيون فهماً إستثنائياً عن المزج البهيج بين الشعوب ، والديانات ، والثقافات ؛ لكنها أميركا ذاتها كانت وعاء الصهْر العظيم . هذا « العِرْقُ الكونيّ » ، والذي تحدثَ عنه الكاتب المكسيكي خوزيه فاسكونسيلوس ( ١٨٨٢ - ١٩٥٩ ) ، يحمل رسالةً عن الدمج العنصري والتمازج سيكون عَمَلاً جيداً إذا ما قام المُصابون برهاب الأجانب والخوف

منهم وكرههم بالتفكير فيه ملياً ، وكذلك الوطنيون من كافة الأصول . للفلسفة مهمة واضحة ومحددة تسعى لإنجازها ، للحيلولة دون خلْق التجمّعات المُغلقة الكتيمة ، الإكتفاء الذاتي والرضا عن الذات ، وذلك في الفضاءات الجديدة للحرية .

إذا سقط جدارٌ - جدار برلين الذي منع البعض من الخروج - فلنكُنْ متأكدين من أنّ جُدراناً جديدة لن تُبْنى لمنع آخرين من الدخول - الحواجز الجمركية التي قامت بتنميّة بلادٍ نَهَضَتْ من أجل حماية وجودها .

**□ كيف لإنبعاث المشاعر الدينيّة أن تنسجم مع عالمٍ ينبغي أن يناضل بإتجاه «الإجماع الأخلاقي» الذي تدافع عنه ؟**

- بإمكان الدين ، في نطاق أنه يساعدني على فَهْم الآخرين ، ويساعد الآخرين على فَهْمي ، أن يمنح بُعْداً روحياً مهماً لمهمة الفيلسوف . إنّ ما يجب رفضهُ هو الدين الذي يقفل عليك داخل عالم مُغلق من الإيمان المحدد ، دون التنازل أو إحتمال الإيمانات الأخرى ، الإيمان الذي يقود إلى صراعات دينية ، إلى تلك « الحروب المقدّسة » التي يبدو أنّ تاريخ الإنسانية قد عثر فيها على حُكمه عليها .

تماماً مثل الفلسفة التي تتحوّل أحياناً إلى أيديولوجية وتنحو لأن تكون كابحاً للأفكار ، علينا أن نَحُول دون العائق الذي يمكن للتصلّب الديني أن يمنحه السلطة الشرعيّة . إنّ كلمة السر هي الإحتمال . ينبغي لإختلافات الآخرين أن تكون موضع إحترام كي يقوموا هُم باحترام إختلافاتنا بالمقابل .

في عالمٍ ينحو لأن يكون واحداً ، وحيال مشكلات هي عالميّة ، فإنه من الأهميّة بمكان أن نكون قادرين على إعادة توكيد إختلافاتنا ، وما يُميّزنا عن بَعضنا بَعْضاً ، بينما نكُنُّ الإحترامَ للإختلاف ، ولما هو غير « مساوٍ » لنا . علينا ألاّ ننسى بأنّ المساواة ، ولا نقول المساواتية ، يمكن أن تتحوّل إلى معانٍ للسيطرة والهيمنة . الأمر المهم اليوم هو القُدرة على أن نكون « مختلفين » في المساواة ، في أن يكون بمقدور كل واحد أن يكون مساوياً بينما هو مختلفٌ .

□ **كيف ترى الحرية في هذا السياق ؟**

الحرية قيمة لا وجودَ لها إلاّ في العلاقة بين أفرادٍ مُتعيّنين . خلاف هذا تتحوّل إلى تجريد ، ومن المفيد ان نكرر بأنّ الحرية لا تتحقق في التجريد . من المستحيل الدفاع عن فكرة الحرية الخالصة ، لأنّ هذه ، جوهرياً ، حرية لا مسؤولة . علينا أن نقاتل من أجل الحرية ، ولكنها حرية مسؤولة ، وأن نكون واعين لحدودها .

. ينبغي للإنسان الحرّ أن يكون مسؤولاً . الإنسان لا يملك حقاً في أن يكون حُرّاً وإنما عليه واجب أن يكون كذلك ؛ وهذا معناه أن يكون مسؤولاً . إنّ خبرة الحرية تقتضي ضمناً مسؤولية قائمة على مستوى الواجب الأخلاقي المناقبي . الحريةُ إلتزامٌ . أنا حُرٌّ ، ولكن عليّ إلتزامٌ حيال حُريّة الآخرين .

□ **هذه العلاقة المركّبة بين الإلتزام والمسؤولية والحرية ، والتي هي موضوعة (ثيمة) دائمة الحضور في عملك الفلسفي ، قد تأسَسَتْ على العلاقة المتبادلة بين الإنسان والمجتمع . أليس ثمة إغراء كبير لإقتراح « نماذج » للحرية من أجل ضبط هذه العلاقات ؟**

سيكون من المستحيل الحديث عن النماذج في هذا التركيب ، ما دام ليس هناك إمكانية وجود للنماذج أو للنماذج الأصليّة للحريّة . فالنماذج تفرضُ في آخر الأمر إخضاعات جديدة . وأنْ تقبل نموذجاً هو أنْ تقبل إجباراً وإكراهاً .

عن *The Unesco Courier*

*November 1990*

*الهوامش*

(١) Logos : العقل : المبدأ العقلاني في الكون ( في الفلسفة اليونانية القديمة ) .

(٢) علم التبيؤ : Ecological : فرع من علم الأحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحيّة وبيئتها .

(٣) Mestizaje : من Mestiza أو Mestizo : الهجين ، وبخاصة ولد أو رجلٌ من أبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أميركي .

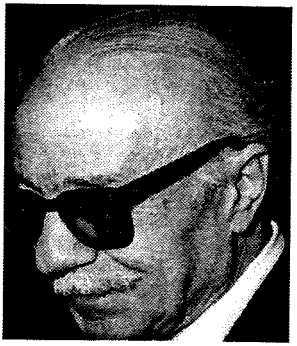

# 4 إرنستو ساباتو

إرنستو ساباتو واحدٌ من أكبر الكتّاب بالإسبانية الأحياء .
روائي وكاتب مقالات أرجنتيني .
يُكثّف لنا في هذا الحوار ما يرى أنها أزمات زماننا الروحية .

* لم يرد ذكر من أجرى الحوار

## الحسُّ بالتساؤل

□ **كتبتَ عدة مقالات ، وأكثرها إلفاتاً مجموعة عَنْوَنتها بـ ( الرجال والتروس ) عام ١٩٥١ ، وكانت عن التأثيرات المجرِدَة للصفات الإنسانية لكلٍ من العلم والتكنولوجيا . كيف صار لعالمٍ مثلكَ أن يرى الأشياء بهذا المنظور ؟**

رغم أنني درستُ الفيزياء والرياضيات ، تلك المبادئ التي وفرتْ لي نوعاً من الملاذ المجرد والمثالي في « فردوس أفلاطونيّ » بعيداً عن شَواش العالم ؛ إلاّ أنني سرعان ما تبيّنتُ بأن الإيمان الأعمى الذي يحتفظ به بعض العلماء من خلال فكرة « خالصة »، عَبْرَ السبب والتقدّم ( عادةً ما تُكتَبْ التقدّم كعنوانٍ وعلامة ) قد جعلهم يتجاوزون ، لا بل يحتقرون سِماتاً كالسِمات الجوهرية للحياة الإنسانية مثل اللاوعي والأساطير التي تتمددُ في الأصلِ من التعبير الفني ، أو باختصار : ذاك الجانب « الخبيء » في الطبيعة البشرية .

كلُ هذا كان مفقوداً في عملي العلمي الخالص ـ هذا المستر هايد الذي يحتاجه كل دكتور جيكل إذا ما كان يريد أن يكونَ فَرْداً ومتميّزاً ـ لقد وجدتُ هذا في الرومانسيّة الألمانيّة ، وكذلك ، وفوق كل شيء ، في الوجودية والسوريالية .

بعد أن رفعتُ عينيّ عن لوغارثماتي ومُنحنياتي الجيبيّة ، نظرتُ إلى الوجه الإنساني ؛ ذاك الذي لم أُفارقه أبداً .

□ **استطاعَ البعض من الكتّاب العظماء المعاصرين التوفيق بين العلم والإبداع . .**

ربما حدثَ هذا ، غير أنه لا يُقلل من إيماني بأنّ عصرنا قد وُسِمَ بقوة بالتعارض بين العلم والإنسانيات ، والذي باتَ اليوم غير قابل للتوفيق . فمنذ عصر التنوير وأيام الموسوعيين ، بل منذ حُلول الفلسفة الوضعيّة (١) ؛ تراجَعَ العِلمُ متحوّلاً إلى ضَرْبٍ من العزلة الأولمبيّة ، منقطعاً بذلك عن الإنسانية .

إنَّ السلطة المطلقة للعلم والتقدّم عَبْرَ الجزء الأكبر من القرنين الثامن والتاسع عشر اختزلت الفَرْدَ ووضعته في منزلة سِنٍّ في تُرْسٍ في آلة عملاقة . ولقد أسهم المُنظّرون الرأسماليون والماركسيون في نشر هذه الرؤية البائسة المشوّهة التي ذابَ الفرد فيها داخل المجموع، ومُسِخَ سِرُّ الروح ليكونَ مجرّد طاقة إندفاعٍ فيزيقية صادرة وقابلة للقياس .

**□ مع هذا ، وحتى في القرن التاسع عشر ، وُجِدَ تَيّارٌ فلسفيّ قويّ جابَهَ الصَرْحَ المنطقي البارز الذي بناهُ هيغل ، ذاك الثقل الذي سحقَ الفرد . نحن نفكّر بـ كيركيغارد ، الشخص الذي كتبتَ عنه على نحوٍ شُموليّ .**

كان كير كيغارد أوّل مفكّر تساءَلَ عمّا إذا كان للعلم أن يتسيّدَ الحياة ، وأن يُجيب بشكل نهائي وقاطع بأنَّ الحياة تأتي في المقام الأوّل . بعد هذا تمت إزاحة «الشيء» المؤلّه من قِبَل العلم عن مركز الكون ، واستُبدِلَ بـ «الذات» ، الإنسان المكوَّن من لحمٍ ودم . لقد أدّى هذا إلى كُلٍ من كارل ياسبرس ومارتن هايدجر ؛ أدى إلى وجودية القرن العشرين كفلسفة حيث لم يَعُدْ الإنسان مجرد راصد علمي «متجرد / غير متحيّز» وإنما هو « ذاتٌ » أُلبِسَتْ باللحم ، هو «الكائن المقُدَّر له أن يموت» الذي كتبتُ عنه ، وهو مصدر المأساة والميتافيزيقا كأسمى أشكال التعبير الأدبي .

**□ لكنهما ليسا وحدهما فقط ...**

ـ بالطبع لا ، غير أنهما يشكلان لي الأكثر أهميّة بسببٍ من بُعدهما المأساوي المُبْهَم . على المرء أن يفكّر تحديداً بعمل ديستويفسكي « ملاحظات من تحت الأرض»*، ذلك النقد الساخر العنيف واللعين ، والذي شجبَ من خلاله ، بضغينةٍ

تكاد تكون معتوهة ، العصرَ الحديث وعبادته للتقدّم .

□ **ها نحن الآن ندخل مباشرةً في الأدب ...**

نعم ، لأنَّ الرواية تستطيع التعبير عن الأشياء القابعة فوق عدسة الفلسفة أو المقالة ـ مثل لا يقيننا المُعتِم عن الله ، والمصير ، ومعنى الحياة ، والرجاء . تجيبُ الروايةُ على كل هذه الأسئلة ، ليس بالتعبير عن الأفكار وإنما من خلال الأسطورة ، والرمز ، وبالرسم على المُلْكيات السحرية للأفكار . ومن المؤكد أن العديد من الشخصيات المتحرّكة في الروايات هي شخصيات واقعية تماماً مثلما هو الواقع ذاته . هل دون كيخوته « غير واقعيّ » ؟ . إذا افترضنا أنَّ الواقع يحتمل أية علاقة بالمتانة ، إذن ؛ فإنَّ هذه الشخصية التي تولدت من مخيلة سرفانتس أكثر واقعية بكثير من الأشياء المحيطة بنا ، ذلك لأن دون كيخوته شخصيّة خالدة .

□ **إذَن ، فإنَّ الأدب يُؤوِّل الواقع ؟**

إنه من حُسْن الحظ أن الفن والشعر لم يحدث وأن طالبا بفصل المنطقي عن اللامنطقي ، أو الإحساس عن الفكر ، أو الحلم عن الواقع . فللحلم والميثولوجيا والفن مصادر مشتركة في اللاوعي ـ إنهم يُظْهِرون عالَماً ليس ممكناً أن يكون له أي صيغة تعبير أخرى . من السُخف مطالبة الفنانين بشرح أعمالهم . هل تتخيّل بيتهوفن يقوم بتلخيص سمفونياته ، أو أن يقوم كافكا بتفسير ما قَصَدهُ حقاً في روايته « المحاكمة »؟.

إنَّ الفكرة العامة القائلة بإمكانية تفسير كل شيء تفسيراً « منطقياً » هي العلامة الفارقة للذهنية الغربيّة الوضعية المعهودة للعصر الحديث ، هذا العصر الذي يُبالغ في تثمين قيمة العلم ، والسبب ، والمنطق . مع هذا ؛ فإنَّ هذا الشكل من الثقافة لا يُمثّل إلاّ لحظة عابرة في التاريخ الإنساني .

□ **يبدو أنك تعتبر عصرنا هو الطور الأخير في خط الفكر الحديث الذي بدأ في منتصف القرن التاسع عشر وينتهي في زماننا هذا .**

على الأنواع الأدبيّة أن لا تُشَوَّش بالإتجاهات الفكرية العامة . ففي حركة الأفكار الفسيحة والتراجيدية ثمة نجاحات وانحسارات ، انحرافات جانبيّة وتيّارات معاكسة . وإنهُ لواضحٌ ، على أيّة حال ، بأننا نَشْهَدُ على نهاية عَهْد . نحن نعيش في خِضمّ أزمات حضارة حيث هنالك نوعٌ من المواجهة بين قوى الإنفعال الأبدية والنظام ، بين الشفقة والروح ، بين الشهوانية والنزعة الجمالية الشعرية .

□ **هل بالإمكان حَلّ هذه الأزمات ؟**

الطريقة الوحيدة التي تُتيحُ لنا النجاة من هذه الأزمات المرعبة هي التشبث بالحياة ، وكذلك مُعاناة الإنسان من الآلة العملاقة التي وقع في شَركها وتعمل على سحقه . لكن علينا أن لا ننسى ، عند بزوغ ألف عام جديد ، بأنَّ أدوار الحياة لا تنتهي في الآن نفسه عند الجميع . ففي القرن التاسع عشر ، عندما إنتصرَ العلم ، لم يكن جُملة من الكتّاب والمفكرين من « المحسوبين على زمنهم » كديستويفسكي ، ونيتشه، وكير كيغارد ؛ ذلك لأنهم امتلكوا ، رغم تفاؤليّة العلماء ، الحدس بالكارثة المخبوءة لنا. الكارثة التي كان على كافكا ، وسارتر ، وكامو أن يرسموا ملامحها .

□ **ألهذا السبب رفضتَ مفهوم « التقدّم » في الفن ؟**

لا يمكن للفن أن يحرز تقدماً أكثر مما يمكن أن يحرزهُ الحُلم ، وللأسباب ذاتها. هل كانت كوابيس معاصرينا أكثر تقدّماً من كوابيس أنبياء الإنجيل ؟ . بإمكاننا القول بتفوّق رياضيات أينشتاين على رياضيات أرخميدس ، لكننا لا نستطيع أن نفعل هذا حيال ( عوليس ) جويس بالمقابل من « أوديسّة » هوميروس . كانت إحدى شخصيات بروست مقتنعة بأن ديبوسيّ هو موسيقيٌ أفضل من بيتهوفن للسبب البسيط ، ألا وهو أنه ولدَ بعدهُ . ليس ثمة حاجة لأن تكون عالِماً موسيقيّاً حتى تُقدِّر سخرية بروست الهجائيّة في هذا الصدد .

كل فنّان يتوقُ إلى ما يمكن تسميته بالكامل أو المُطلق ، أو إلى كِسْرةٍ من الكمال ـ بال التعريف ، إنْ كان نحاتاً مصرياً في زمن رمسيس الثاني ، أم فناناً يونانياً

من العصر الكلاسيكي ، أو دوناتللو نفسه . لهذا ليس ثمة تقدّم في الفن ؛ بل تغيُّرٌ ومحطات وصول جديدة فقط ، لا تنحصر في علاقتها بمُدْركات كل فنّان وحسب ؛ ولكنها ترتبطُ أيضاً بالرؤية الضِمنيّة أو السافرة لفترةٍ زمنية أو لثقافةٍ معيّنة . هنالك شيء واحد قابلٌ للتأكدُ على الأقل ، ألا وهو أنْ لا فنان يملكُ وضعاً أفضل من فنّانٍ آخر في عملية بلوغ هذه القيم الكاملة لبساطة السبب القائل بولادته في زمن لاحق .

□ **أنتَ لا تؤمن ، والحالةُ هذه ، بإمكانية وجود قيم جمالية أو فنيّة كونيّة؟.**

تنعكس نِسبيّة التاريخ على القيم الجماليّة . لكل مرحلة قيمتها الغالبة ـ الديانات ، الإقتصاد ، الميتافيزيقا ـ والتي تصبغُ ما عداها من القيم . ففي عيون الشعوب المالكة لثقافة دينيّة مسكونة بالأبديّة ؛ فإنَّ تمثال رمسيس الثاني الهيري (٢) والهندسي يمكن أن يتضمن « حقيقةً » أكثر مما يتضمنه بناءٌ كُليّ الواقعيّة . يُرينا التاريخ بأن الجمال والحقيقة يتغيّران من مرحلة إلى مرحلة تالية ، وأنَّ الثقافة السوداء والثقافة البيضاء تأسستا على مقاييس مختلفة . إنَّ مكانة الكُتّاب والفنانين والموسيقيين هي موضوع لتأرجحات البندول .

□ **ليس ثمة وجاهة ، إذَن ، في الحديث عن التفوُّق لثقافةٍ على أخرى ؟**

لقد قطعنا اليوم شوطاً بعيداً عن اليقينيات الموثوقة المغرورة ، وكذلك عن « الأفكار المستنيرة » بشكلٍ عام . فمن خلال متابعتنا لعمل ليفي ـ بروهل ، والذي إعترف بكل نزاهة بعد أربعين عاماً من البحث ، بأنه لم يستطع أن يرى « تقدّماً » في حركة الإنتقال من الفكر السحري إلى الفكر المنطقي ، وأنَّ للفكرين حتميّة التعايش داخل الإنسان ، وأنَّ جميع الثقافات ينبغي النظر إليها على أنها تستحق إحتراماً متساوياً . لقد وصلنا أخيراً إلى وجاهة مُستَخْلَصة في النظر إلى ما أطلق عليها يوماً ، وبتعطّف ، « ثقافات بِدائيّة » ! .

□ **مع ذلك ، أنت غير راضٍ عن الإتجاهات التعليمية الموجودة في المدارس**

**والجامعات . ما الذي ينقصها في رأيك ؟**

عندما كنت يافعاً عملوا على أن أبتلع جبلاً من الحقائق التي نسيتها بسُرعة . ففي الجغرافيا ، مثلاً ، أكاد أتذكّر بصعوبة ( رأس الرجاء الصالح ) و ( القرن الإفريقي )، وربما يكون السبب في هذا أنهم يذكرون أحياناً هذه الأماكن في الجرائد . قال أحدهم مرة بأن الثقافة هي ما تَبَقّى بعد أن تكون قد نسيت كل شيء عداه . التعليم يعني ، بالنسبة للكائن الحي ، المشاركة والإكتشاف والإختراع . وإذا كان للناس أن يتقدّموا فعليهم أن يبلوروا آراءهم الخاصة بهم ، حتى وإن أدّى هذا ، أحياناً ، إلى ارتكاب الأخطاء والإضطرار للعودة إلى البداية مرة أخرى . الناس بحاجة إلى استكشاف دروب جديدة وامتحانها من خلال معايير جديدة ؛ وإلاّ فلن ننتج ، في أفضل الأحوال ، سوى جنساً من الخريجين وحسب . أو ، في أسوأ الأحوال ، نوعاً من قارضي الكتب أو نوعاً من الببغاوات التي تتقيأ جُمَلاً جاهزة في الكتب . الكتاب أداة رائعة ، شريطة أن لا تتحوّل إلى عقبة تحول بيننا ومواصلة بحثنا الخاص .

□ **كيف ترى إلى وظيفة المعلّم ؟**

لغوياً ، أن تعلّم تعني أن تُطوّر ، أن تُخْرِجَ إلى العَلَن ما هو موجود في صيغة جنينية ، أن تلحظ الكامن الموجود بالقوة . إن هذا « العمل » ، هذا التوصيل من قِبَل المدرّس نادراً ما يكون في حالة إتمام كُليّ ، وربما يكون أصل كل أخطاء نظامنا التعليمي . ينبغي أن يوضَع الطلاب ضمن سياق طرحهم الأسئلة على أنفسهم ، وأن يكونوا على اقتناع بجهلهم وجهلنا ؛ وذلك ليكونوا جاهزين لا لطرح الأسئلة فقط ، وإنما ليفكروا من تلقاء أنفسهم ولأنفسهم ، حتى وإنْ لم يتفقوا معنا . كما أنه في غاية الأهمية لهم أن يكونوا قابلين لارتكاب الأخطاء ، ولنا أن نتقبّل الأسئلة ونقترب من إنجاز ما يمكن أن يبدو شاذاً . إذا منحنا الطُلاب هذا المستوى من التفكير فإنهم سوف يفهمون بأن الحقيقة أكثر تعقيداً على نحو مطلق ، وأنها أشد إثارة من المنطقة الصغيرة المشمولة بمعرفتنا . بعد هذا سيتوالى كل شيء على نحو آلي . إن ما سبق ذكره يساعد على إنبثاق التساؤل ونشوء التيقّنات ، ذاك الخليط من التقليد والإبتكار الذي ينشيء

الآلية الثقافية .

وكما قال كانط ، على الناس أن لا يُدرَّسوا الفلسفة .. بل عليهم أن يتعلّموا التفلسف . هذا هو مبدأ عمل أفلاطون « المحاورات » ، والمبني على التبادل المباشر التلقائي الذاتي ، في سياق أية أسئلة تنشأ بسبب قلقنا من جهالتنا الأولى .

□ **هل لك أن تعطينا مثالاً محدداً .**

سافرت منذ زمن بعيد عبر باتاغونيا بواسطة سيارة جيب ، برفقة رجل غابات أخبرني كم كانت الغابة تتقلّص مع كل حريق متعاقب . ثم حدّثني عن الدور الدفاعي الذي يلعبه شجر السرو ، والذي قارنه بالأبطال الرزينين في مؤخرة أي جيش ، حيث أنها تضحي بنفسها من أجل تأخير انتشار النيران وحماية بقية الأشجار . لقد دفعني هذا للتساؤل عمّا سيكون عليه تدريس الجغرافيا إذا ما رُبط بالصراع بين الأنواع ، وفتح المحيطات والقارات ، وبتاريخ الجنس البشري الذي يعتمد ، بشكل محزن ، على البيئة الدنيوية .

باتباع هذه الوسيلة يمكن للتلميذ أن يكوّن الفكرة عن المغامرة الحقّة ، عن المعركة المثيرة ضد القوى المعادية للطبيعة والتاريخ . وبعيداً عن الثقل الميّت للمعرفة الموسوعية ، وعن المجلّدات المغبّرة والأفكار الجاهزة ، عندها ؛ سوف تتجدد المعرفة على نحو دائم وستمنح كل تلميذ شعور الإكتشاف والمشاركة بالإنغماس في قصة قديمة جداً . فمثلاً ، من أجل انتعاشٍ لا يمحى من ذهن الطالب عن الجغرافيا المعقّدة للقارة الأمريكية ، وعبر المعايشة الحية وليس عن طريق خبرة التعلّم من كتاب .. ألا تكون الوسيلة الأفضل أن يتعلّم من خلال مغامرات المستكشفين العظماء مثل ماجلان أو الفاتحين مثل كورتيز ؟ علينا أن نقوم نحن باجتراح الصيغ لا أن تتم صياغتنا . قال مونتان « إن التعلّم بواسطة القلب ليس تعلّماً » . ماذا يمكن لعمل جون فيرن « حول العالم في ثمانين يوماً » ـ ككتيب مشوّق عن الجغرافيا وعلم الأعراق البشرية ـ أن يفعل لمن هم دون العشرين ! علينا أن نوقد الدهشة حول أسرار الكون الغامضة . كل شيء في الكون يبعث على الإندهاش إذا ما فكّرت فيه . لكن الألفة جعلتنا متخمون لا مبالون ولم يعد يدهشنا شيء. علينا أن نعيد اكتشاف حِسّ التساؤل .

**□ لقد اقترحت التعليم بناءً على قاعدة « من الوراء إلى الأمام » ، والإبتداء من الحاضر ثم العودة للوصول إلى الماضي .**

ـ أؤمن بأن أفضل وسيلة لإثارة اهتمام الشبان بالأدب هي البدء بالمؤلفين المعاصرين ، التي تكون لغتهم وشؤونهم أكثر قرباً لطموحات الطلاب ومخاوفهم . ويمكنهم فيما بعد أن يصبحوا مهتمين حقاً بما كتبه هوميروس أو سرفانتس عن الحب والموت ، وعن الأمل والإحباط ، وعن العزلة والبطولة . ويمكن تطبيق الأمر نفسه على التاريخ بالعودة إلى الوراء من أجل الوصول إلى جذور المشكلات الجارية حالياً .

وإنه لخطأ أيضاً أن نحاول تعليم كل شيء . قليلٌ من مفاتيح بعض الحلقات والمشكلات تكون كافية لإنجاز بناءٍ ما ، وهذا ما يجب تعليمه . ينبغي استخدام بعض الكتب القليلة ، ولكن يجب أن تُقرأ بصبر . هذه هي الوسيلة الوحيدة لتجنّب جعل القراءة تبدو وكأنها كالمشي في مقبرة من الكلمات الميّتة . القراءة تحمل قيمةً إذا ما ضربت على وترٍ في ذهن القارئ . ثمة نوع من التعليم الموسوعي الزائف يترافق على نحو نفيس مع التعلّم عن طريق الكتاب ، والذي هو شكلٌ من أشكال الموت . وكأنما لم يكن ثمة ثقافة قبل غوتنبرغ (٣) !

**□ منذ سنوات وأنت تؤشر على المخاطر المتمثلة في الأسلحة النووية ، وسباق التسلّح ، والمواجهة الأيديولوجية في كل العالم . ألا تشكّل تغيرات السنوات الأخيرة سبباً للتهوين من هذا التأشير ؟**

لست على يقين كامل من هذا . أود أن أسجّل قبل كل شيء بأن تكاثر الأسلحة النووية هو حقيقة أمر واقع . لقد امتلكت عدة دولة حتى الآن « قنابلها الذرية المصغرة » ، وبدأت سلسلة من ردات الفعل مع أعمال إرهابية غير مسؤولة وغير قابلة للتجاهل . لكن هذا ليس إلاّ المظهر « الفيزيقي » الخالص للسؤال ، ومع هذا فإنه مظهر مهول . إن ما يقلقني حقاً هو الكارثة الروحية التي تواجه حقبتنا ، والتي هي الناتج المؤسف لكبت قوى اللاوعي في المجتمعات المعاصرة . وإني لأرى دلائل هذا في توالد جميع أنواع احتجاجات الأقليات ، كما في كامل تاريخنا المتجمع لدينا . نحن نعيش في عصر مكروب وعصابي ، ولهذا السبب نشهد تواتر اللاإنتظام النفسي ـ

الجسدي ، والتصاعد في أعمال العنف والمخدرات . هذه مسألة فلسفية أكثر من كونها قضية أمنية . ولم يحدث أن تأثرت مناطق العالم «الخارجية» بهذه الظاهرة إلاّ مؤخراً.

إن التقاليد الميثولوجية والفلسفية للشرق ، على سبيل المثال ، كما في أفريقيا والأقيانوس ، تبقي على تآلف معيّن بين الإنسان والعالم . ولقد أدّى التفجّر المفاجئ وغير المكبوح في قيم الغرب وتكنولوجيته إلى خراب وفوضى عارمة ، تماماً مثلما حدث أثناء الثورة الصناعية عندما أغرق أصحاب المعامل في مانشستر ببضائعهم القطنية الرخيصة الناسَ الذين يعرفون كيف ينتجون أنسجةً متقنة . سوف تؤدي بنا هذه الكارثة الروحية إلى انفجار نفسي وروحي رهيبين ، مما يبعث موجة من عمليات الانتحار ومشاهد هستيرية وجنون متنوع . لا يمكن استبدال التقاليد القديمة بصناعة الترانزستور .

□ **أنت لا ترى إيجابية واحدة في كشف الحساب هذا .**

ـ نعم ، ربما ، لكنني أشك بصراحة في كوني أنتمي إلى جنس هو في طريقه نحو الانقراض . إنني أؤمن بالفن ، وبالحوار ، وبالحرية ، والكرامة للإنسان الفرد . ولكن من يهتم بهذا الهراء اليوم ؟. لقد أُهين الحوار وسيقت الحرية إلى السجون السياسية . ما الفرق الآن بين دولة يسارية ودولة يمينية تتحكّم بهما أجهزة الأمن ؟ .. كأنما ثمة إمكانية للحديث عن مجازر طيبة وأخرى سيئة ! . لا بد أنني رجعي بسبب استمرار إيماني بديمقراطية غير رنانة ومعتدلة ، وهي النظام الوحيد الذي يبيح للمرء ، بعد كل شيء ، أن يفكّر بحرية وأن يمهّد الطريق نحو واقع أفضل .

*The Unesco Courier* : عن

*August 1990*

***الهوامش***

( ١ ) فلسفة تعنى بالظواهر اليقينية فقط ، مهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة .

( * ) العنوان الذي اعتمده د. سامي الدروبي في ترجمته العربية المطبوعة هو « ذكريات من منزل الأموات » .

( ٢ ) Hieratic : هيري ، متعلّق بشكل من أشكال الكتابة المصرية القديمة أبسط من الهيروغليفية.

( ٣ ) مخترع الطباعة .

# الباب الثالث

## أوروبا الغربية

□ كلود ليفي. شتراوس

الفرديّة الغربيّة جرّدت الإنسان من جدار الحماية

□ امبرتو إيكو

المفكّرون ليسوا « حُكماء »

□ كاميليو خوسيه ثيلا

الأدبُ ضرورة ، وغايته ليست تصحيح العالم

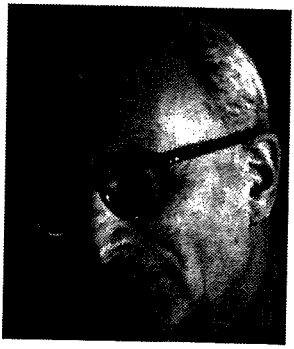

# كلود ليفي ـ شتراوس 1

أجرى الحوار : مانويل أوسوريو

انثروبولوجي فرنسي ، وفيلسوف ، ومُنظّر اجتماعي ، ولد عام ١٩٠٨ .

ساهم في تطوير البنيوية كمنهج في كلٍ من العلوم الإجتماعية والإناسيات .

كان له ان اكتشف ( من خلال تطويره لمعانٍ معقدة عبر تحليل الإبداعات الثقافية للشعوب التي لم تعرف الكتابة ) بُنى ضمنية للتفكير عملت على تمييز لا المجتمعات المُسمّاة بدائية وحسب ؛ وإنما أيضاً البُنى الأساسية للذهنية البشرية بعامة .

أما بالنسبة للاسطورة ؛ فإنه يرى ان معناها يكمن في العلاقات الضمنية لجميع

*عناصرها ـ وليس في عنصرٍ بمفرده ـ ، والتي لا يمكن إكتشافها إلاّ من خلال التحليل البنيوي .*

*إثر ترجمة كتابات كلود ليڤي ـ شتراوس إلى الإنكليزية في الستينات ؛ شاع منهجهُ البنيوي في الولايات المتحدة وأثّر في حقولِ بحثٍ كعلم الإجتماع ، والعمارة ، والأدب ، والفن ، مثلما أثّر كذلك في الانثروبولوجيا .*

**ـ مقدّمة المترجم ـ استناداً إلى**

**Groller Academic Encyclopedia**

## *مؤلفات كلود ليڤي ـ شتراوس*

* « البُنى الأولية للقرابة » ١٩٤٩ .
* " Tristes Tropiques " ١٩٥٥ .
* « الأنثروبولوجيا البنيوية » ١٩٥٨ .
* « العقل المتوحش » ١٩٦٢ .
* « أربعة مجلدات بعنوان : « الميثولوجيات » :
  ١ . النيء والمطبوخ ، ١٩٦٤
  ٢ . من العسل إلى الرماد ، ١٩٦٧
  ٣ . أصل آداب المائدة ، ١٩٦٨
  ٤ . الإنسان العاري ، ١٩٧١
* « طريق الأقنعة » ١٩٧٥
* « الأسطورة والمعنى » ١٩٧٨ .
* « المشهد من بعيد » ١٩٨٣ .
* « الأنثروبولوجيا والأسطورة : محاضرات ١٩٥٧ ـ ١٩٨٢ » ١٩٨٧ .

## الفردية الغربية جَرّدت الإنسان من جدار الحماية

□ **أنت مؤلفٌ لبُنية هامة من عَمَلٍ نالَ الإحترام في كل العالم . وإنَّ الذين يعرفون إسمكَ أكثر عدداً من أولئكَ المُطلعين على أعمالك . لذلك ، فإننا سوف نطرح بالنيابة عن جمهورنا العريض والعالمي بعض الأسئلة الأساسية عن العناصر التي تكوّن قاعدة تفكيرك . لكن ، بادئ ذي بدء ، هل بإمكانكَ أن تحدّثنا عن سيرتكَ المهنيّة ، وعن أيّامك الأولى ؟**

كنتُ في الواقع كاتباً متأخرالبداية نسبياً ، وكان لسيرتي المهنية مراحل صعودها وهبوطها . لقد تحوّلتُ بعد المباشرة بدراسة القانون إلى الفلسفة ، ثم تحركتُ باتجاه علم الإجتماع أولاً - إنَّ ذهابي إلى جامعة سان باولو في البرازيل كان بدافع تدريس علم الاجتماع - وبعدها إلى الأثنوغرافيا (١) .لم أبدأ الكتابة إلاّ خلال الحرب ، عندما لجئتُ للولايات المتحدة. قمتُ باستثمار بعض دراساتي الميدانية عن الـ Nambikwara(٢) من جهة ، ومن جهة أخرى بدأتُ أشتغل على عملي التنظيري عبر كتابة « البُنى الأولية للقرابة » .

□ **لقد رافقَ هذا المبحث المبكّر قَلَقٌ وعلى نحوٍ وثيق ...**

أفضّلُ التكلّم عن عدم التيقن بدلاً من التكلّم عن القلق . إنَّ هذا لأكثر دقّة . لقد اتخذَ تفكيري التنظيري اتجاهاً محدداً ما كنتُ قادراً على رؤيته بوضوح . بعد ذلك ، بينما كنتُ في الولايات المتحدة عام ١٩٤٢ ، التقيتُ باللغوي رومان ياكوبسون واكتشفتُ بأن هذه الأفكار الغامضة إنما هي موجودة داخل صيغة مذهبٍ في اللغويات البنيوية . عندها ، عدتُ للتوكيد على عملي على الفور .

في ذلك الوقت كُنّا نحن الإثنين نقوم بالتدريس في « المدرسة الجديدة للبحوث الإجتماعية » في نيويورك ، وهي شكلُ جامعةٍ في المنفى أسسها الطلبة اللاجئون الناطقون بالفرنسية . لقد واظبنا على حضور محاضرات بعضنا بعضاً . وجدتُ في تدريس ياكوبسون الدليل التفسيري أو التأويلي الذي كنت بحاجةٍ إليه . لقد شجّعني لا بل حثّني على المُضي قُدُماً في محاضراتي حول القرابة .

□ **المحاضرات التي أدّت إلى كتابة كتاب ...**

نعم ، كتابي الأساسي الأول ، « البُنى الأوليّة للقرابة » ، والذي كان الأطروحة التي نلتُ عليها درجة الدكتوراه .

□ **ما التوافق أو التطابق الذي عثرت عليه بين لغويات ياكوبسون والبحث الأثنوغرافي الذي كُنتَ تقوم به في ذلك الوقت ؟ فاللغويات والاثنوغرافيا نظامان في غاية الإختلاف .**

الإختلافات بينهما هائلة . لم أكن بأي حال من الأحوال أحاول القيام بتحويلٍ آليّ ما كان قد تمت صياغته في اللغويات صوب الأثنولوجيا (٣) . لقد كان ، بالأحرى ، سؤالاً ضمن ذات الإيحاء إجمالاً . بهذا الشعور الواضح جداً ، ومنذ البداية ، كنتُ أرى أننا بالتأكيد لا نتكلّم عن الأشياء نفسها وأننا لا نستطيع أن نتكلّم وفق نفس الأسلوب عن أشياء مختلفة . غير أنَّ اللغويات عززت نقطتين ما كنتُ أملك حيالهما، حتى ذلك الحين ، إلاّ إدراكاً غامضاً .

النقطة الأولى هو أنكَ ، ولكي تفهم ظواهر في غاية التعقيد ، فإنّ الأهم هو أن

تأخذ بالإعتبار العلاقة القائمة بينها أكثر من دراستك لكل واحدة بمعزلٍ عن الأخرى . أما النقطة الثانية فهي الفكرة العامة عن الظاهرة ، كما طوّرها ياكوبسون . الظواهرُ أصوات مميَزة مثل c , b , a , q , t , e ، وهي لا تَدّل على أي شيء بحد ذاتها . إنها الطريقة التي بواسطتها تجتمع لتشكّل كلمات تتيح الإمكانية للتفرقة بين المعاني . p و t لا يعنيان شيئاً لكنهما في اللغة الإنكليزية يفرّقان الـ « pot ـ القدر » عن الـ «tot ـ الجُرعة » .

بدت لي هذه الفكرة أنها قابلة جداً للتطوير . مرةً ثانية ، لم يكن السؤال سؤال مقارنة الحقائق الأثنولوجية بالظواهر ـ فهما ينتميان إلى قانونين مختلفين . لكنني حينما حاولت ، مثلاً ، أن أفهم الفَرْق الإستثنائي والظاهري والكيفي لقواعد الزواج المنتشرة في مجتمع مُعيّن ، فإنني لم أسأل نفسي السؤال الذي يداوم الناس على طرحه حتى الآن : ماذا تعني هذه القاعدة ، بذاتها ، ضمن هذا المجتمع ؟ على العكس من ذلك ، قمتُ بمراعاة أن القاعدة بذاتها لا تعني شيئاً ، لكنَّ الطريقة التي تجتمع من خلالها جميع القواعد ، بكيفيّة التقابُل أو التجاور ، إنما تؤدي إلى التعبير عن معانٍ محددة . فعلى سبيل المثال ، فإنّ هذه القواعد تقوم باستنباط أو بإثارة دوائر من التغيّرات ضمن المجموعة الاجتماعية . دوائر من التغيرات ذات مغزى ومغايرة من مجتمع إلى آخر .

### □ كيف تلخص هذا المنهج ؟

ـ فلنَقُلْ بأنَّ في كل المجتمعات الإنسانية ثمة طواقم أُولى ـ اللغة ، والقرابة ، والدين ، والقانون ، وهذه تسمّية للقليل فقط . وربما يكون من الحكمة أن نتعامل معها كوحدات منفصلة في مراحل البحث المبكّرة . ولكن على المرء ، في المراحل اللاحقة ، أن يتساءل عن العلاقة المُمكنة الوجود بين هذه الوحدات الأولى ، وعن تلك الوحدات الثانية الأكثر تعقيداً التي تتشكّل حينما تجتمع . وهكذا نَصِلُ تدريجياً إلى فكرة « الحقيقة الاجتماعية الكُلّية » كما صاغها عالم الإجتماع والأنثروبولوجي الفرنسي مارسيل ماوس Marcel Mauss . إنها تشتمل على تشكيلة تمثيلات هي لغوية ، وحقوقية ، ودينية ، وهكذا .

□ **لكنّ هذا يحدث في مجتمع مُعيَّن منظورٌ إليه كوحدة كاملة ...**

ـ هذا صحيح كبداية . لكنَّ المرء ، فيما بعد ، يحاولُ أن يفهم الإرتباطات والتقابلات الممكن وجودها بين مجتمعاتٍ متجاورة أو متباعدة .

□ **لقد كتبت عن مجتمعات « ساخنة » و « باردة » من أجل التفريق بين مجتمعات تملكُ منظوراً تاريخياً ومجتمعات ساكنة ...**

هذان قُطبان نَظَريان . كافة المجتمعات في الواقع لها مكانها المحدد في الطيف . إنَّ المجتمعات المُسمّاة بدائية ليست بدائية أبداً . على مثالهم الأعلى أن لا يتغيّر ، عليه أن يبقى على وضعه كما هو حينما خلقتهم الآلهة في بادئ الزمان . بالطبع هذه المجتمعات لا تحقق نجاحاً إلاّ أنها مع هذا موجودة في التاريخ . غير أنها تملكُ نزعةً لتحييد التغيرات ، ولأن تحافظ على وضعية المثال الأول ـ الوضعية المتمثّلة في الأساطير. من جهة أخرى ، وفي المجتمعات التي أسميتُها « ساخنة » ، فإننا نحاول أن نُعيّن أنفسنا بالمقابل من أسلافنا. ولذا ؛ فإنَّ للتغيّر سرعته الأكبر كثيراً . نحن لسنا على قَلقٍ من الوجود في التاريخ وحسب؛ لكننا نرغب بمعرفتنا لماضينا أن نتواجه مع المستقبل ، أن نُجيز أو ننتقد تحوّل وتطوّر مجتمعنا . إنَّ التاريخ بالنسبة لنا يدخلُ كعنصر في ضميرنا الأخلاقي .

□ **هل لك أن تحدد لنا الفكرة العامة للأسطورة كما قدّمتها في كتابك *الميثولوجيات* ؟**

الفكرة العامة للأسطورة أساساً فكرة في غاية الطواعية . فالأسطورة ، بالنسبة للهندي الأميركي ، هي قصة الزمان حينما لم يكن ثمة تمييز بين الإنسان والحيوانات . أعتقد أن هذا تحديدٌ جيدٌ جداً . حيث أنه ، بالرغم من المُعطيات التي نشرتها التقاليد اليهودية ـ المسيحية ، ليس هنالك من وضعيّة تبدو أكثر مأساوية للقلب والعقل من الإنسانية التي تتواجد مع أنواع حيّة أخرى على أرضٍ يتشاركونها ، دون القدرة على التواصل مع تلك الأنواع . ترفض الأساطير رؤية هذا الدفق في الخَلْق على أنه أمرٌ دائم

الحدوث . إنها ترى ظهورها على أنه الحدث الذي دَشَنَ الشرط الإنساني . فالأسطورة ، على خلاف طريقة الفهم الديكارتية للمشكلة ، ترفض أن تُقسّم الصعوبة ، ولا تقبل أبداً الإجابة الجزئية ، وتتوق إلى التفسيرات التي تشتمل كُليّة وعموميّة الظاهرة .

حاولت أن أرى الدور الذي لعبته الأسطورة في تفكير الأعضاء في مجتمع ما . حاولتُ أن أتبيّن منطقها الداخلي قبل سؤالي لنفسي عن وظيفتها الإجتماعية . هنالك سؤالٌ في جميع العلوم يمكن أن يظهر عبر أطوارٍ بيولوجية ، مثل العلاقات بين علم التشريح وعلم وظائف الجسم ، بين الطريقة التي ينشأ خلالها الكائن الحيّ والطريقة التي يؤدي بها وظيفته . بالطبع إنَّ للأساطير وظائفها ضمن المجتمعات ـ إنها تجترحُ دوراً . غير أنه من الضرورة بمكان أن نعرف كيف تشكّلت هذه الأساطير ، قبل أن نسأل كيف تؤدي وظيفتها ، ومن الضرورة أيضاً أن نعرف تركيبتها البنيوية . فنحن ما كان لنا أن نجد داروين قبل أن يسبقه كوفيير Cuvier (٤) . لقد توافق كتابي **الميثولوجيات** مع مرحلة كوفيير . كنتُ أحاولُ أن أسبرَ التركيبة البنيوية للأساطير .

**□ لقد ألقيتَ محاضرتين في اليونسكو بفاصل عشرين سنة بينهما . كانت الأولى بعنوان « العرق والتاريخ »، والثانية « العرق والثقافة » . هل يصحّ القول بأن إنشغالك الكامل في كلا المحاضرتين كان ينصبّ عل التوفيق بين الفكرة العامة عن التقدّم ومبادئ النسبية الثقافية / الحضارية ؟**

تقضي الفكرة العامة عن التقدّم بأن ثمة ثقافات معيّنة هي أكثر سُمواً عن أخرى ، وذلك في إطار أزمنة وأمكنة محددين ، وأن بعضها ينتجُ أعمالاً ليس بوسع الأخرى أن تنتجها . وفقاً لنسبية الحقيقة، التي هي واحدة من أُسس تفكيري الأثنولوجي ( الخاص بعلم الأعراق البشرية ) ، ليس ثمة معيار مُطلق يجزم بسمو ثقافة مقابلُ أخرى . إذا « تحرّكت » بعض الثقافات في حين لم تتحرّك أخرى ؛ فإنَّ السبب في هذا لا يكون بسمو الأولى على الثانية . إنَّ السبب يكمنُ في أن بعض الأوضاع التاريخية قادت إلى تعاونٍ ما بين مجتمعات ليست متساوية . . إنما هي مختلفة . عندها ، تبدأ هذه المجتمعات بالتحرّك عبر عملية محاكاة متبادلة أو متقابلة . إنها تُلقّحُ وتُحفّز بعضها بعضاً . في أزمنة أخرى وأمكنة أُخرى يحدث أن تبقى الثقافات منعزلة

وثابتة .

□ **هل تتفاوت وظيفة الفن هي الأخرى بين ثقافةٍ وغيرها من الثقافات ؟ أوليست أكثر تجميعيّة في المجتمعات التي تُسمّيها « باردة » ؟**

أعتقد أن سبب هذا كَوْن الفن في مثل هذه المجتمعات أشد قُرباً في ارتباطه بالمعتقدات التجميعيّة . إنّ الغاية من الفن في هذه المجتمعات ليست غاية فردية أو ذات صلة بالاستمتاع الجماعي . إنها غاية وظيفية، ألا وهي إيجاد التواصل ما بين المجتمع والعالم فوق الطبيعي الذي يؤمن به الجميع . وهكذا يقوم الفن هنا بتأدية وظيفة لا يستغني المجموعُ عنها .

□ **غاية اجتماعية ...**

اجتماعية ودينية . عندما يشترك عموم المجموعة بالدين ، أو بالمعتقدات الدينية، فإنه من المستحيل فَصْل الوجهين.

□ **لقد توقفت هذه الوظيفة عن أن تكون في المجتمعات « الحديثة » .**

أعتقد أن لهذا علاقة كبيرة باضمحلال إيمان عظيم مُشتَرك . لقد فقدت مجتمعاتنا هذه القابلية تجاه إيمان عظيم تجميعي ، تجاه حيوية مشتركة .

□ **هل نبعَ هذا التجلي الواحد لحالة الإنفصال ما بين الفرد والعالم خلال تاريخ الحضارة الغربية ؟**

لقد جَرّدت الفردية الغربيةُ الإنسانَ من جدار الحماية ، وذلك عندما عزلت الكائنات البشرية عن بقية الخليقة . ففي اللحظة التي يعتقد فيها الناس بلا محدودية قدراتهم ، فإنّ توجههم سيكون نحو تدمير الذات . فَكِّرْ بمعسكرات الإعتقال السياسية . فَكِّرْ ، ومن أجل جميع البشر في هذا الزمان ، بالمشكلات البيئية .

□ **إذا ما إستعدتَ أيامكَ المبكرة ، كيف تحكم على نتائج أبحاثك ؟ كيف ترى الدرب الذي اتخذته لنفسك ؟**

أشعر بأني فعلتُ الشيء نفسه طوال الوقت ، بمعنى أنني حاولتُ دراسة ميادين مختلفة مستخدماً طريقة الفهم ذاتها . بدأتُ متمسكاً بمشكلات العائلة والتنظيم الإجتماعي . ثم أدّى أمرٌ ما إلى أمرٍ آخر ، فدعيتُ لإلقاء محاضرات عن ديانات الشعوب دون الإضطرار للكتابة ، وذلك في كلية Ecole Pratique des Hautes Etuds في باريس . وهكذا تحوّلتُ نحو المسائل الدينية ، وبخاصة الميثولوجيا . كانت المشكلات التي تتطلّب المعالجة أكثر صعوبة من تلك المتعلقة بالقرابة ـ حَقْلٌ تم تقديم أعمال كثيرة لتغطيته ، حتى وإنْ لم تكن مُرضية من وجهة نظري . بعيداً عن النظريات القديمة جداً والمشوّشة التي بإمكان أي كان أن يرى عدم أهليتها ؛ فإنّ الأساطير تنتمي إلى حقلٍ دراسيّ كان وما يزال مؤجّلاً إلى حدٍ كبير ـ ما عدا ، بالطبع ، تلك الدراسة الرائدة التي قام بها جورج دوميزيل Georges Dumézil ، حيث تحرّى فيها الحقل المرسوم المحدد للميثولوجيا الهندية ـ الأوروبية .

كانت المشكلات التي ظهرت خلال هذا البحث الجديد من ذات النمط الخاص بموضوعة القرابة . تماماً مثل قواعد الزواج لمجتمعات مختلفة كنت قد درستها وبدت أنها إعتباطية ، كذلك بدت الأساطير مُبهمة ومنافية للعقل حتّى . عندما تتم المقارنة بين الأساطير الخاصة بمجموعات بشرية مختلفة ومتباعدة للغاية ؛ فمن الممكن أن تبدو مالكةً لميزات مشتركة . وبعد محاولة تثبيت نظام صغير في شواش قواعد القرابة والزواج ، أردتُ أن أفعل الشيء نفسه فيما يتعلّق بالميثولوجيا . وكان لرسمي عوامل الإلهام من المبادئ التي حددتُها في البداية محاولةً مني لفهم معنى الأساطير .

استغرق مني هذا المشروع الطويل مدة خمسة وعشرين عاماً بسبب الحجم الهائل للمادة التي عليَّ أن أستوعبها . فالأدب الأثنوغرافي ( الأنثروبولوجي الوصفي ) يتضمن كتلةً من الأساطير التي جمعها الأثنولوجيون ( علماء الأعراق البشرية ) عبر قرن من الزمان بحماسة باهرة وقاموا ، من ثَم ، بتدوينها وتسجيلها في أجزاءٍ أساسية من النشرات التي لم يستخدمها أحد . شعرتُ بأن هذه المادة أكثر غنى حتى من تلك التي حُزنا عليها حول اليونان وروما القديمتين . حدّثت نفسي : « دأب المُعلّقون طوال

مائتي سنة على دراسة معتقدات اليونان والرومان دون أن يستنفدوا الموضوع ، واجدين وباستمرار تأويلات جديدة » .

وهكذا حاولتُ استثمار هذه القارة غير المكتشفة من الوثائق ذات العلاقة بشمال وجنوب أميركا . وآمل أني نجحتُ بتبيان كم عالم الأساطير للأميركيين الهنود هو عالمٌ مُركَبٌ ومُنَظّم .

عن: ***The Unisco Courier***

***October 1990***

***الهوامش***

( ١ ) Ethnography : الاثنوغرافيا : الأنثروبولوجيا الوصفية . ( المورد ) .

( ٢ ) قد تكون قبيلة ، أو مجموعة قبائل . ( المترجم ) .

( ٣ ) Ethnology : الاثنولوجيا : علم الأعراق البشرية . ( المورد ) .

( ٤ ) Cuvier, Georges, Baron : ١٧٦٩ ـ ١٨٣٢ : عالم طبيعة وعالم تشريح البنى الوظائفية للجسم . Grolier Academic Encyclopedia

# 2 أمبرتو إيكو

أجرى الحوار : فرانسوا ـ بيرنارد

بات السيميولوجي الإيطالي امبرتو إيكو معروفاً على نطاق العالم من خلال روايته الأكثر مبيعاً ( إسم الوردة ) ١٩٨٠ ، والتي تصوّر جريمة غامضة حدثت في العصور الوسطى ، ثم تحولت إلى فيلم سينمائيّ فيما بعد .

أدّى هذا النجاح ـ للرواية والفيلم ـ إلى التغطية والتعتيم على أسئلته عن التواصل وطروحات أجتماعية أخرى ، تلك التي طورها في كتب كـ : ( دور القارئ ) و ( نظرية في علم الإشارات ) .

في هذا الحوار يناقش امبرتو إيكو الدلالات الرحبة لأعماله .

**ـ مقدّمة المجلة ـ**

## المفكرون ليسوا « حُكماء »

**□ بصفتك سيميولوجيّاً ودرست أنظمة الإشارات ، أثمة صلة لعلم الإشارات مع الناس العاديين ؟ هل بالإمكان الخروج بأي إستنتاجات عمليّة من عَمَلِ كعملكَ؟**

أعتبرُ نفسي فيلسوفاً أكثر من كوني عالمَ إشارات ( سيميولوجياً ) ، غير أن إشارات عامة يمكن أن تُقال لتصيرَ أكثر فروع الفلسفة أهميّةً . ربما يكون علماء الإشارات أكثر ضرورة اليوم من أي وقتٍ مضى . نحن نعيش نهاية مرحلة من الاستقطاب الثنائي . كانت الأمور من قبل تبدو أكثر بساطةً لعلماء الإشارات في المعسكرين الأيديولوجيين بغرض تحليل ونقد النظام المقابل ؛ بينما نجد الآن ثقافات كثيرة جداً ، ولُغات وطرائق محادثة عديدة جداً تدعو للإلتفات إليها عبر المطالبة الصاخبة . أحياناً تكون المطالبة سِلمية وأحياناً بقوة السلاح . وهذا الظرف ، كما يبدو لي ، يشكّل ضرورة غير مسبوقة من أجل المقارنة وكشف التباين بين أنظمة التواصل المختلفة ، أو الرؤى العالمية . من هنا يجيء دور علم الإشارات . أنا لستُ ساذجاً درجة الإعتقاد بأن علم الإشارات قادرٌ على إحلال السلام في العالم ، أو أن جمهورية الفلاسفة يمكن أن تقوم . لكن بإمكان علم الإشارات أن يلعب دوراً في التعليم وفي حقل علم التربية المدنيّة[1] . بإمكانه ، على سبيل المثال ، أن يغرس في الأذهان معنىً مُعيناً للنسبية ، وللتنوع ، وللتسامح .

يتطلب العمل أن يكون في أوساط الشبيبة ، منذ السن المبكرة جداً ـ منذ الثالثة أو الرابعة ، ولو من أجل تعليمهم أن هنالك لُغات مختلفة ، وذلك لكي

يتمسكوا بفكرة التنوع : لجعلهم يدركون ، مثلاً ، بأنه في داخل اللغات المختلفة ثمة أسماء مختلفة للأرنب ، وأن أولئك الذين يُسمّون الأرنب بأسماء أخرى مغايرة ليسوا بالقوم الهمجيين . وبما أن علم الإشارات يتعامل مع جميع الأنظمة الثقافية وليست اللغات وحدها ؛ فإنهُ لقادرٌ على تعليم الأطفال بأن هنالك طرائق أخرى في اللباس ، وعادات أخرى في الأكل ـ بكلمات أخرى : هنالك صِيَغٌ مختلفة للممارسات الشعائرية في مجتمعات مختلفة ، وكل واحدة منها ذات معنى وهدف ضمن مجتمع مُحدَد .

قد تكون هذه طريقة لتعليم التسامح والتفهُم . إذا ما استطاعت الأجيال المستقبلية من الأطفال أن ترى إلى الأنظمة المختلفة بالكيفية ذاتها لرؤية علماء الإشارات، نكون ، عندها ، قد حققنا تقدّماً غير عادي ! .

إنَّ قولاً كهذا يدعو إلى تمكين الناس من فهم بعضهم بعضاً على نحوٍ أفضل ليس بالضرورة هو الدواء العام لأمراض العالم . فالأسبرين لا يُعالج جميع العناصر ، لكن لا ضرر إنْ أرسلناه إلى بعض الأمكنة حيث يوجد وباء الملاريا .

كما أنني لا أؤمن بأنَّ لغة أو ثقافة مشتركة تعني بالضرورة إخوة إنسانية : لقد كانت أسوأ أزمات الـ ٢٠٠ سنة الأخيرة عبارة عن حروبٍ أهلية بين شعوب تتكلّم نفس اللغة .

**□ مع ذلك ، فإنّ مجرّد الفكرة عن نسبية ثقافية مُعينة سوف تثير خلافية مؤكَدة . أين تقف في موضوعة الجَدَل ، أصواباً كانت أم خَطأً ، والمستَند إلى «النسبية الثقافية» مقابل «العالمية» ؟**

تقوم النسبية الثقافية على أن فَهْمنا للعالم يتخذُ أشكالاً شتى ، من اللغة إلى الدين ، وأنَّ هذه تفتقر إلى الأُسس المشتركة لمسألة المقارنة . إذا تطرفنا في هذه الحجّة فإنَّ الواحد منّا سوف يستنتج ، على سبيل المثال ، بأنْ ليس ثمة وسيلة ممكنة لترجمة مفهومٍ ما مُعَبَّرٌ عنه في لغة الهنود الهوبي إلى اللغة الإنكليزية ، أو بالعكس . إنَّ هذا لهو النسبيّة الثقافية تماماً . وكما قال توماس كوهن عن النماذج أو الصيَغ العلمية ؛ فلربما تكون متعارضة ، لكن هذا لا يعني أنها غير قابلة لوضعية أن تُقارن ببعضها .

النظام البطليموسي (٢) والنظام الكوبرنيكي (٣) هما حقاً نظامان متعارضان ، غير أنه من الممكن المقارنة بينهما من أجل الكشف عن استقلاليتهما الكاملتين عن بعضهما ، وكذلك من أجل فهم كيفية الإنتقال من الواحد إلى الآخر . إنَّ مفهوم القمر أو الأرض ليسا بالمفهومين المختلفين كُلياً في كلا النظامين ، ومع هذا يملك النظامان أفكاراً مختلفة عن حركتهما ( القمر والأرض ) . أما الإقتراح السيميولوجي فإنهُ يعتمد الأنثروبولوجيا الثقافية ، أو أي إقتراح آخر يولي إهتمامه لتنوع الثقافات ؛ تلك الناشئة عن عملية المقارنة . إنهُ يبحث عن النقاط حيث يمكن أن تجري المقارنة ؛ إنه لا يُغلق على الأنظمة في حُجيرات مختلفة كلياً ، لكنه يبحث عن أرضيات مشتركة بينها ، وإذا لم يعثر على أيٍ منها فهو يحترم إختلافاتها . ليس ثمة تناقض غير قابل للحل ، من وجهة نظري ، بين النسبيّة الثقافية والعالمية .

لنأخذ مثلاً آخر : تستخدم اللغاتُ المختلفة صُنوفاً مختلفة للإشارة حَتّى إلى أشياء بسيطة كالخشب . فالإنكليزية قد تستخدم كلمة « أشجار timper »(٤) لتقيم فارقاً نوعيّاً عن « الغابة wood » (٥) بمعنى أرض الغابات أو الأخشاب ، غير أن الفرنسية تستخدم كلمة « bois » لتشير إلى كِلا المعنيين . فالترجمة ممكنة دائماً ؛ فهي تؤسس نفسها على إمكانية أنَّ لغتين مختلفتين تملكان نقطة إتصال . هي عملية تحاول بواسطتها اللغةُ الناقلة الإحتفاظ بأقصى ما في اللغة الأصلية وأن تنقلها بتعبيراتها هي . فلكي أترجم من الألمانية إلى الفرنسية فإني أحتاج معرفة الألمانية وأن أدرك ، بدقة، أين تختلف كِلا اللغتين . بهذا المعنى ليست ثمة عالمية أكثر من الترجمة .

يمكن لكلمة القداسة ـ كلمة ذات نسبية ثقافية مؤكدة ـ أن تجعلنا نستنتج باستحالة الترجمة ، وأنْ ليس هنالك وسيلة لبيان علوم الذرّة في لغة الغابات ، أو للتعبير عن مشكلات سُكّان الغابات باللغات الغربية .

وإنهُ لخطأٌ مختلف تماماً ، لكنه يحمل خطورة مساوية ، أن نفكّر بأنَّ في اللغة ثمة أُمور وكأنها عوالم عصيّة على الاكتشاف ، وأنَّ تنُوع اللغات يمكن أن يتحوّل إلى لغةٍ واحدة بواسطة الترجمة . وإذا كان ثمة مفاهيم عالمية ، فهي كالفروقات أو المقابلات التالية مثل « أعلى » و « أسفل » أو الأفكار ذات العلاقة بأجسادنا مثل فكرة الجوع أو الشَبَع . لا حاجة للبحث أكثر لكي نجد كم تختلف الأمور ، بما فيها مفاهيم

الخير والشر ، حتّى بين الشعوب القريبة في علاقاتها . لكن تبقى إمكانية للمقارنة بين مفهومين للخير والشر وكشف المشترك فيهما .

يمكننا لغاية الإسترشاد أن نأخذَ مجاز أو إستعارة الترجمة كصورة قائمة لإستشراف محتمل للعالم . فعلى ضوء المصطلحات النظرية الخالصة ، فإنَّ الترجمة لا ينبغي أن تكون قابلة للتحقق ، ومع هذا نجد الشعوب تخاطبُ بعضها وتترجم أو تقوم بتأويل كلمات بعضها . وفي مجال التجريد ، وعبر السفسطة ، يمكن البرهنة على إستحالة الحركة أو أي أمرٍ آخر ، لكنَّ الناس في الواقع يعيشون ويتنقلون .

وفقاً لطريقة تفكيري ، ينبغي لمؤسسة مثل اليونسكو أن لا تعزز وصول التنوع الثقافي إلى النقطة حيث لا تستطيع عندها الثقافات المعنيّة فَهْم بعضها بعضاً ، ولا أن تطالب وتدعو إلى تأكيد القِيَم العالمية والجزم بتساويها في العالم كافةً . يتمثّل الأمر الجوهري في جعل الثقافات تتواصل وتتصل . إنَّ أية ثقافة معنيّة مؤهلة ، بشكل عام ، لأن « تترجم » ثقافة أخرى عبر تعبيراتها الخاصة . ومع أن عدم الدِقة أمرٌ حتميّ ، إلاّ أن الأخطاء والتحريفات أفضل من التجاهل الكُليّ .

إنَّ هذا الأمر ينطبق حتى على اللغات المتقاربة في علاقاتها كالإيطالية والإسبانية . يعتقد الإيطاليون جميعاً بأنهم قادرون ، بنسبةٍ أو بأخرى ، على فَهْم اللغة الإسبانية ، والعكس صحيح . غير أن هنالك قرابات خادعة في اللغتين ، ومصطلحات تبدو متشابهة لكنها تعني العكس . ومع أن هذا يعني وجوب اتخاذ المرء حذره لتجنُب الأخطاء المحتملة وسوء الفهم ؛ إلاّ أنه لا يحول ، في الحياة العملية ، دون فَهْم الإيطاليين والإسبان لبعضهم على نحوٍ معقول .

**□ إنّ فَهْمنا لبعضنا أو فهمنا لتنوع الثقافات لأمرٌ يختلف عن إصدارنا لأحكام قيمة ، ألاْ توجد نقطة ما حيث على المرء أن يمتحن حُكْم الآخر عن الخير والشر ، حتى وإنْ حازَ على فهمٍ لفكرة أن الخير والشر لها مفاهيم مختلفة باختلاف الأنظمة ؟**

هذه واحدة من المشكلات الأشد أهمية . سألني أحدهم ذات مرة إنْ كنتُ أنظر إلى هذه المشكلات من خلال عينيّ عالم الاجتماع أم عالم الأخلاق . إنّ إجابتي العادية

تتلخص في أنه إذا كان عليّ أن أدرس ثقافة يُمارَس فيها أكل لحم البشر ، فإني أدرسها بعينيّ عالم الاجتماع ، محاولاً أن أفهم كيف نالت هذه العادة الموافقة عليها من قِبَل الرؤية الثقافية لأهلها . لكن ، وبالنظر إلى قناعتي ، فإنَّ عالم الأخلاق داخلي يقول لي بأن أكل البشر فِعْلٌ خاطئ . تولدُ المشكلة عندما تبدأ الثقافات بالتلاقي . لنفترضْ أنَّ قبيلةً من الغابات من آكلي لحم البشر هاجرت إلى هذا البلد . هل يجب علينا ، بعيداً عن إحترامنا لثقافتها ، أن نسمح لها بممارسة أكلها للحم البشري هنا ، أم علينا منعها لأنها مخالفة للقانون عندنا ؟

إنَّ أوضاعاً كهذه ينبغي أن تُحَلّ على قاعدة أن لكلِ حالة خصوصيتها ، وذلك بتقريرنا أين هي حدود سياسة التسامح الديني. فأنا لا أملك أنْ أُمانع في حالة فَرْض ثقافة معيّنة للخمار على الفتيات ، ما دام ذلك لا ينتهك حُرمة مبادئي الأخلاقية . إذا قامت ثقافة ما ، مثلما يحدث مع بعض الطوائف الدينية ، بتحريم نَقْل الدم للأطفال المرضى ؛ عندها تبدأ لتكون مشكلة لأن القانون في هذا البلد يقول بأنَّ على المرء مساعدة الآخر وهو يتعرّض للخطر . يجب تحريم أكل لحم البشر لأنه ينتهك نظامنا القيمي ؛ علينا أن نقول لآكل لحم البشر : « إذا جئت هنا فعليك أن تلتزم بقوانين محددة . » . يجب وضع حدود لسياسة التسامح ، لكن ثمة أمور « لا تُطاق » حقاً - كالنزعة العرقيّة ، وأكل لحم البشر ، والجريمة .. وهكذا .

أنا لا أحتمل ولا أجيز ، على نحوٍ واضح ، أن تمارَس عملية التضحيّة بالبشر في بلدي ، لكنني أجد نفسي في ورطة ومأزق إذا ما طولبت بالذهاب وغزو أو إستعمار بلد ما لوقف ذلك هناك . لقد أُضْفيت العدالة على الاستعمار عبر هذه الفكرة ، والقائلة بأن علينا الذهاب إلى بلدان الآخرين و « تعليمهم الفرق بين الصواب والخطأ » .

مشكلات كهذه ينبغي أن تُحلّ حالةً حالة ، وغالباً ما يكون الحل مسبباً للعذاب . ففي إيطاليا ، مثلاً ، برز سؤالٌ شبيه بين المواطنين حول طقوس كسر قصبة الساق لبعض المجموعات المهاجرة . عندما قَدِموا إلى بلدنا ظهرت صعوبة لأننا نعتبر كسر الساق ممارسة غير محتملة . أقترح بعض الناس بإمكانية وجود عيادات خاصة يُنقل إليها الذين يُفْرض عليهم كسر قصبة الساق . بالنسبة لي ، فإني أعتبر كسر قصبة الساق فِعْلٌ يقع في حدود الأمور التي لا تُطاق . ولكن أين هي الحدود الفاصلة

بين ما يطاق وما لا يُطاق ؟ هذا هو السؤال الصعب حقاً .

لا وجود لإمكانية إجابةٍ ليست قاسية ـ و ـ سريعة ، وإلاّ سوف ننتهي إلى غزو العالم بأجمعه من القطب إلى القطب ، لمجرّد أن هذه المجموعة أو تلك ربما تملك عادات لا تطاق بالقياس إلى معاييرنا . ثمة أسئلة ينبغي التعامل معها ، وأحياناً بألم، حالةً حالة .

**□ لقد رأينا بأن « النسبيّة الثقافية » شكلت موضوعاً خلافياً ، لكن هناك خلافاً آخر تنعكس صورته عبر صيغة معيّنة لـ « ثقافة كونية » أو « ثقافة جماهيرية» تنتشر من خلال الإعلام وما يُسمّى بـ « الصناعات الثقافية » . تَعرضت هذه الثقافة للنقد من قبل مفكرين مختلفين ، غير أن رؤيتك كانت أكثر تفاؤلاً من آراء هؤلاء الذين أسميتهم بـ « الرؤيين » ؟**

في مرحلة الستينات قمتُ بانتقاد المفكرين الذين رفضوا الثقافة الجماهيرية من خارجها دون أن يُتعبوا أنفسهم بالنظر إلى داخلها ، وشددتُ على أنَّ بمقدورنا القيام باستخدامات إيجابية للثقافة الجماهيرية هذه . إني الآن أكثر تشاؤماً من السابق لأن بإمكان أي شخص أن يرى ، مثلاً ، كيف حَطّت حرب الأسعار من سويّة البرامج التلفزيونية إلى أدنى مستوى على حساب الجودة ؛ لكنّ هذا يماثل الإعتراف بأنَّ الترجمة ممكنة ثم يتم نكران حقيقة أن ٨٠ بالمائة منها هي ترجمات مرعبة في مستواها لأنها أُنجزت بسرعة ، وذلك بسبب الأجور الزهيدة للمترجمين ، وهكذا .

علينا ألاّ ننسى بأن الثقافة الجماهيرية تعني أيضاً تسخير التكنولوجيات الحديثة من أجل التعلُّم عن بُعد على المستوى الجامعي . علينا الإنصراف إلى تعديل الثقافة الجماهيرية بكل وضوحها ، بكل منافذها التجارية مثل بعض أشكال المحطات التلفزيونية ؛ غير أنَّ الثقافة الجماهيرية تمثّل ، بالإضافة لما سبق ، فرصةً من أجل مداخل أسهل نحو الثقافة والتعليم ، وذلك من خلال ديسكات الكومبيوتر ، وأقراص الـ CD - ROM(٦) وأمثالها . لذا ، لماذا لا نتخيّل قيام اليونسكو بالمساعدة على إنشاء نظام إتصالات جماهيرية ضخم مستخدمة الراديو والتلفزيون لغايات تعليميّة ؟

بعض آراء « الرؤيين » غير مُبررة ، لكن ذلك لا يحول دون ملاحظة أن

التلفزيون والصحافة قد وقعا في أسر لولبية تجارية من الإثارة ، وأنهما يفبركان أخباراً كاذبة ويهندسان أحداثاً مثيرة وحسيّة . مع هذا فإن الثقافة الجماهيرية قامت بتعليم الأطفال كيف يبدون إحتراماً أكبر للأشجار ، وساعدت على خلق إهتمامات أوسع بالبيئة .

ثمة جوانب إيجابية لما تفعله وسائل الإعلام ، كالإهتمام المتنامي بالخطر النووي مثلاً . أذكرُ بأننا حينما كنا نحاول القيام بحملة ضد التسلّح النووي في الستينات من خلال المظاهرات والكتب ، فإنَّ الناس لم يمنحونا آذاناً صاغية . لم يكونوا يعرفون حتّى ما هو الإشعاع النووي ولا يريدون أن يعرفوا . بعد ثلاثين سنة ، والفضل للأفلام ، وللتلفزيون ، وللصحافة ـ إمتلك الجميع فهماً أفضل للتهديد النووي . وإنه من خلال الإعلام الجماهيري اكتسبت الشعوب في بعض البلدان فكرةً أفضل عن أخطار التلوّث .

ينبغي أن يُنظر إلى كلا المظهرين : فالتلفزيون قادرٌ على أن يكون موصلاً للتطرف في السوقيّة ، والإفساد ، والتفاهة ، وهكذا، لكنه في الوقت نفسه بمقدوره أن يُظهر قلق المجتمع حيال تلوّث الجو ، والتخفيف من مقاومة شروط ضبط السير مثلاً ، أو إقناع الناس باتخاذ حذرهم عن كيفيّة تخلّصهم من القمامة . هذه حقائق يجب مواجهتها ، مع الإعتراف بأنَّ بعض التكنولوجيات الحديثة التي يمكن أن تُخترع في المستقبل ربما تغيّر طبيعة الإتصالات .

كما يمكن لي القول بأنَّ بعض الإبتكارات التي بدأت لتكون إيجابية في نتائجها ربما تنقلب لتصبح سلبية . لقد بدت الملكية الجماهيرية للسيارات أمراً جيداً في البداية ، غير أن السير على الطرقات يحتاج الآن إلى مراقبة دائمة . إن المطلوب هو تجنّب أي تحاملات أو أفكار مسبقة في حين الإبقاء على اليقظة .

### □ لماذا يُطلَب من المفكرين وعلى نحوٍ مضطرد أن يكشفوا الدربَ للناس ؟

لطالما شكّلت هذه النقطة قضية ، بمعنى ما ، طوال آلاف السنين ، حيث احتاجت المجتمعات على الدوام لمن تختارهم من بين أعضائها ، كرجال الدين أو الفلاسفة مثلاً ، للقيام بدور مناقشة وبحث القيم .

بالإمكان ، بالمقابل ، أن نتخيّل عالماً يكون فيه المفكّر قناصاً ، وصيّاداً للسمك ،

ومـفكراً . لكن في الوقت الراهن ، وطالما أن المجتمع يتكون من أناسٍ لا يستطيع معظمهم أن يُكرّسوا أنفسهم لسؤال القيم هذا ؛ فإنَّ « أرض التخصص الفكري» لا بد من وجودها حيث يستمر المجتمع بدعم الذين يطالبهم بأداء هذا الدور . المشكلة تتمثّل في أنهم ( المفكرون ) بحاجة لأن يُنظر إليهم لا بصفتهم حكماء ، وإنما كقنوات حيث يتم من خلالها إيصال مناقشات القيم إلى الآخرين . هذه هي وظيفة الشعراء ، والمفكرين ، والفلاسفة : أن يتنبهوا إلى ما يحدث وأن يلفتوا النظر إليه ليتمكّن الآخرون ، بدورهم ، من التفكير فيه . إنَّ هذا الدور الذي إخترناه للمفكرين ، كما أعتقد ، أقرب لأن يكون وظيفة فسيولوجية بدونها لا يستطيع الجسم السياسي أن يعمل . كما أن النظر إلى المفكرين كحكماء هو أقرب ، بالمقابل ، لأن يكون مرضاً اجتماعياً . إنه سؤال الإعتدال ثانيةً . أما ما يتعلّق بي ، فإنّ مهمتي لا تُعتبر في أي جزء منها كأنما هي إستشارة لحكيم ، وهذا ما يدفعني لأن أتجنّب إجراء المقابلات الصحفيّة .

عن ***The UNESCO Courier***
***June 1993***

***الهوامش***

( ١ ) Civics : علم التربية المدنية : علم حقوق المواطنين وواجباتهم . ( المورد ) .

( ٢ ) Ptolemocic system : النظام البطليموسي : نظام بطليموس في الفلك القائل بان الأرض هي مركز الكون الثابت ، وأن الشمس والقمر والكواكب السيارة تدور حولها . ( المورد ) .

( ٣ ) Copernicon system : النظام الكوبرنيكي : نسبة إلى كوبرنيكوس الفلكي القائل بأن الأرض والكواكب السيارة تدور حول الشمس . ( المورد ) .

( ٤ ) إن كلمة Timper تعني بالإضافة إلى الأشجار ، الغابات والخشب أيضاً . ( المترجم ) .

( ٥ ) كلمة wood تعني الخشب كمادة متحولة إلى شتى الاستخدامات العملية ، لكنها تعني الغابة أيضاً . ( المترجم ) .

( ٦ ) أقراص CD-ROM جاءت كإنجاز متطور عن ديسكات الكومبيوتر ولغايات إستخدام الكومبيوتر ، وتملكُ سِعَةً هائلة بحيثُ تتضمنُ محتويات الموسوعة البريطانية كاملة مثلاً . بالإضافة إلى كونها تحمل خاصيّة الفلم السينمائي صوتاً وصورة . ( المترجم ) .

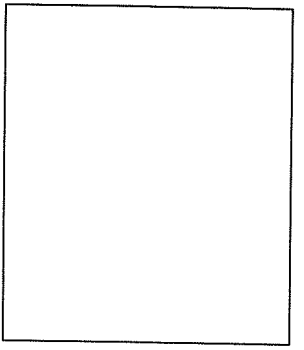

# 3 كاميليو خوسيه ثيلا

أجرى الحوار: رامون لويس أسونيا

كاميلو خوسيه ثيلا روائي إسباني حاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩ .
*يتحدّث ثيلا (المولود عام ١٩١٦ في غاليسيا) عبر هذا الحوار عن عملية الإبداع الأدبي، ودور الكاتب في المجتمع ، والتأثير العالمي الواسع للأدب المكتوب بالإسبانية ـ الأدب الذي اغتنى بإسهامات ثيلا إغتناءً رئيسياً .*

**ـ مقدّمة المجلة ـ**

## الأدبُ ضرورة ،
## وغايته ليست تصحيح العالم !

**□ كيف تحكم على الأدب الإسباني خلال العقود القليلة الماضية ، وما رأيك بـ «الدوي» المصاحب لأدب أميركا اللاتينية ؟**

أكرهُ إصدار الأحكام على أي شخص ، كما أنني لست ناقداً تاريخياً ولا أدبياً. فنحن الفنانون المبدعون قُضاة ونُقّاد رديئون ما دمنا ننصرف إلى استحسان أي شيء يتماثل مع نظرتنا الخاصة للفن ، رغم أن أمراً كهذا يعتبر وقاحة منّا.

على أي حال ، يمكنني القول بأن الروائيين الإسبان من أبناء جيلي ـ ميغويل ديليبيس ، وتورنتو بالأستر ، وآنا ماريا ماتوت ، وخوان غويتسولو ـ على سبيل المثال ـ هم روائيون ممتازون ، لا بل أفضل من جيل الكتّاب الشباب .

أما فيما يتعلّق بـ «الدوي» المصاحب لأدب أميركا اللاتينة ، فأعتقد أنه ، بالأساس ، قد جاء من فعل الناشرين . البعض من الكتّاب ممن هم في غاية الأهمية قد أُهملوا . ليس ثمة سبب للإعتقاد بأن نجوم اليوم من روائيي أميركا اللاتينية أفضل من أسلافهم مثل رومولو خالّيغوس ، وبينيتو لينخ أو ميغيل أنخل أستورياس ؛ هؤلاء الذين ذووا للأسف في النسيان. كوْن الواحد من أميركا اللاتينية لا يعني بالضرورة أنه روائيٌ عظيم ، وهذا أمر مؤكد . كما أعتقد أنه جليٌ كذلك .

**□ هل تعتقد أنه بحصولك على جائزة نوبل سيكون ثمة تركيز مباشر على الأدب الإسباني ؟**

يمكن أن يُحْدث حماسة للأدب مثلما حدثت الحماسة للإسبان تجاه لعبة كرة المضرب إثر نجاح مانويل سانتانا ، أو ولعهم بكرة القدم جرّاء مباريات الفوز لفريق ريال مدريد ، وولعهم بالغولف بسبب بطولات سيفريانو بالاستيروس .

**□ لقد عشْتَ العصر الذهبي للأدب مع كتّاب أمثال كامو ، وهكسلي ، ومورافيا ، وسارتر في أوروبا . ومع همنجواي، ودوس باسوس ، وفوكنر ، وشتاينبك في الولايات المتحدة . على أي نحو تقيّم تلك المرحلة ، وكيف ترى إلى عملك فيها ؟**

كانت مرحلة إستثنائية وإن عملي لمرتبطٌ بها . كنت دائم القول بأننا نتأثر بالمناخ المحيط بنا . فعندما نشر ألبير كامو ( الغريب ) وقمت أنا بنشر ( عائلة باسكوال دوارتي ) [1] ، وصل الأمر ببعضهم إلى كتابة رسائل دكتوراه عن التأثيرات المتبادلة بين العملين . فيما بعد ، حينما بتنا أصدقاء ، وجدنا هذا الأمر مسلياً لأنه في ذلك الوقت، عند نشر روايتينا ، كنا مجهولين تماماً ، وبالتأكيد لا نعرف بعضنا .

**□ لقد كرّست حياتك للأدب . هل تساءلت يوماً عن الغاية التي يُسخّر لها الأدب ، وماذا يمثّل للناس ؟**

إن الأدب ، في حالتي أنا ، ضرورة . إذا ما أردت أن أقيم اتصالاً ، مع ذاتي أو مع الآخرين من البشر ، فينبغي أن يكون من خلال الكلمات . ففي تاريخ الإنسانية ، فإن اللحظة التي نطق بها أول إنسان الكلمة الأولى لهي لحظة أكثر أهمية من اكتشاف أميركا ، أو الهبوط على القمر ، أو ابتكار علوم الكم ، أو نظريات الذرّة .

ما الغاية من الأدب ؟ ليست بالتأكيد تصحيح العالم . هذا ليس دور الكتّاب . علينا أن نتذكر بأن الأدب واحد من الفنون الجميلة . والغاية منه هي استخراج الفن من الكلمات ـ ذلكم كل شي . بالنسبة لفئة من الناس فإن الأدب هو كل شيء ، ذلك لأنه يمنحهم معنى البقاء ، أكثر بكثير مما تقدّمه الزراعة . الكلمات تدوم أطول من الأحجار كثيراً .

**□ كيف تكتب ؟ كيف تقوم بإعداد رواية ما ، مثلاً ؟**

ليتني أعرف ! الرواية صيغة فنية دائمة التحوّل والتغيّر لم يستطع أحد أن يتدبر حقاً أمر إيضاحها وتعيينها . الرواية نثرٌ يرافقه عنوانٌ بالإضافة إلى كلمة « رواية » تلتصق به ـ عدا عن أن الرواية يمكن أن تُكْتَبْ شعراً ، طالما أن قصيدة EL Cantar de Mio Cid [٢] هي رواية .

تأتيني الرواية تلقائياً . إنها ليست بالشيء الذي أتهيّأ له بتأنٍ . عندما أحوز على رواية داخلي ـ يمكن أن تظل داخلي عدة سنوات ـ فإنني لا أفكّر بكيفية تطويري لها . عند نقطة ما تبدأ بالتشكّل من تلقائها ، وبخطوة ثابتة ، بعد فترة ثمانية إلى عشرة شهور . أنا لا أؤمن بكتابة سيناريوهات تمهيدية . إذا كانت الشخصيات حيّة فما عليك ، عندها ، إلاّ أن تفتح لها الباب وانظرْ ماذا تفعل . إن قصة فعل الشخصيات هي الرواية .

**□ كونك كاتب منهجي ، هل تؤمن بالإلهام ؟**

كلا ، ليس في كتابة الرواية ، مع أن الإلهام يمكن أن يكون مفيداً في الشعر العاطفي الغنائي . قال ديستويفسكي ذات مكان أن العبقرية مسألة جَلَدٍ واحتمالٍ طويلين . عندما تكون منهمكاً بكتابة رواية فعليك أن تعمل ساعات وساعات، يوماً بعد يوم. كما أنك تحتاج قوة بدنية كبيرة حتى تصل إلى النهاية .

**□ قيل بأن الهوية الإسبانية هي خلاصة إندماج الثقافات المسيحية والعربية واليهودية . هل ينطبق هذا على الأدب الإسباني أيضاً ؟**

كتبتُ ذات مرة كتاباً أسميتهُ ( اليهود ، والموريّون [٣] ، والمسيحيون ) . أثمة صلة بين هذا وسؤالك ؟ لقد كان لإسبانيا بعض الكتّاب المارّانويين Marrano [٤] العظماء الذين تحدّروا من اليهود ، مثل سرڤانتس والقديسة تريزا ـ أفيلا . أجل ، لقد كان هناك إنصهارٌ حقاً ، ولا أعتقد أن ثمة إسباني واحد يمكنه وضع يده في النار وأن يقسم بوقار بأنه لا يملك نقطة دم يهودية أو موروّية في عروقه . لقد اقترف كلٌ من

فرديناند وإيزابيلا [٥] خطأً صارخاً عندما قررا طرد الموريين الذين كانوا يشتغلون في الأرض ، واليهود الذين يتاجرون ويعملون بالصرافة وصياغة المجوهرات ، بينما يحترف المسيحيون النبلاء الحرب . لحسن الحظ أن قلة قليلة منهم قد غادرت البلاد ، وأولئك الذين بقوا هم إسبانيو اليوم .

ثمة شطران شعريان رائعان كتبهما فرناندو فيلاليون :

*يا جُزر غوادا لكويفر* [٦] ،

*أين هم الآن الموريّون خاصتك ، الذين أبوا أن يغادروا ؟*

**□ إن وثبة الثقافة الإسبانية إلى الأمريكيتين قبل خمسة قرون قد جعلت منها ثقافة عالمية ...**

لقد كانت في الأصل ثقافة عالمية ، ما دامت حاضرة قبل ذلك في إيطاليا والأراضي الواطئة ، على الأقل . لقد اكتملت شخصيتها العالمية بالأحرى .. إنْ أحببت .

**□ هل تعتقد أن الإسبانية كلغة ، بإرثها غير العادي ، هي الآن دقيقة جداً ومطواعة بما فيه الكفاية ، أو غنية ومتنوعة بما فيه الكفاية لتنافس الإنجليزية ؟**

خلال بضعة سنين ـ لا أعرف كم ستكون ـ لن يتبقى سوى أربع لغات : الإنجليزية ، والإسبانية ، والعربية ، والصينية، وأنا لا أضعهم هكذا ضمن ترتيب دالّ . أما بقية اللغات فسوف تتراجع لتكون مجرّد لهجات مَحْكيّة أو شعراً غنائياً . وإنه لقولٌ حقيقي أننا في إسبانيا لم نقم بصيانة اللغة الإسبانية بما يكفي من الفاعلية والنشاط ـ ولا أعني بالإسبانية القشتالية فحسب ، تلك المحكيّة في قشتاليا وحدها . نحن لا نملك الإيمان بها ، ومع هذا فهي تعتبر واحدة من لغات العالم الأساسية . ينبغي على حكومتنا في مدريد أن تتعلم درساً من المحاولات البطولية التي يبذلها الباسكيون والكتالانيون لضمان بقاء لغتهما .

**□ ما الإسهام الذي قدّمته الرواية الإسبانية ، من وجهة نظرك ، إلى الأدب العالمي ؟**

كنت دائم الإيمان والتأكيد على أن الرواية ولدت في إسبانيا . إن EL Conde Lucanor ، وهو أول كتاب خرافات ذات مغزى في أدبنا ، تمت كتابته قبل سنوات عدة من عمل الديكاميرون لـ « بوكاشيو » ، والذي ينظر إليه على أنه أول رواية حقيقية .

ضمن هذا الإعتبار ، فإن الرواية الإسبانية لها التأثير الأسبق على الأدب العالمي . ثمة مقالة كتبها جيرترود ستاين ـ كما أذكر ـ أظهرت بأن الرواية الحديثة إنما تأصلت في تقاليد الجوّالين الإسبانية . جميع الروايات ، منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم ، بما في ذلك الروايات الأميركية الكبيرة لفترة العشرينات وتلك العائدة إلى جيل « ٩٨ » (٧) الإسباني ، ما هي إلاّ فروع لنموذج الجوّالين .

إن سرفانتس علامة في تاريخ الأدب ، لكن دون كيخوته علامة أكبر . كثيراً ما تساءلت عمّا إذا كان سرفانتس ، مثل هوميروس ، هو مجموعة من الناس يكتبون تحت إسم واحد ، ما دامت توجد مثل هذه الفجوة الهائلة بين دون كيخوته وبقية أعماله، كـ Novelas ejemplares . إن دون كيخوته عمل ناتج عن عبقري ، حتى ونحن نقرأه اليوم ونرى عيوبه الكثيرة فإننا نلحظ بإنها إلهامات ذكية جدا بحيث شكّلت أرضيات للتفكير في احتمال كونها عيوب مدروسة وناتجة عن تقصّد . أنا لا أدّعي هذا : لكنني أتساءل وحسب .

إتساقاً مع قولي هذا ، فإني أعتقد بأن Quevedo هو الكاتب الأعظم في اللغة الإسبانية ، ولسوف يظل هكذا لأمد طويل . عندما أفكّر بدون كيخوتة ، و Quevedo ، وشعراء القرون الوسطى ، ورواية الجوّالين ـ خاصة lazanillo de Tormes ـ وبجيل الـ « ٩٨ » وجيل ١٩٢٧ من الشعراء (٨) ، فإني أشعر أن الأدب الإسباني لطالما كان أدباً عظيماً ولا يتناسب أبداً مع إنجازات إسبانيا الرديئة في الإقتصاد والسياسة .

لقد فاقت الإسهامات الإسبانية ، في القرن العشرين ، وضمن مجالات الرسم والنثر والشعر ، ما قدّمته كل من فرنسا، وانجلترا، وألمانيا ، وإيطاليا . بيكاسو ، ميرو ، دالي ، وتابييز ماثلون للجميع ، بينما لديك في الأدب شعراء أمثال ميغيل فرناندیز ، ولوركا ، وجيل ١٩٢٧ ، وكتّاب نثر مثل أونامونو ، وفالأ ـ أنكلايان ، وباروجا ، وأزورين ، ورامون خوميز دي لاثيرنا ـ والقائمة تطول .

**□ ثمة حديث متزايد خلال السنوات الأخيرة عن « القرية العالمية » ، وعن النزعة باتجاه ثقافة عالمية ...**

ـ أنا لا أؤمن بهذا .

**□ ما الذي تراه كعوامل قادرة على منح انتشار عالمي لعملٍ محدد ينتمي إلى أدب محلي ؟**

ـ الموقع الجغرافي وحبكة الرواية أقل أهمية مما يكمن تحت الحدث الذي تقوم به الشخصيات ، لأنه ، بعد قول وفعل كل شيء؛ فإن الإنفعالات العظيمة والمهيمنة هي التي تتصف بالعالمية . لقد تركّزت رواية الجوّالين الإسبانية على أرض إسبانيا ، تماماً مثلما تحرّكت الروايات الروسية العظيمة في أجواء السهوب . ومع هذا ، فإن هذه الروايات تُقرأ في أرجاء العالم .

**□ نحن نعيش ضمن ثقافة تسودها الصُوَر وليس لدينا كثير من الكتب المنشورة . هل تعتقد بأن الكلمة مؤهلة للصمود أمام انقضاض الإعلام المرئي ـ المسجّل ؟**

أنا لست على يقين بأن الثقافة المعاصرة « تسودها » الصُوَر . كما لا أؤمن بأن للتلفزيون تأثيرة الإفسادي أو التسخيفي على الناس ، أو أن صورة واحدة تساوي آلاف الكلمات المكتوبة . إنني أؤمن بأن أي شيء قادرٌ على إثارة الإهتمام بالثقافة هو شيء يستحق العناية ، وأن اهتماماً كهذا يمكن إثارته عبر التلفزيون .

الكتابة سوف تُبقي على التلفزيون ، تماماً مثل عدم ورود أمر القضاء عليها بالإدراك الحسيّ الملموس ، ذلك لإن المعاني المُثارة مختلفة . أنا لا أعتقد بأن معنى واحداً ينبغي أن يطغى على المعاني الأخرى . الأمر المهم هو أن تعمل المعاني معاً .

*The UNESCO Couurier* عن

*May 1990*

***الهوامش***

( ١ ) نشرت الترجمة الإنجليزية في الولايات المتحدة عام ١٩٦٤ . كما ترجمت أعمال أخرى لكاميليو خوسيه ثيلا إلى الإنجليزية منها : رحلة إلى القرية ( ١٩٦٤ ) ، السيدة كالدويل تتحدّث إلى إبنها ( ١٩٦٨ ) ، وخلية النحل ( ١٩٨٣ ) . هامش المحرر .

( ٢ ) ؟

( ٣ ) Moors : المسلم المغربي الأندلسي ( المورد )

( ٤ ) Marranó : اليهودي أو المسلم الأندلسي الذي تنصّر ( المورد )

( ٥ ) ملك وملكة إسبانيا اللذان قادا إلى دحر العرب المسلمين وسقوط الأندلس كاملة . هامش المترجم .

( ٦ ) أكثر أنهار إسبانيا أهمية ( طوله ٣٧٥ ميلاً ) ينبع من الغرب عبر الأندلس ليصب في المحيط الأطلسي ( قاموس الموسوعة ).

( ٧ ) روائيون وكاتبو مقالات إسبان شخّصوا أمراض بلدهم خلال الحرب الإسبانية ـ الأميركية عام ١٨٩٨ حيث أطلق عليهم لقب ( جيل «٩٨» ) . هامش المحرر .

( ٨ ) جماعة من الشعراء الإسبان المشهورين عرفت بـ« جيل الـ ١٩٢٧ » . هامش المحرر .

# الباب الرابع

## الشـرق الأوسـط

□ **الطاهر بن جلّون**

**أن تقف خارج القطيع**

□ **يهوذا عميخاي**

**الشعراء كتيبة مُشاة !**

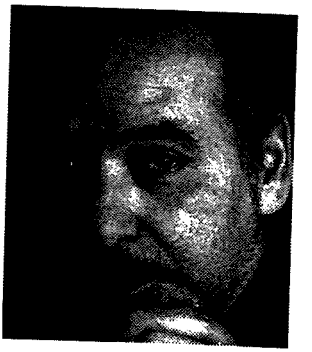

# 1 الطاهر بن جلّون

الطاهر بن جَلّون شاعر وروائي مغربي جَسّرَ ما بين ثقافتين ، العربية والفرنسية . باتَ عام ١٩٨٧ اوّل كاتب عربي يحوز على الجائزة الأدبية الفرنسية الأكثر اعتباراً ، وذلك عندما حظيت روايته **الليلة المقدسة** *La Nuit sacrée* ( ليلة القَدْر ) بجائزة غونكور .

ظهرت الترجمة الانكليزية **لليلة المقدسة** عام ١٩٨٩ تحت ذات العنوان *The Sacred Night* ، كما نُشِرَت العديد من اعماله الاخرى بالإنكليزية ، ومن بينها **طفل الرمال** / ١٩٨٧ ، **ويوم صامت في طنجة** / ١٩٩١ .

بيقظة وانتباه على آمال ومعاناة الرجال والنساء العرب ، وعلى الحرية الناشطة وسع العالم ، يتحدّث الطاهر بين جلّون هنا عن أعماله وارتباطها بالحقيقة والعدالة من حيث وقوعهما في الشَرك .

## أن تقفَ خارجَ القطيع

□ **فليكن السؤال في البداية ، أنت كاتب عربي يكتب بالفرنسية . لماذا ؟**

إنني أنتمي إلى فئة معينة من الكتّاب ، أولئك الذين يتكلمون ويكتبون بلغة تختلف عن لغة أهاليهم . أنا مغربي، عربي . ثقافتي عربية ، إسلامية ، لكنها الفرنسية، لغة القوة الاستعمارية السابقة ، هي التي عبّرتُ من خلالها عن نفسي بعفوية عندما بدأت أكتب . هذه مفارقة تنشأ بسبب وضعٍ تاريخيّ . لقد عَمِلَتْ المغربُ ، التي كانت محمية فرنسية من ١٩١٢ حتى ١٩٥٦ ، على الانفتاح على الثقافة الفرنسية دون أن تفقد أي جزء من هويتها . لا أشعر بالذنب لأنني أعبّر عن نفسي بالفرنسية ؛ كما لا أشعر بأنني أستكمل عمل المستعمرين . في الحقيقة ، إنّ ما أعبّر عنه بالفرنسية يمكن التعبير عنه تماماً بأي لغة أخرى .

على أية حال ، إنّ حقيقة كوني لا أستخدم لغة شعبي قد تعني بأنني قادر على حيازة حُريات حيال موضوعات معينة لا تسمح لي اللغة العربية يتناولها ، لغة القرآن - التي تُهوّل عَليّ ذلك . فمن جهة ثمة تابوات وتحريمات ، ومن جهة أخرى ثمة فهمي الخاص للياقة والاحتشام . من الصعب علينا التعامل بقسوة مع اللغة العربية .

□ **هل تعني بأن لغتك الأُم هي لغة التقاليد ، لغة القِيَم غير المتغيرة ؛ وأنك من حيث اجتراحك أرضية جديدة وسبركَ لاتجاهات أخرى إنما تحتاج إلى لغة أجنبية للتعبير عن نفسك ؟**

أجل ، إنها تساعد وتحرر الخيال . إنّ الشعر ، بالنسبة لعديد من الناس ، هو اشتغالٌ بالكلمات ، باللغة . وأنه من الصعب تصور شاعر يعبّر عن نفسه بلغة مغايرة للغة شعبه . لكن ثمة فَهْم آخر للشعر يبدو لي أكثر اتساعاً وليونة . فالشعر في نظري موقف ـ حالة وجود ، أسلوب لمواجهة الحياة ومواجهة التاريخ . الشعر ليس مجرّد مجموعة كلمات مختارة لتكون على علاقة ببعضها . إنه شيء يذهب أبعد من هذا ليصار إلى توفير لمحات من رؤيتنا للعالم . إنه يقوم بذلك من خلال الصور ، من خلال كَونٍ موسيقيّ . وهذا الكون يمكن التعبير عنه على نحو ممتاز بكلمات وألفاظ ليست تلك العائدة إلى اللغة الأم.

إنني ضيف اللغة الفرنسية . ولدت قصائدي بالفرنسية جرّاء تفاعلي مع اللغة الفرنسية ، والتي هي ذات اللغة لشاعر فرنسي .

**□ بالضبط ، أي ضرب من التكيّف ذلك الكائن بين اللغة الفرنسية وعالمك ، وبين عالمك واللغة الفرنسية ؟**

ليس هنالك من تكيف ، بل هو زواج . ضرب من التعايش دخلته مع اللغة الفرنسية والذي يعني بأنني أمنح هذه اللغة الديكارتية (١) اليقينية إحساساً آخر ، وذاكرة أخرى . أني أقدّمها إلى عالم لا يمكن بدون ذلك أن تنال الاعتراف منه . إذا أنت أرسلت عالم اجتماع فرنسي ، أو باحث أو صحفي إلى المغرب، فإنه لن يرى نوع الأشياء التي أراها أنا نتيجةً لانغماسي العميق كعربي ومغربي . إنّ المتقصي الفرنسي لن يرى تلك الأشياء ولن يكون قادراً على التعبير عنها .

بمعنى ما ، نحن الكتّاب العرب الذين نكتب بالفرنسية المانحون الضيافةَ للغة الفرنسية ! . نحن لم نتبناها وحسب ، بل دعوناها لتدخل علينا ، لقد نقلناها ، أخذناها إلى أماكن ليست معتادة على الذهاب إليها . أحياناً تتعرّض للضياع ، لكن غالباً يكون الخير لها لأنها لغة في غاية الصرامة على نحوٍ ما ، إلاّ إذا أُخِذَت من يدها بواسطة شعراء عظماء مثل مالارميه ، وبودلير أو رامبو . لقد أحال جان جينيه الفرنسية إلى أميرة متمردة . غير أن القليلين من الشعراء الفرنسيين فعلوا مع اللغة ما فعلهُ شعراء مثل كاتب ياسين أو ايميه سيزار ، هذين الشاعرين الفرانكوفونيين الكبيرين . هؤلاء

هم كُتّاب ذهبوا بعيداً في الإبداع ، والتجريب، وكحرفَيين في اللغة .

□ **تصورات مختلفة ؟ أصوات مختلفة ؟**

هو نمط مختلف فوق كل شيء . إنّ الشعر شكل رياضي ، وعلاقة دقيقة جداً وعالية المستوى مع الكلمات . تتمثّل عبقرية إيميه سيزار في معرفته كيف يختار الكلمات بدقة مذهلة وتزويجها وفق طريقة تنتج على إثرها صوراً غير متوقعة . وبعمله هذا إنما يخلق تبصرات جديدة داخل المعنى تكون مفاجئة وسامية . هذا هو الجمال ، شيء لا يمكن تفسيره أسلوبياً . الجمال هو أوّلاً وبشكل رئيسي انفعال وعاطفة . عندما قرأت قصيدة ايميه سيزار Cahiers d'un retour au pays natal لأول مرة ، بتُ مسحوراً . وحدث الشيء نفسه عندما اكتشفت *نجمة* كاتب ياسين . ربما تكون حساسيتي الخاصة هي التي تقودني صوب هؤلاء الكتّاب الذين هم نسيج وحدهم .

□ **بالنسبة لكتّاب مثلك ومثلهم ، هل كان للكتابة بالفرنسية تأثيرها في توسيع دائرة القرّاء أم في تضييقها في البلدان التي ولدتم فيها ؟**

قد يبدو الأمر ناشزاً ، لكن الكتابة والنشر في فرنسا أتاحا لي القدرة على التواصل مع جمهور أعرض، حتى في المغرب . وهذا الجمهور يقرأ لي بالفرنسية مثلما يقرأ لي بالعربية . إنّ عدد الذين يقرأون لي بالفرنسية أكبر ، وربما يعود هذا إلى أنهم يريدون التوجه إلى النصّ الأصلي . غير أنه ينبغي عليّ القول بأن النشر العربي يعيش فوضى كبيرة هذه الأيام بحيث أنني لم أجد لنفسي قُرّاءاً في العالم العربي . إنّ القرصنة وإعادة الطبع بغير إذن يسببان أذى كبيراً . فالقراصنة لا يسرقون الترجمات وحسب ، بل يتلاعبون بها بحيث يُشَوّه عملك كما تسوء علاقتك مع الجمهور . ناهيك عن التنويه بالبلدان التي يُصار إلى تحريم الكتب فيها بكل معنى الكلمة ، وببساطة ، بسبب من تلميحة جنسية أو سياسية عَرَضية ، على سبيل المثال .

أعتقد بأن النشر في العالم العربي يعاني ، بالعموم ، من وضع رديء . وأن ما يُنشر هناك لا يتم تقييمه وفقاً لمعايير نقدية جادة . كميات كبيرة تُطبَع . بعضها

جيد، لكن معظمها رديء . ثمة فوضى تعكس وضعاً عاماً .

□ **بأي معنى ؟**

العالم العربي بأكمله يعيش في قبضة أزمات حقيقية طوال أربعين عاماً شاذاً . أقول « قبضة » لأن الأزمات تحولت إلى حالة وجود تتحكم بالناس وتجدبهم ، وتشل حافز الإبداع فيهم . كأنما العالم العربي لم يجرّب ألَماً كافياً ليثمر كُتّاباً كباراً كديستويفسكي أو كافكا ، حيث ولدا من المعاناة والذل . ربما لم نصل بعد إلى قاع الهُوّة .

ليس لدينا مثقفين كُثر بمقدورهم التحدّث عنّا على نطاق دولي . ليس لدينا كُتّاباً معترف بهم ، محترمون ومحبوبون خارج العالم العربي . بقية العالم كما يبدو باتَ مهتماً بوجود نجيب محفوظ عندما فاز بجائزة نوبل قبل سنتين . غالبية الناس لا تكترث بالعالم العربي إلاّ عند وقوع المشكلات . مَن في أوربا يعرف أعمال يوسف إدريس ، أو إدوار الخراط وشاكر السيّاب ؟ محمود درويش معروف في أوروبا فقط للمساندين للقضية الفلسطينية ، وليس لجميعهم حتّى .

□ **إنك لم تقم بالتحديد ...**

إذا لم يكن لدينا مثقفين أصحاب مكانة دولية ، فإنّ السبب في ذلك يعود إلى أننا نعيش حالة توسُّط معمقة ، نتدلى في الهُوة دون ملامسة القاع ، كما قلت الآن . هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، لأن العالم لا ينظر إلينا برغبة صِحيّة للمعرفة . السببان متكاملين ، كما أعتقد .

□ **لنتفحص السبب الأوّل بدرجة اقتراب أكبر . ما الذي يقف في وجه التفكير الخلاّق ؟ الموقع المشغول بواسطة المثقف ؟**

بالنسبة لي فإنّ على المثقف ، رجل الفكر ، رجل الشك والتحليل ، أن يُعطي من ذاته الأفضل . ربما يجد نفسه في واحد من وضعين بارزين : إما أنه يعيش في بلد

تسود فيه الحرية ـ الحرية الحقيقية لا الحرية الزائفة ـ، أو في بلد يضطره القمع إلى نوع من الهيجان لأنه لم يعد بقادر على احتمال الإذلال ، والخوف ، والصمت . في كل من هاتين الحالتين بإمكانه أن يبدع .

لكن ربما يجد المثقف نفسه أيضاً في وضع غائم ، بغير تحديد ، وملتبس . هذه هي حالتنا على الأغلب . ما الذي حققناه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ؟ لقد أسسنا، أو بالأحرى سُمح لنا بتأسيس أنظمة بورجوازية صغيرة حيث كل شيء فيها عادي ، ومتوسط . ففي هذا الوضع من « العادية » ، الذي أفضل تسميته بالتوسط ، يحاول المثقفون الإستمرار. غير أن وضعهم في غاية الصعوبة . هؤلاء الذين امتلكوا الشجاعة للإفصاح عن مواقفهم غالباً ما دفعوا ثمناً باهظاً جداً . يجب علينا تقديم الإجلال لهم .

**□ أليس هنالك أيضاً عادة « التفكير معاً » ، والخشية من أن تكون مُلاحَظاً، من الوقوف خارج المجموعة على نحو واسع ؟ يشعر الناس بأمان أكبر ، في النهاية، ضمن الوضع التوسطي .**

هنالك ما هو ثابت ، شيء تجده في كل مكان . إنّ المثقف ، ككينونة مفردة ، وكمخلوق وحيد ، ليس في الحقيقة مُلاحَظاً تماماً . إنّ المُلاحَظ حقاً ، حتى اليوم ، ومهما يمكن أن يقوله الناس ، هو ما يكمن وراء المثقف : العشيرة ، العائلة ، القبيلة ، الناحية أو القرية ؛ ولكن ليس التعبير الناتج عن فردانية المثقف . ومع ذلك ، فإنّ الحضارة الحديثة ليست ممكنة إلاّ حين تقبل بوجود الكائنات المفردة وبتعبيرهم عن أنفسهم بحرية .

عندما يعبّر شخص ما ، في مجتمعاتنا ، عن عدم موافقته على الإجماع العام ، وعندما لا يعد / أو تعد بعد كواحد / أو كواحدة ضمن القبيلة ؛ إذّاك يتم رفض الشخص . بالإمكان سماع صوت المثقف ضمن جوقة تقوم بالغناء بانسجام على نحو مختلف . وهذا أمر لا تبرير له .

بالطبع ، ثمة درجات أيضاً ، وفروقات دقيقة ، وخطوات أبعد . تبدو لي مصر، مثلاً ، أنها تتقدّم في تحطيم هذه الطريقة الأبوية . وربما يتجلى السبب في كونها بلداً

غائرة في التاريخ ولأن تجربتها في الديمقراطية الحديثة تعود إلى ١٩٢٣ . . . إنّ لمصر ريادة التقدّم ، من وجهة نظر تاريخية ، كما كانت تملك الوقت لتدريب الذهن على تمارين المواطنة . هي البلد التي عانت مِحَناً أكثر من الآخرين كيما تصل إلى ما هي فيه الآن .

وللإنصاف ، علينا أن ننوّه بالاختراقات الخاصة والاستثنائية في بلدان عربية أخرى . غير أن الأمر المؤكد يتمثّل في أن هنالك لا تزال طريق طويلة بانتظارنا . فالذاتية ما تزال مستنكَرَة بشكل عام . والناس لا يتفهمون بأن الكاتب أو صانع الفيلم إنما يسبر ذاته ويعبّر عنها عَلَناً .

**□ لنأخذ كمثال المطربة المصرية الكبيرة أم كلثوم . عندما غَنّت قامت بملامسة أوتار الأفئدة لعشرات الملايين من العرب . . أهذه ذاتية أم لا ؟**

إنه لشيء يقع ما بين الذاتية والقيم المشتركة على نطاق واسع . لقد لعبت على مفتاح المشاعر ، لكن هذه المشاعر تساوقت مع النماذج أكثر من اتساقها مع العواطف التقليدية المألوفة . نحن لم نقم بإظهار إلاّ القليل جداً من العالم الخاص . إنّ أغانيها أكثر ترسخاً في ما يمكن أن تسميه بـ « الذاتية المنتقاة » .

**□ إنك تقارن بالطبع المجتمعات الغربية بالمجتمعات العربية . وإذا لم يتم تصوير المثقفين وإظهارهم على نحو كبير في غالب الأحيان في العالم العربي ، فما السبب في هذا وما الذي يمكن عمله إزاء معالجته ؟ فالمثقفون والكتّاب لعبوا دوراً كبيراً في تغيير الغرب .**

أنا لا أرى أي تغيير ، في هذه اللحظة ، يمكن أن يحدث من خلال المثقفين . وذلك عائد للسبب البسيط والبائس والمتمثّل بالفجوة القائمة ما تزال بين الشعوب العربية والمثقفين العرب .

**□ ما تعليلك للروابط التي قرّبت بين فولتير والفلاحين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ؟**

لقد وجِدَت على الدوام ، وفي كل مكان ، علاقة جَدلية وأحياناً عنيفة بين المثقفين والناس . لكن الأمر المهم هو وجوب وجود علاقة بشكل من الأشكال . في العالم العربي ، ومنذ التمزقات الثقافية الناتجة عن الاستعمار ، لم يعد هنالك من صِلة بين عادات الناس الثقافية وطُرُق التفكير والإبداع عند المثقفين الحديثين . إنهما عالمان منفصلان . والمثل الوحيد الحاضر في الذهن ، خلال السنوات الأخيرة ، على الانسجام الملحوظ بين الناس والمثقفين ، إنما هو حالة الموسيقي الشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم في مصر . ومع هذا ؛ فإنَّ رسالتهما قد انتشرت عبر الأغنية الشعبية المسجلة على الأشرطة . ولو كانا كاتبين في برج عاجي لما كان هذا التكافل قد حصل .

أود أن أضيف أنه ، رغم شعبيتهما ، إلاّ أنها شعبية ذائعة وسط تيّار للرأي مثقف ومناضل . إنهما لم يدخلا عبر مجاميع الفلاحين وإنما في الانتلجنسيا بالمدلول الأعرض . لم يقتصر ذلك على المثقفين ، والمفكرين ، بل مئات ألوف الناس القادرين على قراءة الصحف ، والذين يشاهدون التلفزيون ، والذين يعيشون في المدن ، وربما الذين بمقدورهم السفر ... الذين ، على أية حال ، يتأثرون بالسينما ، والراديو ، والتلفزيون .

لو كانت الظروف ملائمة ، فبإمكان الكتّاب ، والرسّامين ، والنحاتين ، والشعراء أن يكون لهم تأثير على هذه المجموعات . لكنهم لا يستطيعون الوصول إلى مجاميع الناس الكبيرة ، وأوّلهم الفلاحين . ربما يقدرون على هذا بالتدريج، إذا حاول الإعلام إشهارهم ومساعدتهم على إيصال رسالتهم ، من خلاله ، لأكبر عدد ممكن . لكن القاعدة تتمثّل في أن الإعلام مفتوح لهؤلاء الذين يحوزون على مادة خالية من أي مطالبة ، مادة محايدة ـ الممثلون والمغنون .

إنهم يذيعون ، وعلى مدار النهار ، أغان متملّقة تولّد أيديولوجية منحطّة . الناس يشاهدون اليوم هذا النوع من المواد فقط . والنتيجة ، أن معظم المثقفين أصحاب القيمة لا خيار لهم سوى المُضي بانجاز أعمالهم بصمت ، بعيداً عن الأضواء . بالنسبة لي ، فإني لا أعتقد بأن ثمة أي خطأ عند اتخاذ هذا القرار ، آملاً في أن الأجيال المستقبلية ستكتشف عمل المرء وتحبه .

□ **إذا كنت تعتقد بهذا المقدار الضئيل المُنتَظر من المثقفين في هذه المرحلة ، فمن أي سيجيء التغيير ؟**

فلنأخذ مثال أوروبا . حتى وقت قريب جداً كانت توجد ثلاث دكتاتوريات قوية في أوروبا : إسبانيا ، والبرتغال ، واليونان . ولقد بدا مستقبل هذه البلدان مغلقاً تماماً، وكان من المستحيل رؤية ما يمكن أن يفعلوه . ومع هذا ولدوا من جديد ، بالاستناد أساساً على شرعية سياسية مستحدثة . لقد تقبلوا في النهاية الفكرة البسيطة للغاية القائلة بأنك إذا أردتَ قيادة بلد ، فعليك أن تعقد مؤتمر تشاور مرحلي يقوم الناس من خلاله بعرض برامجهم المختلفة التي تمكنهم من حيازة السلطة .

يبدأ كل شيء عندما تكون السلطة غير مقدسة ، وعندما يلتزم السياسيون بهذا ، وليس لأنهم اشتروا أفضل البنادق الآلية أو اختاروا اللحظة المناسبة للانقلاب على رفاقهم ؛ بل لأنهم يملكون رؤية للمستقبل . يملكون برنامجاً لصالح الذين أحرزوا الأغلبية من خلالهم ويمحضونهم الثقة .

□ **ولكن ، ألستَ تضع العربة أمام الحصان ؟**

ـ بالطبع نعم . هذا ما يفعله المثقفون . إنه لعمل طويل شاق ، وليس من خلال انتاج أدب مُوجّه وأيدولوجي بمقدورك إيصال الرسالة . نحن نشير إلى مستويين : عمل سياسي محدد ، وعمل إبداعي . والعملان يتميزان بشكل عام ، وإلاّ ستحصل على فن أو أدب يخلو من الروح ، وعقيم .

□ **كيف يمكن للمثقفين أن يهيئوا الأرض لعملية التقدم ؟**

عليهم أن يعوّدوا الناس على وجود الشك ، والنقد ، وعدم الموافقة ، وتمجيد الجرأة المنغمسة بالمعارضة ، والإصرار على حق قول لا ، وأن تكون وحيداً ، وأن تقف خارج القطيع . بإمكان الفنانين المبدعين قول كل هذا بطريقتهم الخاصة وضمن تخصصهم ، وذلك بأعمال صعبة ذات دقة بالغة .

ثمة موقفان ممكنان . بمقدور الفنانين المبدعين القيام بعملهم ، ومحاولة إرضاء

أنفسهم دون الاكتراث بفهم شعبهم لهم أم لا . أو أن يحاولوا التغلّف بروابط ثقافة المجموع القوية . من المستحيل ، بلا شك ، التغاضي عن وسيط مهم كالتلفزيون مثلاً . ينبغي علينا معرفة استخدامه ، وأن نتعلّم العمل فيه والتعبير عن قِيَم جديدة من خلاله. وعلينا ، بالطبع ، أن نقاتل في سبيل ذلك . يجب على الأفكار الجديدة أن تجابه الأفكار القديمة ، مثلما يفعلون في كل مكان . علينا أن نحيل إلى مثال أوروبا من جديد . لقد قاتل الناس من أجل أن يجعلوا أوروبا ما هي عليه اليوم . الحرية ليست بالشيء الذي يُقدَم على طبق ، كالإفطار . يجب أن تُكتَسب . فلنكن حذرين ، لا شيء يدوم للأبد طالما أنه كان بلا مقابل .

□ **وكيف للمثقف أن يباشر بتنفيذ هذه المهمة ؟**

ـ من خلال التعبير عن نفسه أولاً وقبل كل شيء . ولكن ماذا يحدث اليوم ؟ يبدو أن ثمة نوع من حاجز الصوت . ليس بالإمكان سماع المثقفين . هل يعبّرون عن أنفسهم غير أننا لا نستطيع سماعهم ؟ ربما . ربما يصرخون من قعر رؤوسهم ولا نستطيع سماعهم .

□ **أليست هي مشكلة كبيرة أن تكون قادراً على التواصل بحرية مع بقية العالم ؟ أن تكون متمشياً مع ما يحدث في الأمكنة الأخرى ، ومع ما يفكر فيه الناس الآخرون ؟**

نعم ، ليس ثمة معلومات كافية وليست ثمة محاولة لتشجيع الناس على معرفة ماذا يحدث . لكن هنالك دائماً الإشاعة ، سلاح الفقراء . الإشاعة ، وروح النكتة ، والسخرية ـ يمكن أن تكون فعّالة جداً ، لكنها ليست كافية بكل تأكيد .

□ **من هو ، في رأيك ، الذي قام أو يقوم بتهيئة طريقة للمستقبل في الرواية ، والفن ، والأدب ؟ لقد أتيتَ على ذِكر نجيب محفوظ .**

نعم ، إن محفوظ هو رمزنا الوطني . لكن لا تنس طه حسين من قبله . أو

العراقي السيّاب ، الذي مات في الكويت عام ١٩٦٢ . هو شاعر عظيم بالنسبة لما تحتفظ به ذاكرتي . شاعر حديث ، متقدّم في زمنه ، وقام بتهيئة أرض جديدة في الشعر العربي . كان يمتلك رؤية للعالم كونيّة ومتجذّرة بعمق ، في الوقت نفسه ، في موطنه الأم . مثلما كان يمتلك دقة بالغة في استخدامه للغة العربية .

نفخ أدونيس حياة جديدة في اللغة العربية ، وإنما بكيفية لا تبدو لي ناجحة تماماً . إنّ قصيدته ذات تقنية عالية ، ،وذات ذهنية عالية أيضاً . لكن محمود درويش هو النقيض تماماً . إنه شاعر صاحب زخم لفظي ، ومالك لقدرة كبيرة على المجاز ، وللإدراك الحسي الرحب ، ويكتب للجمهور العريض . يمكن أن يشكل التوليف بين أدونيس ودرويش النموذج المطلوب . إنّ شاعراً كهذا يمكن أن يكون أعظم شاعر في العالم العربي ... لكننا لا نملك شاعراً مثله ... ثمة شعراء عظماء قليلي العدد في العالم على أية حال .

□ **والرسامون ؟**

أنا أحب الرسامين التجريديين . بالنسبة لي ، فإن أعظمهم هو الرسام المغربي أحمد شرقاوي ، الذي مات عام ١٩٦٧ وهو في السادسة والثلاثين . هو رسام مثير للمشاعر القوية . لقد كان يستخدم الألوان الأساسية ورموز عالمنا الواعي وغير الواعي ، عالمنا كعرب وكأفارقة .

□ **إن العمل بعمق على اللغة ، والرموز ، والتصورات ، هو إحدى وسائل تهيئة الأرض للحداثة ، وتهيئة الناس للتفكير المستقل ، وللحرية . هل يقود هذا العمل إلى التفسخ أم إلى عملية تركيب ؟ أهو بحث عن تسوية لما بين الداخل والخارج ، بين القديم والجديد ؛ أم هو ضرب من توتر كبير يدمّر كل إدراك للمواصلة ؟**

كاستهلال ، وكما أعتقد ، فإن علينا أن نتحدّث بغرض إحداث تغيير نظيف . علينا أن نفعل هذا لنصدم الناس وندفعهم لأن يفكروا . وبعدئذ يتوجب محاولة البحث عن أرض مشتركة . وقبل كل شيء يجب أن نتوقف عن اتخاذ وضعية ضحايا

الغرب والتصرف بسلبية تجاهه . علينا أن نتقاسم مع الغرب ، وعلى قدم المساواة ، إعادة بناء العالم . علينا أن نملك خطابنا بعيداً عن العنف ، والتعصّب ، أو الخوف . علينا أن نتكلم بهدوء وبقوة . لن نكون مؤهلين لدخول عصر العالم الجديد بغير الموافقة على الاشتراك بالحوار مع الطرف الآخر . وأنه من خلال القبول بالناس الآخرين في بلداننا نبدأ باحترام جيراننا ونكون محترمين بالمقابل . وبعدها ، سوف نكون قادرين على تصور مستقبل مشترك معاً . إذا أردنا من الدولة أن تحترم حقوق الإنسان وأن تضمنها ؛ علينا أوّلاً أن نحترم بعضنا بعضاً . ينبغي أن يرى المولود الجديد الرجال يحترمون النساء ، مثلاً ، وهكذا دواليك .

**□ هل تعتبر عملك محاولة لتحطيم الأشياء ، أم لرؤيتها متجمعة ؟**

جئتُ إلى الشعر عبر الحاجة القصوى لشجب الغبن ، والاستغلال ، والإذلال . أعرف أن هذا ليس بكافٍ لتغيير العالم . ولكن أن تبقى صامتاً ، فإن هذا لنوع من الاشتراك في الجريمة لا يُطاق .

التحطيم يكمن هناك : تحطيم الابتهال للصمت . أن نعبّر بالشعر عن الرغبة بعالم أكثر إنسانية ، بينما تدرك حدود الأدب . ومع هذا فعلى المرء أن يكتب ، لا بل عليه أن يفعل هذا لأن الإنسان ليس في وضع طيب أو كريم .

**□ أي شخصيات وأية موضوعات في عملك هي الأكثر تمثيلاً لموقفك ؟**

إن شخصياتي على الأغلب مدفوعة برغبة متقدة للعدالة . هي شخصيات متمردة وغير قابلة للرشوة . أودّ التنويه بشخصيتين . امرأة ، هي حرّودة . ورجل ، هو موحا . كل منهما ، وفي كتابين مختلفين ، يحمل الشهادة على جراح شعوب المغرب . قد تكون الشخصية شخصية هامشية ، لكنها تعبّر بقوة عن شَغَف بالحقيقة والكرامة . عندما أفكّر بعملي على نحوٍ ما ؛ فإني أدرك بأنني كتبت عن المطرودين ، وعن ظروف المهاجرين ، وعن ظروف النساء اللواتي لا يتمتعن بالحقوق المشروعة كالرجال ، وعن الفلسطينيين الذين جُرّدوا من أرضهم وحُكم عليهم بالنفي واليأس .

حتى ضمن الكتاب الصغير الذي كتبته عن النحّاتِ جياكوميتي ، قُمت بتطوير هذه الموضوعات الرئيسة . موضوعات العزلة والكَرَب .

أنا الذي يحب الحياة رغم كل ما يطحنها ، الذي يحب الصداقات ، والنكات ، والضحك ؛ أكتب عن الجراح ، وعن الخيانات الأبدية للحياة . هذا ليس بالأمر المسلّي جداً .. لكنه أمر مخلص . إنَّ عهدي هو عهدٌ على الإخلاص .

عن ***The UNESCO Courier***

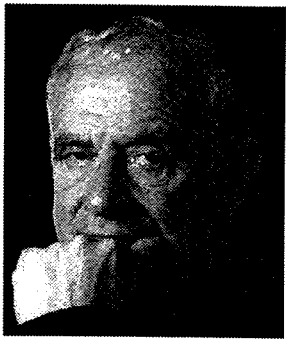

# 2 يهودا عميخاي

أجرى الحوار : إيدجار رايخمان

يَهودا عميخاي واحدٌ من أبرز الكُتّاب الإسرائيليين ، عُرِفَ على أنه شاعرٌ في الأساس مع أنه كتب الروايات ، والقصص القصيرة ، والتمثيليات الإذاعية . تَميَّز شعرهُ ، حيث امتزجت فيه الإشارات التوراتية والمعاصرة ، بلغته البسيطة غير الفصيحة والمستمدة من الحياة اليومية .

حاز عام ١٩٨٢ على جائزة دولته الأدبية على مجمل أعماله . ومن بين مجموعاته الشعرية المترجمة إلى اللغة الإنكليزية والتي نشرت : « قصائد مختارة » ـ ١٩٨٦ ، و « سكونٌ عظيم » ـ ١٩٨٣ ، و « قصائد حب » ـ ١٩٨١ .

ـ مقدّمة المجلة ـ

# يهوذا عميخاي : جندي صهيوني يكتب الشعر

صلاح حزيّن

رغم إسهامه في حركة التجديد الأدبي في إسرائيل من خلال رواياته وقصصه القصيرة التي كتبها منذ أوائل سنوات الخمسين إلاّ أن يهوذا عميخاي معروف على نطاق واسع بأنه أهم شاعر إسرائيلي يكتب باللغة العبرية . الشعر إسهامه الأدبي الأساسي ، وفي شعره الذي بدأ كتابته منذ سنوات الأربعين تبرز ملامح التجديد التي لم تقتصر على الأشكال الجديدة التي كتبها متأثراً بشعراء ألمانيا الكبار وخاصة ريلكة وهولدرين ، بل وعلى الروح القلق الذي بدأ يساور أعماله على رغم كونه في صورة أو أخرى استمراراً لجيل البالماخ ، ذلك الجيل الأدبي الإسرائيلي الذي ضم كتاباً من ذوي التوجه القومي الضيق ممن حاربوا في صفوف قوات البالماخ التي أسستها الحركة الصهيونية في فلسطين لمواجهة ثورة الشعب الفلسطيني الكبرى ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .

في أدب جيل البالماخ هذا ، تبدو صورة الإسرائيلي كشخصية إيجابية قوية واسعة الحيلة لا تعرف إلى الفشل سبيلاً . وقوته هذه هي قوة المجموع .

وتمثّل هذه الحقيقة المدخل لفهم أدب يهوذا عميخاي المولود في المانيا في العام ١٩٢٤، والذي هاجر إلى فلسطين في العام ١٩٣٦ . ومنذ أوائل سنوات الأربعين تطوع في الجيش البريطاني ليخوض معه الحرب العالمية الثانية ، التي ما أن وضعت أوزارها حتى بدأت الحركة الصهيونية تدق طبول الحرب التي يصفها عميخاي بحرب الإستقلال .

وحرب الإستقلال ، كما يشير إليها عميخاي ، هي حرب ١٩٤٨ التي تقول الرواية الصهيونية أنها حرب اليهود في فلسطين ضد البريطانيين ؟؟ أما العرب ، فهم جيوش معتدية حاولت سلب اليهود استقلالهم فحاربوهم وهزموهم وحققوا استقلال إسرائيل .

من المهم أن نذكر أن هذه الرواية لحرب ١٩٤٨ هي المعتمدة في أوروبا وأميركا حيث تصاغ أسطر التاريخ وتقدّم إلى العالم على أنها حقائق ، ولتذهب رواية الضحية إلى الجحيم.

إن أجواء الحرب والقتال وهاجس الموت هو الذي يشكل أدب عميخاي وحياته . ومن يدقق في المقابلة المنشورة سيدهش لحجم مفردات الحرب التي يستخدمها في هذه المقابلة ، وهو لا يستخدمها ليقرر حقيقة تاريخية أو للإدلاء بوجهة نظر في علاقة دامية مع العرب فقط ، بل يستخدمها في وصف الشعراء الذين يشبههم « بكتيبة المشاة ، الجنود الراجلون في أي جيش، أنهم هناك خلال الحرب . أما الروائيون فإنهم أكثر شبهاً بالجنرالات الذين يجلسون في المخابئ . . » كل هذه المفردات المدججة تأتي رداً على سؤال حول لماذا نحتاج الشعر ؟

وحين يتحدّث عن حاجته إلى مزيد من النزعة الذاتية في شعره ضمن شعر عبري تقليدي امتلك مشاعر جماعية ، فإنه لا يجد أمامه سوى الحرب والجنود وتجاربهم الفردية ضمن « الحروب العادلة » ومن ضمنها حرب الإستقلال بالمعنى الذي أشرنا إليه . فأي ذهن محشو بعبارات التجييش والعسكرة ومفردات الحرب والقتل هو ذهن أهم شاعر إسرائيلي ؟!

غير أن عميخاي الذي جسّد أدب جيل البالماخ في سنوات الخمسين في صورة رئيسية لم يعد كذلك في سنوات السبعين . فقد جرت تحت الجسر مياه كثيرة كما يقال . وهذا ما يعطي معنى لمقارنة ما يكتبه من شعر الآن بما كان يكتبه ناثان الترمان ، وهو شاعر آخر من جيل البالماخ الذي كان يدمج الذات القوية المحاربة بالمجموعة ، فيتحدّث بضمير الجمع « نحن » وهو ما واظب على كتابته وبالطريقة نفسها حتى وفاته في العام ١٩٧٠ .

أما عميخاي ، فلم يعد في إمكانه الكتابة على غرار ما كان يكتب الترمان الذي يتمتع بثقة مطلقة في تمييز الخير من الشر . الخير هم يهود إسرائيل ، والشر هم العرب والفلسطينيون .

***« فبها نقوي الجدار***

***وبها نشيد المباني***

***وبها يغرسون أفكار القتل***

***لمحو الإنسان»***

هكذا ظل يكتب الترمان ، أبيض وأسود ، خير وشر ، نحن وهم . وهو هنا يكتب

عن المسامير التي كان الفلسطينيون يلقون بها تحت ناقلات الجنود التابعة للقوات الصهيونية ، أما اليهود فيستخدمونها في البناء .

أما عميخاي الذي كتب ما يشبه هذا في سنوات الخمسين ، فإنهُ وبعد حرب تشرين الأول ١٩٧٣ ، وجد نفسه يجلس ليكتب :

***ساميون يقذفون لا ساميين ،***

***ولا ساميون يقذفون لا ساميين ،***

***أشرار يقذفون ،***

***وأبرار يقذفون ،***

***آثمون يقذفون ومخطئون يقذفون .***

لم تعد الحدود واضحة لديه ، والقلق الذي بدأ يساور روحه تحوّل إلى شك في كل شيء وعجز عن التمييز ، أمام وابل الحجارة الذي يقذفه الجميع على الجميع .

وهذا الشك الذي بدأ مع سنوات السبعين ظلّ يقلق قلب المحارب القديم حتى كانت الإنتفاضة . وخلال الإنتفاضة ارتفع صوت عميخاي مع غيره من أدباء إسرائيل ومثقفيها في الإبقاء على الوهم الذي عاش عليه جيل البالماخ طويلاً والذي يقوم على « عدالة » حروب إسرائيل من حرب ١٩٤٨ إلى حرب لبنان التي لم يكتب عميخاي شيئاً ضدها محتفظاً بزهو المحارب القديم .

غير أن الإنتفاضة كانت شيئاً آخر ، فخلالها أصابت حجارة الوعي كثيرين ومنهم عميخاي الذي اضطر أخيراً إلى القول في المقابلة « علينا أن نرى الآخرين حتى وإن كنا نعتقد أننا خصومهم وأنّ عليهم أن يفهموا وطنيتنا ، كما أن علينا أن نفهمهم ونفهم وطنيتهم » .

ورغم ذلك كله فإن عميخاي لم يتقدّم في موقفه عن هذا الذي يدعو إليه في المقابلة، فهو لم يكن يوماً داعية سلام ، ولم يقترب من معسكرهم ولم يتخذ موقفاً شبيهاً بذلك الذي اتخذه زميله في الكتابة وفي « حرب الإستقلال » يزهار سيميلانسكي ، أو زميله الثاني عاموس كينان . ولا مواقف أدباء الجيل التالي على جيله أمثال عاموس عوز وأبراهام يهوشواع وديفيد غروسمان ، بل أصبح على استعداد « لفهم الآخر وفهم وطنيته » لكنه فهم الجندي الصهيوني المسكون بالقتل المدجج بمفردات الحرب ، وليس فهم الشاعر المثقف .

مسودة .
ثم أطفأ بالاتشام بالإنسان
تنزعقك طير الحجل
ضرب المحال واتخاذه
كما ينجس به . . . الناس

## الشعراء كتيبةٌ مُشاة!

□ **ما هي منزلة الشعر في حياة الشعوب ، وهل يمكن للشعر أن يُسْهم في سعادتها ؟**

إذا كنت تكتب عن الأمور التي تحدث للشعب فباستطاعتك ، عندها ، أن تُسْهم في السعادة . لقد ساعدني شعري على التغلّب في حالة مواجهتي الأولى لحياة الرُشد والبلوغ . فبين سنّ الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وجدتني داخل حربين ؛ الحرب العالمية الثانية وحرب إسرائيل من أجل ( الاستقلال ) . ولقد إستغرقني وقتٌ لكي أتغلّب على هذا ، وحتى أتبيّن ما معنى أن أبدأ حياة بلوغي في خِضَم حرب . لقد إحتجتُ إلى كلماتي لأحقق سلاماً مع نفسي .

لا أعتقد بأنّ عليكَ أن تكذب في الشعر وأن تقول بأن كل شيء على ما يرام وجميل . لكنك تستطيع أن تكتب عن الأشياء وكما هي عليه بطريقة إيجابية . باستطاعتكَ أن تُغنّيها وعبر هذا الغناء تتحوّل الأشياء ، حتّى السيئة منها ، لتكون مُهدّئةً وقادرة على مداواتك .

أعتقد بأن الشعر جزءٌ من مداواة الجنس البشري مثلهُ في هذا مثل سائر الفنون . فَكّرْ في لوحة *الغرنيكا* لبيكاسو . إنها صرخة إحتجاج كبيرة ضد وحشية الحرب الأهلية الإسبانية . أو قارنْ كيف يمكن للقصيدة أن تكون كالتهويدة . ثمة تهويدة يديشية تتوالى هكذا : « نَمْ يا طفلي ، نَمْ . أبوكَ ذهب إلى الحرب . الجنيه تتدهور قيمته ، المدينةُ تحترق ، الأعداء قادمون ، الذئاب تعوي ، ولكن نَمْ يا طفلي ، نَمْ . » لقد ذكرت الأمُ جميع الأمور السيئة بطريقة أحالت حتّى الحريق والعدو إلى مهدِّئات

للطفل. لم يكن ثمة داعٍ لأن تكذب وتتحدّث عن الملائكة والفراشات .

**□ كانت مجموعتك الشعرية الأولى « الآن وبقية الأيام » ، حيث رأى فيها النُقّاد إشارةَ تَغيُّر جذري في اللغة العبرية وولادة مدرسة جديدة في الشعر العبري .**

حَسنٌ ؛ إني أعرضُ على وصفها بـ« مدرسة جديدة » . لقد بدأتُ بالكتابة وفكّرتُ بأنَّ الجيل السابق عليَّ لم يكن بقادر على التعبير عن تجربتي . فالأمر أشبهُ بذهابكَ إلى مطعمٍ وتناولكَ لطعامٍ في غاية الجودة ، ثم تذهب إلى بيتك قائلاً ، « إني حقاً أريد أن أجعلَ من هذا الطعام ذاتي » . وهكذا جعلتُ منه ذاتي .

تمثّل التغيّر في أني كتبتُ عن أمورٍ كانت عند حافة المحظورات في الشعر . وذلك بالمقارنة مع ناتان ألترمان ، وهو كاتبٌ كبير ينتمي إلى الجيل السابق عليَّ . لقد كتب قصائدَ حربٍ ، لكنه لم يستخدم على الإطلاق كلمة « بندقية » . كان يتكلّم دائماً عن السيف والقوس .

**□ أتريد أن تقول بأن الشعر العبري التقليدي إمتلكَ مشاعرَ جمعية ، وأنك كنت بحاجة إلى مزيدٍ من النزعة الذاتية في شعركَ ؟ .**

ثمة ما هو حقيقيٌّ في هذا . لقد كتب الجيل السابق عن الـ« نحن » ، بينما كتب جيلي عن الـ« أنا » . حتّى خلال الحرب، عندما يقومُ المصير المشترك بتقريب الناس إلى بعضهم بعضاً ، وحتّى خلال حرب في غاية العدالة كالحرب العالمية الثانية أو حرب إسرائيل من أجل ( الاستقلال ) ، فإنَّ كل جندي لديه أسئلة إذا ما كانت حرباً طيبة أم سيئة ، إذا ما كانت ضد أُناسٍ طيبين أم أناسٍ سيئين . كل جندي لديه تجربته الفردية . وعلى نحوٍ مماثل ، فإنك لا تكتب قصائدَ حُبٍ عن الحب عموماً ، وإنما تقوم بكتابة قصائد عن تجربتك الشخصيّة في الحب .

وأريد أن أضيف ، مع هذا ، بأنني ما كنتُ أعملُ على محاولةٍ واعيّة لتغيير الشعر العبري . كل ما كنت أريده هو أن أكتب شعري أنا . أقولُ هذا لأن ثمة شعراء من أبناء جيلي كانوا واعين جداً ، وفي غاية القلق حيال ما يفعلون . إني أعتقد بأن

الفنان الحقيقي يفعل ما يفعل وذلك لأن هذا هو الأسلوب الوحيد القادر عليه .

□ **لماذا نحتاجُ إلى الشعر ؟**

أشعر بأن الشعر أقدم الصيغ الأدبية للتعبير . الصلوات شعرٌ ولم يُصبْها التغيير . لقد تغيّرت اللغةُ والصُور ، لكن الأشياء الأساسية بقيت هي الأحداث الإنسانية : الحب ، والموت ، والحزن ، واليأس ، والأمل . تمجيد المرأة ، وتمجيد الرجل، وتمجيد الحب . النحيب عليهم . لذلك فإنَّ الشعر ، على نحوٍ ما ، يشكّل في الحقيقة الركيزة والعمود الفقري لتجربة الإنسان اللغوية ، منذ التوراة مروراً بأعظم القصائد في العالم .

إنهُ الركيزة لأنك ، في الحرب ، لا تأخذ معكَ كتاباً لتولستوي . فهو كبير جداً بالنظر إلى مسألة حمله . لكنكَ تقدر على أخذ بضعة قصائد ، حتّى وإنْ كانت داخل رأسك . لهذا السبب أعتقد بأن الشعر سوفَ يبقى ويدوم . قد يضطر الروائيون إلى التكيّف لمتطلبات الأفلام أو التلفزيون ؛ عليهم أن يتغيّروا بإستمرار . غير أن الشعر يبقى كما هو .

قلت ذات مرة بأن الشعراء مثل كتيبة المُشاة ، الجنود الراجلون في أي جيش . إنهم في الخارج هناكَ خلال الحرب ، كلهم مع أنفسهم بالإضافة إلى حفنة من الآخرين. أما الروائيون فإنهم أكثر شُبهاً بالجنرالات الذين يجلسون في المخابئ يخططون لعمليات كبيرة ولا يشاركون فعلاً . وبالطبع ؛ فإنَّ الأكاديميين الأدبيين أشبه بالمؤرخين الحربيين الذين يكتبون عن الحروب الماضية لأنهم ، بهذه الطريقة ، ليست ثمة من خوفٍ عليهم جرّاء إصابتهم بالرصاص .

□ **هل مَرَّ الشعر العبري بأي تغيّرات عروَضية مهمة ؟ أأنت حُرٌ في إستخدام الوزن ؟**

ثمة طراز واحد في غاية الصرامة ، حيث تجدُ فيه السونيتات ، والمقاطع الشعرية المؤلفة من بيتين ( الدوبيت Couplets ) ، وشعر مُقفى وموزون . لكن هنالك أيضاً طراز آخر ، طراز التوراة والصلوات الذي هو متحرر من كل هذا ، ويمتلك نوعاً من

الإيقاع الداخلي . لقد كتبتُ قصائد وفق الطرازين . كما قمت بكتابة حوالي ستين رُباعية ، وهو طرازٌ شعريٌّ من القرون الوسطى والمعروف على نطاقٍ واسع عبر رباعيات عمر الخيّام . إنه قصيدة مكونة من أربعة سطور ، شديدة الصرامة ، لها الإيقاع الواحد عند النهاية . إنها مثل السونيتة في اللغات الأوروبية . كتبتُ الرباعيات تحت تأثير واحدٍ من شعرائنا القروسطيين ألا وهوجودا هاليفي . كان واحداً من كبار الشعراء اليهود الذين عاشوا جنباً إلى جنب الثقافة الإسلامية في جنوب إسبانيا حتى تم إخراج كلا الثقافتين معاً .

**□ لقد وصلت أعمالك إلى عدد كبير من الناس عَبْر ترجمتها إلى عشرين لغة.**

نعم . وإنّ هذا لشكلٌ من أشكال التعويض . لأنه إذا كان لكَ من حُضور في تلك الأوقات فهم لا يتجاوزون الخمسين ، أو المائة ، أو المائتين ، أو الأربعماية من الناس. إن الشعر الآن يحوز على طريقة أخرى للوصول إلى الناس ، وأعتقد بأن هذا في غاية الأهمية . إنه أشبه بشروعك في إشعال حريق بقليلٍ من الأغصان الصغيرة . ربما تهبُّ ريحٌ قوية فيما بعد ، لكن ينبغي دائماً أن يتوفّر إحتراقُ نار . سُئلت إثر ترجمة شعري « هل تعتقد بأن شعرك سوف يفقد شيئاً عند الترجمة ؟ » ، وقلت : « أجل ، بالطبع ، لكننا نفقد أشياء وأشياء في كل الأوقات . نفقد وزناً ، إلاّ أن هذا يمكن أن يكون أمراً جيداً » . لا بأس إذا ما فقد الشعر قليلاً في سبيل البقاء .

**□ كيف تُفسّر بأن شعرك المتجذر في تجربتك الشخصية وفي مكانٍ وزمان محددين ، يمكن له أن يُفْهَم ويُقدَّر من قبل شعوب مختلفة جداً ؟**

إذا أنتَ تكلمتَ عن حياتك وأحاسيسك الخاصة ، عندها ؛ فإنها تَصِلُ فوراً إلى الشعوب الأخرى كما أعتقد . إنَّ ما يحدث الآن ، وفي أرجاء العالم كافةً ، يستدعي الإلتفات إليه بشدة . فالشعوب تجمع قواها على المستوى الإقتصادي ، غير أن الثقافات واللغات المحليّة عادت لتكون في غاية الأهمية . وكلما كان العمل الفني أكثر محلّية ، كان أكثر تحلّياً بالمصداقيّة . وبالنسبة لي ، لا شيء يُجاري الفن في صفة العالميّة .

وأعتقد بأنّ هذا هو سبب فشل الأسبيرنتو ( لغة عالمية مقترحة ) .

**□ قُلتَ بأن جذوركَ تمتدّ في ماضي وحاضر أرضكَ وشعبكَ ، وأنكَ لم تكن يوماً قومياً شوفينياً . ما الفرق بين الوطنية الحقة والقومية الكارهة للأجانب والخائفة منهم ؟**

أعتقد أن هذه واحدة من مشكلات وقتنا الأساسية . إنه لأمرٌ جيد أن تُحبَ ثقافتك ، وأرضكَ ، ومناخكَ ، وتاريخكَ . لكن إذا كانت الوطنية قد أُسست على نفي ثقافة الآخر ؛ عندها تكون وطنية سيئة . فالوطنية تعني ، أيضاً ، أن تتحدّث محتجاً ضد شعبكَ إذا ما إعتقدتَ بأنه يمارسُ فعلاً خاطئاً . لا بل إنّ هذه الوطنية أقوى. على الوطنية الحقة أن تكون ناقدة لنفسها في بعض الأحيان .

**□ إنَّ هذا يقودنا للتطرّق إلى الفلسطينيين ...**

ذلك أمرٌ مهم . نحن لا نعيش في عالَم فارغ . أصحاب العقول الضعيفة فقط الذين يعتقدون بأنهم الشعب الوحيد الموجود في العالم . علينا أن نرى الآخرين حتّى وإنْ كنا نعتقد بأنهم خصومنا وأنهم ارتكبوا أخطاء قليلة . علينا أن نحاول وأن نعمل لجعلهم يفهمون وطنيتنا . كما علينا أن نفهمهم ونفهم وطنيتهم .

**□ هل تعتقد بأنكَ وشاعر فلسطيني مثل محمود درويش ، تستطيعان العمل معاً ، وأن تفعلا شيئاً لحل المشكلات القائمة بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟**

بطريقةٍ ما ، فإن هذا وارد . نحن صديقان جيدان . نحن لا نلتقي كثيراً ، لكنه قام بترجمة العديد من قصائدي إلى العربية ونشرها في سوريا ومصر قبل معاهدة السلام الإسرائيلية ـ المصرية . إني أختلف مع محمود درويش حول بعض النقاط المحددة، لكني أعتبرهُ شاعراً كبيراً .

باستطاعتنا أن نفعلَ شيئاً يكون ، بمعنى من معانيه ، أشد عمقاً في تأثيره مما تم فعله من قبل السياسيين والصحفيين . الشعرُ شديد البُطء ، لكنه أكثر غوراً في تأثيره .

الشيء الأساسي في شعر محمود وشعري يتمثّل في الإنطلاقة من الناس في أماكن وجودهم . وذلك هو النقطة حيث تلتقي الشعوب .

**□ هل تعتقد بأن العالم خاضعٌ لقدريّة الصراع ، وأنه محكومٌ عليه بالإنفجار أو الإنهيار ؟**

يعتقد الناس في كل جيل بأن العالم مقبلٌ على الإنهيار ؛ وهذا واحدٌ من مشاعرنا الأساسية . لقد فَكّر والدي أن كل شيء سيؤول للسقوط إنْ لم يكن العالمُ متديّناً . بعض الناس يشعرون بأن العالم سوف يتمزّق إذا ما انهارت الاشتراكية. غير أن ثمة أمور معينة ، مثل الحب ، قادرة على إبقاء العالم حَيّاً .

**□ لكننا الآن نرى أن الشباب بدأوا يتشككون في العالم .**

أذكرُ بأنني عندما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري في القدس عام ١٩٣٩ ، حينما نشبت الحرب العالمية الثانية ، لاحظتُ أن أهلي وأصدقائهم قد امتلؤوا بالقلق حيال ما سوفَ يحدث . كانت حرباً عظيمة ، وكانت تشكّلُ خطراً كبيراً . غير أني لم أكن كذلك : فأنت عندما تكون شاباً فإنك تملكُ تصوراً مختلفاً كُلياً . وعندما خُضتُ حَربيّ الأولتين لم تخالجني مشاعر أن هذه هي نهاية العالم . على العكس تماماً، لقد تملّكني شعورٌ مؤداهُ بأننا نُقاتلُ من أجل عالم شجاع جديد .

**□ هل تعتقد ، إسوةً بآخرين كثيرين ، بأنَّ الأفكار الجماعية العظيمة للماضي قد تحطّمت ؟**

إنني على ثقة كبيرة بأن القرن القادم سوف يجد طريقته لتعيين نفسه على نحو إيجابيّ . لقد اعتقد الناس إثر الحرب العالمية الأولى ، وبسبب من كونها أوّل حرب عظيمة حيث مات فيها الملايين ، بأنه لم يعد للعالم أي أمل . بعدها وقعت حربٌ أخرى . لكنَّ الإنسان إستمر رغم هذا ، حتّى بعد وقائع ( الهولوكوست ) . اعتقد بأنه ثيودور آدورنو مَن قال بعد معسكرات « أوشفيتز » بأن ليس ثمة إمكانية بعد الآن

للحديث عن الله . غير أن الناس شرعوا بالحديث عن الله من جديد .

ربما يكون هذا تفاؤلٌ أحمق ، تفاؤلية شخص يقول « لقد نجوتُ من عدة حروب لذا فإنَّ العالم لا يمكن أن يكون في غاية السوء . » . إنه تفاؤلٌ فطريٌ جداً وساذجٌ ، لكنها فطرية ليست سيئة بالضرورة ، بمعنى من المعاني . وهي كذلك الرغبة بالحياة ، وبالاستمرار ، وبعدم رؤية جميع المخاطر . إذا كنت دائمَ النظر للمخاطر فلسوف تتوقف عن أن تعيش ، وتكتفي بمجرّد انتظاركَ للموت .

لقد أثبتت تطورات الصراع الإسرائيلي ـ العربي تفاؤلي وأكّدت على صوابه . وبغير أن نُلقي بالحَذَرِ في الرياح ، إلاّ أن ثمة أمل يبقى في عالمنا لحل حتّى أكثر الصراعات تأزماً .

*The UNESCO Courier* عن

***October 1994***

# صدر للمترجم

## ترجمات

- موسيقيو مدينة بريمن : قصة للأطفال ، ١٩٨٤
- آدم ذات ظهيرة : قصص مختارة ، بالاشتراك مع مؤنس الرزّاز ، ١٩٨٩ .
- الغرينغو العجوز : كارلوس فوينتس - رواية ، ١٩٩٠

## قصص

- الصفعة : ١٩٧٨
- طيور عمّان تحلّق منخفضة : ١٩٨١
- إحدى وعشرون طلقة للنبي : ١٩٨٢
- من يحرث البحر : ١٩٨٦
- أسرار ساعة الرمل : ١٩٩١

## رواية

- قامات الزبد : ١٩٨٧

حوار الثقافة حوار

# غرف بلا جدران

يكمن المعنى الأساسي لهذا العمل التجميعي في ميزة الفضول والتنبه الثقافيين. الفضول من أجل الحصول على معرفة لا تمنحنا إياها النصوص المتوفرة والشائعة لأصحاب هذه الحوارات؛ وبذا نعمل على كشف المسكوت عنه في ظاهر نصوصهم. أما التنبه فإنه على مدى التغيّر الذي يصيب، غالباً، سيرورة التفكير عند المرء حين تهزّ عواصف التقلّبات/الانقلابات الحادثة في حياة الواقع بحيث توجب عليه، بالضرورة، أن يستجيب لواقع حياة جديد.

هذا كتابٌ ما كانت حواراته لتكون بهذا «الإفصاح» لولا دُربة الذهنية المحاورة على العيش وسع مجتمع مدني ـ مؤسَّس غير منته وغير كامل ـ . وما كانت لتكون بهذه الجرأة على التحديق والمراجعة/المواجهة لولا وجود الفرد كقيمة بحد ذاته، وليس كحياة يبتلعها حوت الجماعة ـ أي جماعة.

من مقدمة المترجم

شخوص الحوارات

ميلان كونديرا فاتسلاف هافل يوهان رايذ كارلوس فوينتس غابرييل غارسيا ماركيز ليوبولدو ثيا ارنستو ساباتو كلود ليفي ـ شتراوس أمبرتو إيكو كاميليو خوسيه ثيلا الطاهر بن جلون يهوذا عميخاي

أزمنة
للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٣٣٦٤٤ ● ص. ب: ٩٥٠٢٥٢، عمّان ١١١٩٥ الأردن